الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 52 - May 2003

مجلة شهرية . العدد الثانى والخمسون . السنة الخامسة . مايو ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات



محمد حسنين هيكل

إمبراطور من تكساس!

صدام حسين فى قصر النهاية ! / يوسف القعيد ▪ الحرب النفسية / قدرى حفنى ▪ النفط مقابل الدماء / إبراهيم عبد الجليل ▪ الحملة على العراق أولى مراحل الاستعمار / جلال أمين ▪ المفكرون فى خدمة الطغاة / مارك ليلا ▪ تقاسيم على قانون عراقى / محيى الدين اللاذقانى ▪ النساء يتكلمن أكثر / جانيت هولمز ▪ قراءة : دراما التمثال / أيمن الصياد ▪ نون : العرب وموسم الهجرة إلى الديمقراطية / سلامة أحمد سلامة ▪

من أحرق بغداد!

طالب البغدادى ▪ روبرت فيسك
نصير شمه ▪ زاهى حواس

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الثانى والخمسون
مايو ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- إبراهيم عبد الجليل.. خبير فى شئون الطاقة.
- أحمد محمد عبد الله.. مدرس مساعد الطب النفسى بجامعة الزقازيق.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جانيت هولمز.. أستاذة علم اللغويات بجامعة فكتوريا. نيوزيلاندا.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الامريكية فى القاهرة.
- درية عونى..صحفية مصرية من أصل كردى.
- روبرت فيسك.. صحفى بريطانى.
- زاهى حواس.. أمين عام المجلس الأعلى للآثار فى مصر.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- طالب البغدادى.. أستاذ جامعى عراقى وخبير دولى فى الآثار.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- مارك ليلا.. أستاذ بقسم الفكر الاجتماعى بجامعة شيكاغو.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد عدنان سالم.. ناشر سوري.
- محيى الدين اللاذقانى.. صحفى وأديب سورى مقيم فى لندن.
- نصير شمّة.. موسيقى عراقى مقيم فى القاهرة.
- يوسف القعيد.. صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٢٠٤٩٠/ ٣٩٢٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب : ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

مــن ســـــرق بغـــــداد؟

قدرُ تلك المدينة.. أن يَسرقَ حُلمَها الطغاة، وأن يَحرقَ تاريخَها الغاصبون والغزاة.

بعد ربع قرنٍ ـ أو يزيد ـ من القمع. وبعد عقدٍ من الجوعِ والحِصار، هاهي عاصمةُ الرشيدِ.. والخلافةِ.. ومدينةُ السلام. تُنْتَهَب.. وتُحترق.

قبل قرونٍ سبعة أحرق التتارُ؛ القوةُ الجارفةُ فى ذلك الزمان، مكتبةَ بغداد؛ الأكبر فى زمانها والأكثر ثراءً بالعلم والمعرفة.

واليوم.. وتحت العلم الأمريكى؛ القوة الأولى الطاغية فى أيامنا هذه، وفى ظلال مدافع الدبابات والمدرعات التابعة لمن قرر أن يعتبر نفسه «شرطى العالم»، دمر الرعاعُ أو المأجورون ـ ربما ـ مكتبة بغداد الوطنية.. ومتحفها..ودار المخطوطات والوثائق.

شهودُ عيان، ومنهم صحفيون غربيون، قالوا أن هناك دلائل تشير إلى أن الأمر كان مرتبًا ومنظمًا. وأن الغوغاءَ جاءوا بعد أن كانت الجريمة قد وقعت فعلاً.. ويقول مسؤولون فى اليونسكو أن آثارًا قد خرجت فعلاً من العراق. رغم أن الأمريكيين يراقبون حدوده بالميكروسكوب خشية تهريب مسئولين أو أسلحة أو وثائق.

ومهما شككوا فى الروايات ـ إذا فعلوا ـ يبقى الثابت أن قوات الغزو المدججة بالسلاح والإلكترونيات.. والمعرفة، حرصت على حماية وزارة النفط وآباره المترامية، فلم تمس. ولكنها آثرت أن تتفرج (ولا نقول تآمرت) على مشهد نهب وتدمير سبعة آلاف سنة كاملة من تاريخ البشرية.

والثابت ثانيًا أن بنود اتفاقية لاهاى (١٩٥٤) وتعديلاتها (١٩٩٩) تُحَمِّلُ قوات الاحتلال المسؤولية (كاملة) عن حماية التراث الثقافى والفنى أثناء الحروب.

والثابت ثالثًا أن النهب ـ أو الدمار ـ قد طال كافة الوثائق التى أرخت لعلاقة العراق بالخلافة العثمانية، وكافة مراسلات العراق مع الشريف حسين فى مكة قبل الثورة العربية الكبرى. فضلاً عن كل ما يؤرخ لفترة السبى البابلى لليهود. وليهنأ كل مزورى التاريخ.

من انتقى.. ومن هو صاحب المصلحة فى إلغاء فصول من الذاكرة.. والتاريخ؟

فى ملف متكامل تقدم «وجهات نظر» رصدًا وتحليلاً.. وأسى لهول ما حدث.

فيكتب عالم الآثار العراقى والأستاذ فى فلسفة الرياضيات دكتور طالب البغدادى عن ستة عقود أمضاها بين جدران أزقة بغداد القديمة التى تحمل بين جدرانها تراكم حضارة تمتد مع الحروف الهجائية من الألف إلى الياء. ويحكى لنا عن الأماكن التى احترقت واحترقت معها ذكريات لقاءاته ومشاهداته لنازك الملائكة وبدر شاكر السياب والجواهرى.

ويحكى كاتبنا البغدادى كيف كانت المكتبة الوطنية التى لحقها النهب والتدمير « هى المكان الأكثر ارتيادًا من قِبَلنا حين كنا طلابًا فى المدارس الثانوية ثم فى الجامعة حيث كانت مكان دراستنا اليومى، نأخذ من كتبها نراجع فيها ونبحث فيها ونسلمها بعد نهاية اليوم. وكان المرحوم الأستاذ مكى السيد جاسم والمرحوم المؤرخ عبدالحميد العلوجى المشرفين عليها. يستقبلون الرواد لا بابتسامتهما الدائمة فقط بل بروح المساعدة والدعم. وقد قضى الأديب الكبير مكى السيد جاسم كل حياته فى خدمة هذه المكتبة والبحث فى كتبها. كان يعتبر كل كتاب من كتبها التى لا تحصى وكأنه ولد من أولاده. كما كان له المذكور مجلس أدبى يعقده فى بيته مرة كل أسبوع، وأصبح واحدًا من أهم المجالس البغدادية، يلتقى فيه كبار الأدباء والمؤرخين والعلماء والفنانين، وكان ـ رحمه الله ـ يعيش وهو فى مجلسه حياة المكتبة الوطنية فكان يتحدث عنها وعن أهم ما اقتنته من كتب ومجموعات».

ولا ينسى كاتبنا البغدادى: «ما غمرت أرواحنا من سعادة وابتهاج حين رأينا نازك الملائكة وهى جالسة تطالع فى بهو المكتبة وأصابعنا تشير فى نفس الوقت إلى سليمان العيسى ولمسية عباس عمارة وعبدالوهاب البياتى وهم يستعيرون الكتب والمجلات، أو نرى حافظ جميل يخرج متأبطًا أحد الكتب وخلفه يسير عبدالكريم العلاف وهو فى حوار مع الشيخ جلال الحنيفى لا نعرف كنهه وفحواه ربما عن آلة العود أو ربما حول الفارابى وما كتبه من أنغام موسيقية».

وليس عن آلة العود، يكتبُ عازفُه المتميز نصير شمة لـ«وجهات نظر». ولكن عن جُرحه العميقِ وذكرياته الخاصة: «بين جناحى ثور عظيم.. خلفى نابو.. وعلى يمين ألواح آشور» ويحكى كيف أنه استلهم من وقفته فى محراب التاريخ (الذى سرق قبل أسابيع) أمله فى المستقبل. ويتذكر أنه «بعد مرور بضعة أيام علىَ وقف إطلاق النار فى حرب الخليج الثانية قررت أن أقدم أول حفل. كانت الدماء ما تزال ساخنة تنزف من عروق وشرايين الشعب العراقى، وأردت لهذا الحفل أن يكون داخل الصالة الآشورية فى المتحف العراقى وكان عنوان الحفل (آتٍ من الماضى، ذاهب إلى المستقبل) لم يكن هذا العنوان مجرد شعار، بل إننى أردتُ أن أقول من خلاله أن الحاضر ليس دائما كما نتمنى، وحينما اخترت مكانى بين اثنين من الثيران المجنحة العملاقة التى يزن الواحد منها سبعة وثلاثين طنا من الحجر الصلب وهو عبارة عن قطعة واحدة، وخلفى الإله الآشورى نابو الذى يتجاوز طوله اثنى عشر مترا، وعلى اليمين واليسار ألواح عظيمة من الحجر تصف وتقف شاهدا على الحضارة الآشورية العظيمة فى العراق.

ويستخلص نصير شمة الفكرة كأنه يضرب بأنامله ليس فقط على أوتار العود الذى يحتضنه، بل على أوتار قلوب حطمتها الحروب والتوترات.. والمغامرات: «كنتُ قلت للحضور يومها، نحن سلالة هؤلاء الذين يستضيفوننا اليوم، والذين أبدعوا هذه الفنون التى سبقت مايكل أنجلو فى استخدام الحركة فى النحت وفى التفاصيل شديدة الدقة. خاطبت الجمهور شارحا: من هنا يجب أن نبدأ من دون أن نلتفت إلى الأطلال التى خلفتها الحرب. كنت كمن يريد أن يطمئن نفسه على إرثه الذى يعشقه وعلى مستقبله الذى يريد أن يسهم به بقوة. وفى الوقت نفسه كنت أريد أن أشير إلى عراقة شعبنا العراقى بعد أن طوقته كل دول العالم الشقيقة والصديقة والعدوة فى حرب لم يشهد التاريخ مثيلا لها من قبل. خصوصا أن إيمان الشعب بنفسه وبتاريخه وبعروبته وبانتمائه بكل الثوابت كان قد اهتز».

اسمُ بغداد فى كتب التاريخ: «مدينةُ السلام»، وفى كتب التاريخ سنقرأ بعد عام.. أو ألف عام، أنه: «فى التاسعِ من نيسان من السنة الثالثة للقرنِ الحادى والعشرين من ميلاد المسيح عليه السلام، دخل الأمريكيونَ بغدادَ.. ويومَها ضاع التاريخ؛ سرقةً، وانتهابًا.. ودمارًا.

أفليس هناك من يسأل أولئك القادمين «ليعطونا دروسًا فى التَّحَضُّر والمدنية»: هل قرأوا فى كتب التاريخ ـ الذى يكرهونه ويحقدون عليه ـ يومَ رفض عمرو بن العاص (المسلم) أن يُدَمِر «صنم» أبى الهول فى صحراء الجيزة الجرداء؟!

أيًا ما كان الأمر.. فربما لن نعرف أبداً من نهب وسرق.. ثم دمر وأحرق تراثًا عالميًا يعود إلى سبعة آلاف عام، وجهدًا علميًا وتاريخيًا استغرق قرنين من الزمان.

ربما لن نعرف أبدًا.. المجرم الذى تلوثت يداه. ولكننا ـ طبقًا للقانون ـ نعرف المسؤول. والذى بحسب مواده، ارتكب بتقاعسه «جريمة حرب».

ولكن «من يجرؤ على الكلام؟».

وبالاعتذار إلى بول فندلى، صاحب المقولة.. ومؤلف الكتاب. ■

وجهات نظر

ملاحظة

■■ خطر على بالى أن هناك حاجة إلى كلمة عن مهمة كاتب اختار لنفسه مجلة شهرية ـ بعيدة عن أعمدة الصحف اليومية وزحامها ـ وظروفها أيضا!

وخطر على بالى أننى فى هذا الصدد أستطيع أن أحدد عدة أغراض لا يصح لهذا الكاتب أن يطمح إلى غيرها:

١ ـ فى مهمته استثارة الذاكرة حتى تترابط الحوادث وتتأكد طبيعتها تيارا يتدفق وموجات تتلاحق، يتواصل بها الأمس واليوم، مع المنتظر والمحتمل.

٢ ـ وفى مهمته أن يبحث فى الحاضر ويطيل النظر إليه بجهد يتجاوز العارض والعابر حتى يركز على فهم سياقه ومعناه ودلالته.

٣ ـ وفى مهمته أن يقدم ما يمكن أن يكون حوارا هادئا مع الناس والأفكار ومع العصر والتاريخ ويستدعى الاهتمام بالشأن العام.

٤ ـ وفى مهمته ـ أخيرا ـ أن يقوم بدور يشبه ما يقوم به الراصد الجوى، بحيث يكون قارئه مستعدا لتقلبات الطقس، فلا تدهمه على غير تنبه وتحوط، فإذا وقعت مفاجأة ـ وجد أمامه بابا أو أبوابا لها مفاتيح قد تتوافق مع الأقفال.

فى هذه الحدود عليه أن يمارس مهمته ـ يصيب مرة أو يخطئ، وينجح مرة أو يفشل ويجرب دائما، فإذا استطاع الوصول فقد أضاف، وإذا لم يصل فقد غطى جزءا من الساحة.

تلك هى الحدود... أو كذلك أتصور، ولعلى لم أخطئ كثيرا ـ لم أقصر دون الحدود، ولم أتجاوز بعدها! ■



محمد حسنين هيكل

إمبراطُور

أولا:
الإمساك بالبيت الأبيض وبالقرن الحادى والعشرين!

■■ لم يتنبه كثيرون في العالم ـ على الأقل بالقدر الكافى ـ لانتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة (نوفمبر ٢٠٠٠) ـ لأن معظم المراقبين اكتفوا بالنظر إلى ما يجرى على واجهة المسرح، ولم تلفتهم ـ كما كان لازما ـ تلك الحركة الهادئة التى تمشى وراء الكواليس حيث يتواجد المشرفون والمديرون والمخرجون والفنيون من كل اختصاص، وكان الاهتمام بهؤلاء أوجب، لأن حركتهم كانت بمثابة التحضير للعرض بما فيه بلورة الفكرة، وكتابة النص، وترتيب المشاهد، واختيار الأبطال، والتأكد من تطابق شخصياتهم مع أدوارهم حين يرتفع الستار ويبدأ حوار المشاهد ويتواصل نحو مقاصده.

وكما بدا فإن معظم المراقبين للمعركة الانتخابية الرئاسية (سنة ٢٠٠٠) ـ ركزوا على مرشحين واجه كلاهما الآخر في المناظرات الانتخابية أمام عدسات التليفزيون، ثم أجمعوا على أنها منافسة بين «السطحية» و«الملل» («جورج بوش» عن الحزب الجمهورى ـ و«آل جور» عن الحزب الديمقراطى) ـ وهى على هذا النحو منافسة يستحق أن يخسر فيها الرجلان معا لو كان ذلك ممكنا، وهو لسوء الحظ لم يكن، وبالتالى فإن الولايات المتحدة خطت إلى قرن جديد (الحادى والعشرين) وفى البيت الأبيض رجل يمثل عوامل الضعف الأمريكى ولا يمثل عوامل القوة ـ بمعنى أن ذلك التردى على مستوى القيادة الأمريكية العليا، والذى زاد مع فضائح «بيل كلينتون» في البيت الأبيض سوف يستمر ويواصل نزوله على السفوح بأساليب أخرى تؤدى فيها التفاهة أو الملل ـ في عهد «جورج بوش» الابن أو «آل جور» ـ ما صنعه الشباب أو الجنس زمن رئاسة «بيل كلينتون» الذى قضى في البيت الأبيض فترتين رئاسيتين: الأولى: منهما استعراض لفتوة الشباب ووعدها المتحفز، والثانية: عرض للضعف الأخلاقى والمعنوى أفقد مركز القرار مهابته.

لكن تلك كانت نظرة تركز على الواجهة لا تتجاوزها إلى ما وراءها أو إلى ما سبقها، بظن أن الواجهة تكفى للحكم على أى عمل باعتبار أن المرئى يغنى عن المخفى ـ ولم تكن تلك كل الحقيقة!

....

....

فى ذلك الوقت لم يتنبه كثيرون ـ على الأقل بالقدر الكافى ـ إلى أن هناك فكرة «إمبراطورية» «تملكت» الولايات المتحدة، وأن هذه الفكرة «تمكنت» بعد سقوط حائط برلين (١٩٨٩) وما تلاه من تداعى الاتحاد السوفيتى، ثم إن هذه الفكرة طرحت نفسها بإلحاح في ظروف حرب الخليج الثانية التى هيأت للقوة الأمريكية فرصة تمارس فيها تجريب ترسانتها الإلكترونية المتطورة في ميدان قتال، ورغم أن الهدف المعلن في تلك الحرب كان تحرير الكويت (نفط الخليج) ـ فإن الهدف الثانى بعده بأن درسا تعطيه أمريكا للعالم ـ بالذخيرة الحية ـ في فاعلية البطش لا ينساه أحد!

وكان مغزى هذا الدرس أن يفهم العالم ـ وليس فقط أن يعرف العراق ـ أن الولايات المتحدة الأمريكية لديها الإرادة ولديها الوسائل التى تضمن لها ما لا يصح لطرف أن يجاريها فيه، فضلا عن أن يتحداها عليه.

وكما يتأكد الآن فإن تلك الحرب (حرب الخليج الثانية) كانت فى جانب



من تكساس!

مهم منها رسالة موجهة إلى العالم بأنه زمن تاريخي مختلف - وأنه أمريكى فى الإعلام والخرائط والبوصلات!

وبالفعل فإنه بعد تحرير الكويت راحت إدارة «بوش» الأب تركز على فكرة رئيسية شاغلها: كيف يمكن تحويل «السابقة» التى عاشها الشرق الأوسط أوائل سنة ١٩٩١ - إلى قانون عام يسود ويتحكم فى القرن القادم (الحادى والعشرين).

والقصد أنه إذا كان القرن العشرين هو قرن الصعود الإمبراطورى الأمريكي - فإن القرن الحادى والعشرين عليه أن يكون قرن التعزيز الإمبراطورى الأمريكي، بما يرسى الدعائم في عمق الأرض ويعلى السقف إلى بعد الفضاء، وكان المفروض أن يكون ذلك هو شاغل إدارة «جورج بوش» (الأب) عندما يُعاد انتخابه - كما كان متوقعا - لمدة رئاسة ثانية، وقد بدا لمن يعنيهم أمرها أنها في اليد - شبه مضمونة أو مضمونة بالكامل!

كان اعتمادهم أن رئاسة «بوش» الأولى (١٩٨٨ - ١٩٩٢) قامت بخطوتها الواسعة على طريق التعزيز الإمبراطورى - بمقدرة وكفاءة:

- ضربت ضربتها في المواقع الصحيحة من الناحية الاستراتيجية، عندما وجهتها نحو الشرق الأوسط وهو المساحة المكشوفة بين آسيا وكتلها البشرية الكبيرة (الصين والهند) - وبين أوروبا (ودولها الصناعية القوية)، وبالتالى تحقق الاختراق نافذا حتى النخاع.

- ثم إن هذا النفاذ تمثل فى انتشار عسكرى واسع مد يده - وقدمه! - إلى أغنى منابع البترول (الذى أكد نفسه، رغم شكوك راودت البعض، باعتباره السلعة الأكثر ندرة والأكثر قدرة على الوفاء بمطالب التقدم والرخاء - على الأقل حتى ثلث القرن الجديد).

- ومع أن هذا النفاذ حقق مطلبه بواسطة تحالف دولى واسع - فإن الولايات المتحدة كانت هى التى رصت أطرافه، وتقدمت صفوفه، ونظمت خُطاه، وضربت باسمه، وقد مشى هذا التحالف وراءها مسلما لها بالقيادة - مبهورا بما ظهر من أدوات قوتها سواء بومض النار أو بوهج الأفكار يشيعها إعلام تفوق في استعمال إلكترونيات توجيه وتركيز السلاح، وبنفس الدرجة في نقل ونشر الصور، وكان سابقا فى الحالتين!

- زاد على ذلك أن النفاذ الأمريكى استطاع أن يعثر على ذرائعه القانونية والأخلاقية، لأن تلك الحرب في الخليج سنة ١٩٩١ بدت لكثيرين حرب تحرير لبلد صغير أغار عليه جار أقوى منه، وذلك أثار فزعه ودفعه إلى طلب النجدة من مصادرها، وقد وصلت النجدة بالفعل إلى طالبها قبل أن يوجه طلبه كتابة أو شفاهة - لأن خطا أحمر وقع تجاوزه، وذلك أخطر من حق الجيرة ومن حق القانون معا!

- وعليه كان التقدير - أن «جورج بوش» (الأب) على خلفية حرب تحرير الكويت، سوف يحصل يقينا على رئاسة ثانية تتم فيها عملية التعزيز الإمبراطورى وتأكيد ثلاثة أهداف:

● سيطرة أمريكية مطلقة في العالم، غير قابلة للمناقشة أو التحدى (الآن وفى المستقبل أيضا).

● سيطرة مباشرة على منابع النفط تتحكم في إنتاجه وتقنين استهلاكه (سواء بضبط الحصص أو توجيه جزء من الموارد للبحث عن بدائل، لأن النفط مورد مستنفد وما هو معروف عن مخزونه يغطى نصف هذا القرن بالكاد).

● ونفاذ غائر وراسخ في منطقة هى على الخريطة - قلب العالم ومفترق طرقه البرية والجوية والبحرية ولا تزال (لأن التكنولوجيا مهما حققت لا تستطيع إلغاء الجغرافيا، باعتبارها الجسم الطبيعى لكوكب الأرض مهما قال وقيل).

....

....

لكن غير المتوقع يحدث دائما (باستعارة عنوان قصة مشهورة لأندريه موروا) - وذلك ما جرى حين خسر «جورج بوش» (الأب) معركته الانتخابية وسقط أمام مرشح آخر مجهول من ولاية «أركانساس» أطلق شعارا سحريا لمس فيه نبض الشعب الأمريكى بقوله «إنه الاقتصاد يا غبى» - موجها الخطاب بالطبع إلى الرجل الحالم بتعزيز

إمبراطور من تكساس!



الإمبراطورية الأمريكية دون أن يتنبه إلى أن الاقتصاد الأمريكي متعب مرهق، فقد خرج من الحرب الباردة مستنزفا، بشاهد أن الولايات المتحدة أصبحت أكبر بلد مدين في العالم، كما أن ظاهر رخائه يعود في صلبه إلى أن أموال الآخرين تدفقت عليه بحثا عن ملاذ بعيد - يمكن أن يكون آمنا (وضمن هذه الأموال فوائض البترول).

وقد نجح «كلينتون» - لكن المشروع الإمبراطوري الكبير الذي تجلى لإدارة «جورج بوش» (الأب) ولأقطابها لم يسقط، فلم يكن ذلك المشروع هو المطروح على الناخبين - لأن المشروعات التاريخية الكبرى أوسع من الضرورات اليومية المؤثرة مباشرة على صناديق الاقتراع!

ومن المفارقات أن الخطوط الرئيسية للمشروع الإمبراطوري كتبت «وثيقة» على الورق في شهر مارس سنة ١٩٩٢، أي بعد دخول «كلينتون» إلى البيت الأبيض بخمسة أسابيع، وتحت إشراف وزير الدفاع السابق «ريتشارد تشيني»، وكان القائم على صياغتها معاون مقرب منه هو «زالماي خالد زاده» (وهو الآن مبعوث الرئيس «بوش» (الابن) للإشراف على ترتيب الأوضاع في أفغانستان - وقد انتقل أخيرا إلى مهمة أخرى هي العراق قبل حرب أمريكا ضده وبعدها).

وحتى هذه اللحظة وبعد إحدى عشرة سنة من كتابة تلك الوثيقة، فإن قراءتها (وهي مدرجة في ملفات مجلس الأمن القومي) - يظل مفيدا وكاشفا لكثير جرى من وقتها وحتى الآن.

وتقول الوثيقة في مقدمتها بالنص:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية عليها أن تعمل بكل جهدها حتى تتأكد من أن أي قوة منافسة (أو صديقة) في أي مكان في العالم - لن تبلغ مكانة توازي مكانتها في القوة وعواملها.

إن هذه المهمة في مقدور الولايات المتحدة وهي تستطيع أداءها عندما تتصرف باسم القوى الصناعية الكبرى في العالم - بعد إقناع تلك القوى بأن الولايات المتحدة سوف تراعي مصالحها المشروعة وتحميها بقوتها العسكرية الغالبة، وعلى هذا الأساس فإن الولايات المتحدة مطالبة بإيجاد الآليات التي تضمن ردع أية قوة منافسة لها ورد طمعها - أو طموحها - إلى القيام بدور إقليمي أو عالمي أكبر.

وعلى مثل هذه القوى الطامعة - أو الطامحة - إلى أدوار كبيرة ومنها ألمانيا واليابان وروسيا والصين - أن تفهم مبكرا أن أية محاولة من جانبها لدخول مجال الأسلحة النووية أو زيادة ترسانتها على ما هو موجود فيها - سوف تلقى مقاومة شديدة تتولد من الشك في نواياها ودواعيها إلى زيادة قوتها العسكرية، وحينئذ فإن مثل هذه القوى لابد أن تفهم أن ذلك سوف يضعها - سواء قصدت أو لم تقصد - على طريق «صدام» مع الولايات المتحدة، وعليه فإن الولايات المتحدة لابد أن تظهر استعدادها مبكرا لمنع أية درجة من درجات الانتشار لأسلحة الدمار الشامل - لكي يتأكد للجميع تصميمها على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمواجهة مثل هذه الاحتمالات، سواء كان ذلك بطريقة جماعية أو بطريقة منفردة».

....

....

[ومؤدى الموضوع في هذه النقطة أن حدود السلاح لدى أي دولة في العالم اليوم، هي حدود ما هو موجود لديها الآن فعلا، ولا يحق لدولة منها أن تتجاوزه، وهنا يتكشف أن العالم أمام مشكلة على الطريق بعيدا عن العراق ووراءه، وأن هناك مضاعفات واسعة المدى تترتب عليها - ولعل تلك معركة الغد وما يليه].

....

....

وكانت إدارة «بيل كلينتون» بحقائق الأشياء - واعية بأهمية المشروع الإمبراطوري الأمريكي، مطلعة على وثائقه - لكنها كانت عازمة على تحقيقه بمزاجها وليس بمزاج أصحابه الجمهوريين الأصليين، ولدى إدارة «كلينتون» في ذلك سببان:

■ من ناحية لأن تلك الإدارة أعطت الأولوية للاقتصاد (وبلغت في شأنه درجة مقبولة من النجاح).

■ ومن ناحية أخرى لأن إدارة «كلينتون» آثرت أن تتخذ مع بقية العالم أسلوبا أكثر نعومة (يعتمد الحرير بديلا عن الحديد).

....

[والحقيقة أن «كلينتون» كان خليطا من متناقضات شديدة، بعضها يشده إلى النجاح وبعضها يقعده مع الفشل:

● فهو من الأول شاب ذكي، موصول إلى درجة كبيرة بروح عصره، وذلك تجلى في برامجه الاجتماعية التي أعطت الولايات المتحدة فرصة لاستيعاب التحولات التكنولوجية الهائلة دون ضغط على أعصاب الناس أو على مستوى معيشتهم أو على فرصهم في العمل.

وهنا فإن إدارته حققت أدنى نسبة بطالة وأعلى نسبة فائض في الميزانية (رغم استمرار التزايد في الدين العام الأمريكي).

● يلي ذلك أن «كلينتون» أدرك أن مشروع أمريكا الإمبراطوري يصعب تنفيذه بتجاهل أوروبا (أو كتل آسيا البشرية الكُبرى التي سارعت تلحق بأسباب التقدم)، وكذلك استقرت إدارة «كلينتون» على أفضلية السماح بقيام مجلس إدارة لشئون العالم له رئيس وعضو منتدب يمثل أغلبية أسهم الشركة الدولية، وذلك يعني حضور أوروبا وكتل آسيا الضخمة في المشاورات والإجراءات (وإلى درجة ما في القرارات) - وتظل الكلمة الراجحة لرئيس المجلس والعضو المنتدب، وهذا ترتيب لا يتجاهل حصة الأقلية أو يهملها، وفي حساب إدارة «كلينتون» أن نجاح المشروع الإمبراطوري الأمريكي يلزمه تجنب إثارة الشكوك - وتقليب مواجع أطراف إمبراطورية أوروبية سابقة مازال لها حتى هذه اللحظة تأثير في القارة وعبر البحار.

● وبعدها كانت إدارة «كلينتون» متفقة على أن النداء الذي يستطيع إقناع الكل بقبول دور متميز للولايات المتحدة هو التصدي للإرهاب الذي تتفاقم مخاطره (مع ظهور انقسام طبقي حاد على مستوى الدنيا بين أغنياء وفقراء وبين متقدمين ومتخلفين)، وفي تقدير الإدارة الأمريكية (وقتها) أن الحرب ضد الإرهاب تستطيع المحافظة على تحالف عالمي واسع يستقطب كثيرين - حتى من الفقراء والمتخلفين - ثم إنه تحت مظلة الحلف المعادي للإرهاب يمكن فتح الساحة أوسع كل يوم لقرار أو فعل أمريكي يضيف إلى قدرة الإمبراطورية الجديدة دون أن يستثير حساسية الآخرين، خصوصا وأن كثيرين في مجتمع الدول يسلمون بأن الإرهاب يحتاج إلى يد طولى تقدر على الوصول إلى أي مكان في العالم - أي وقت من الليل أو النهار، وذلك متوافر لأمريكا قبل أية قوة دولية غيرها!]

....

....

في ذلك كله (مما سبق) كانت إدارة «كلينتون» حريصة وواعية، لكن عُقدة تلك الإدارة - أن شخصية رئيسها لها جانبها الرمادي، فهو أثناء صعوده إلى القمة عقد أحلافا كثيرة مع الشياطين - طاردته أشباحها حين كان حاكما لولاية «أركانساس» - ثم لاحقته عندما انتقل إلى البيت الأبيض رئيسا للولايات المتحدة (وبين الأشباح علاقات منافع متبادلة مع أموال مشبوهة ورجال أعمال يقترب إصرارهم على الثراء من حدود الجريمة).

وزاد أن التكوين الإنساني لكلينتون وظروف نشأته الأولى في بيت محطم، مع أم لم تستطع أن تحدد له على نحو قاطع من كان أبوه - عرضته لتناقض في المعايير ما لبث أن طغى على رئاسته وكسح إيجابياتها.

....

....

وفي مدة الرئاسة الثانية لإدارة «كلينتون»، وبينما الرئيس شبه معوق بمحاولات عزله، وشبه مجروح باضطراره للدفاع عن نفسه أمام شعبه وأمام شعوب العالم - يحاول شرح الفارق بين جنس كامل وجنس غير مكتمل (والناس في كل أرجاء الأرض يسمعون ويضربون كفا بكف ولا يصدقون آذانهم!) - بدت واشنطن حاملة طائرات ضخمة جنحت على الصخور!

وعندها بان لمن يشغلهم «الشأن الإمبراطوري» أن إدارة «كلينتون» لا تقدر على المهمة الإمبراطورية، وأكثر من ذلك لا تُؤتَمَن، وبالتالي فإن عليهم مسئولية استعادة الزمام إلى أيديهم. ولأنهم كانوا بعيدين عن الإدارة (هم جمهوريون وهي ديمقراطية) - فقد صرفوا الجزء الأكبر من جهدهم في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين في البحث والدرس وصياغة المشروعات والدعوة لها - على أمل أن تجيء إدارة جمهورية (تملك

استقرت إدارة «كلينتون» على أفضلية السماح بقيام مجلس إدارة لشئون العالم يمثل أغلبية أسهم الشركة الدولية، وذلك يعني حضور أوروبا وكتل آسيا الضخمة في المشاورات والإجراءات (وإلى درجة ما في القرارات) - وتظل الكلمة الراجحة لرئيس المجلس والعضو المنتدب أي الولايات المتحدة الأمريكية



فرصة للفوز إذا استطاعت حملتها الانتخابية استغلال عيب الضعف الإنسانى الذى شاب إدارة «كلينتون» بنفس القوة التى استغلت به حملة «كلينتون» ذلك الضعف الاقتصادى الذى عاب إدارة «بوش» (الأب)).

وظهرت عدة بؤر تجمع فيها دعاة المشروع الإمبراطورى الأمريكى المؤمنين بقدره المكتوب والمؤهلين للتنظير له، والساعين لتحقيقه كمهمة مقدسة.

وكذلك ظهرت على الساحة الأمريكية وفى مواقع النفوذ (وإن لم يكن فى دائرة السلطة) - وفى مراكز التأثير (وإن لم يكن عند موقع القرار) - جماعات معنية بالأمر راحت تسابق بعضها:

كانت البؤرة - الجماعة - الأولى هى الغلاة من دعاة الإمبراطورية - رجال من أمثال «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الحالى)، و«ريتشارد بيرل» (مدير التخطيط الاستراتيجى في وزارة الدفاع الذى اضطر لتقديم استقالته قبل شهر بسبب فضائح مالية ثبت فيها استغلاله لمنصبه) - و«بول وولفويتز» (نائب وزير الدفاع الحالى) - وكلهم من أقطاب إدارة «بوش» (الأب) وأركانها ونجومها، وهؤلاء ركزوا على بند إحكام السيطرة السياسية والعسكرية على الشرق الأوسط. والسائد فى اعتقادهم أن «إسرائيل» هى الدعامة الرئيسية لخططهم في تلك المنطقة، لأن الشرق الأوسط فيه دولتين لديهما المؤهلات اللازمة لخدمة مشروعهم:

● الأولى: إسرائيل لأنها دولة تملك الكفاءة (في حين أن الدول العربية المحيطة بها حسب تعبير «رامسفيلد» هى في أحسن الأحوال أراض عقارية مازالت خالية وبعضها خرائب!!) - وذلك التقدير أدى بأصحابه تلقائيا وبالعاطفة والعقل معا - إلى تحالف مع أكثر العناصر تشددا في إسرائيل، أى أن أصحابه أصبحوا جميعا مؤيدين لحزب الليكود، وأنصارا لزعيمه الحالى «أرييل شارون».

(وقد كتب أحد الأقطاب من غلاة هذا التيار وهو «ويليام سافير» (من أبرز كتاب جريدة نيويورك تيمس) - مقالا أورد فيه «أنه لا يستطيع أن ينام الليل مستريحا إلا بعدما يسمع صوت «شارون» على التليفون ثم يغمض عينيه!).

● وأما الدولة الثانية التى يمكن الاعتماد عليها فهى «تركيا»، لأنها بالحجم أقوى دولة في الإقليم، وفى نفس الوقت فإنها ليست عربية، وإنما على الحافة الموازية للعالم العربى، ولأن السلطة فيها للقوات المسلحة بنص الدستور، فإن القرار التركى يجيء أقرب إلى «الانبهار» بالتكنولوجيا حيث تتفوق أمريكا و(إسرائيل) - وأبعد عن «الالتزام» بالتراث الذى يجمع تركيا بالثقافة مع العرب.

ومن وجهة نظر أقطاب هذه البؤرة - الجماعة - فإن «تاج» الشرق الأوسط يمكن تثبيته على رأس الإمبراطورية الأمريكية بعملية تصفية نهائية لمؤثرات عربية قومية قد تعاودها أحلام قديمة لم يعد لها الآن مجال، وتامين ذلك يقتضى إجراء عملية جراحية واسعة في العالم العربى تغير أفكاره وتوجهاته - وتغير قيمه ومعتقداته، حتى إذا اقتضت الجراحة زرع قلب جديد، يقبل به الجسم العربى - فكرا وفعلا - مهما كانت درجات الحساسية والمقاومة والرفض - وإذا أصر الجسم العربى على العناد، فإن الجَرّاح القائم على زرع القلب مخول بتوقيع شهادة وفاة!

وكانت البؤرة - الجماعة - الثانية من أقطاب صناعة «البترول»، وبينهم «جورج بوش» (الأب)، و«جيمس بيكر» (وزير خارجيته)، و«ريتشارد تشينى» (وزير دفاعه، والآن نائب الرئيس)، وكان إجماع هؤلاء أن «البترول» هو المستقبل المنظور (حتى يجيء اختراق تكنولوجى يوفر بديلا للطاقة بسعر اقتصادى) - وكذلك كان رأيهم أن «المشروع الإمبراطورى» الأمريكى لا يمكن إسناده بغير سيطرة كاملة على موارد البترول.

وكان الإطار الذى التقى فيه أقطاب هذه الجماعة للبحث والدرس هو مكاتب وقاعات المركز الذى أنشأه «جيمس بيكر» في «هيوستون» (عاصمة تكساس) «لاستراتيجيات البترول» - و(«بيكر» لا يزال يديره حتى الآن)، ومن الملاحظ أن كاتبى التقرير الأول لهذا المركز سنة ٢٠٠٠ اختاروا تصديره بمقدمة لها معنى، منقولة عن نص قديم - من سنة ١٩٥٠ - كتبه السفير الأشهر في الدبلوماسية الأمريكية «جورج كينان» يقول فيه بالنص:

«إن الشعب الأمريكى يمثل ٦,٣٪ من سكان العالم، لكنه يستهلك ٦٠٪ من بترول هذا العالم، والمهمة الأولى للاستراتيجية الأمريكية تقتضى المحافظة على هذه النسبة مهما كانت ظالمة للآخرين والعمل على فرضها بكل الوسائل، دون أن تخدع نفسها بأية أوهام عن مبادئ العدل والمساواة حتى لو اضطرت في سبيل ذلك إلى استعمال قوة السلاح، لأن المبادئ تخاطب الضمائر - والحقائق تصنع الحياة!».

وكانت أبرز الحقائق كما يظهر في الخطوط الاستراتيجية المطروحة للبحث في إطار مركز «بيكر» - منطقا شديد التركيز:

- الخيار الأكفأ للولايات المتحدة هو السيطرة على صناعة البترول (بكافة مراحلها).

- والولايات المتحدة لم تعد تستطيع الاعتماد - كما فعلت - على مصدر رئيسى هو البترول السعودى - كما وقع بعد الثورة الإيرانية - ومع أن السعودية تملك أكبر مخزون احتياطى محقق، إلا أن الاعتماد على البترول السعودى (مع المطالب المالية المتزايدة لأصحابه) - يمكن أن تستنزفه بأسرع من أى حساب.

- ومع ملاحظة أن بترول العراق (وبترول بحر قزوين) كلاهما لم يصل استغلاله إلى الحد الأقصى أو قريبا منه، فإن الاستراتيجية الأمريكية تستطيع إنشاء شبكة واحدة واسعة ومأمونة لبترول الشرق الأوسط يصب فيها بترول السعودية وغيرها من دول الخليج، مضافا إليها البترول العراقى، وبترول بحر قزوين (وبترول إيران بعد تصفية نظام الثورة الإسلامية) - فإن المستقبل يمكن ضمانه «أمريكيا» للولايات المتحدة - وأمريكيا فوق بقية العالم.

وكانت البؤرة - الجماعة - الثالثة هى دائرة مجلس السياسة الخارجية في نيويورك وهو هيئة تساندها أكبر المصالح المالية والتجارية والإعلامية في الولايات المتحدة (من عائلة «روكفللر» - إلى بنك الاحتياطى الأمريكى - إلى بورصة الأوراق المالية في نيويورك - إلى باحثين من مستوى «هنرى كيسنجر» و«زبجنيو برجينسكى» وحتى «كونداليزا رايس» (مستشارة «بوش» (الابن) للأمن القومى).

وكانت هذه البؤرة تولى اهتماما خاصا بالاتحاد السوفيتى (وروسيا بعدد) وبالصين، وبأوروبا ودولها الرئيسية مثل فرنسا وألمانيا، إلى جانب حزام الزيتون على شاطئ البحر الأبيض جنوب أوروبا (إيطاليا - أسبانيا - اليونان).

وبرغم علاقات القرب بين أوروبا وأمريكا، فإن مجلس السياسة الخارجية تولد لديه «هاجس» «أن أوروبا هى القوة التى تستطيع أن تبدأ بتحدى التفرد الأمريكى بالنفوذ في العالم».

والدواعى كثيرة:

- بينها أن أوروبا لها مصالح حيوية فى الشرق الأوسط - حيث تريد الولايات المتحدة أن تنفرد بالسيطرة.

- وأوروبا تعتمد على بترول الشرق الأوسط في أكثر من ٨٥٪ من استهلاكها، ومن الصعب عليها القبول باحتكار أمريكى يمسك به ويحكم القبضة عليه.

- وأوروبا بلدان قريبة عهد بالمجد الإمبراطورى - لم تنس مكانة سابقة عاشتها ثم تخلت عنها الحظوظ فأضاعتها، ومع أنها اعترفت للولايات المتحدة بحق القيادة فإنها غير مستعدة بعد للاعتراف لها بحق التفرد.

- وأوروبا يسودها اعتقاد بأنها راكمت من الحكمة مخزونا يزيد في تأثيره عما راكمته أمريكا من قوة السلاح.

ويظهر أن فريقا من الإدارة الجديدة فى واشنطن أراح نفسه بمختصر - غير مفيد - عبر عنه «رامسفيلد» بقوله: «إن أوروبا قارة عجوز أرهقها الزمن (الذى تسمى عمرها فيه حكمة)، وأقعدها التردد (الذى تسمى استسلامها لضوابطه فكرا)، وعليه فإن الولايات المتحدة يحق لها أن تتصرف وتترك أوروبا تمارس الحكمة والفكر - كما يحلو لها!

«الشعب الأمريكى يمثل ٦,٣٪ من سكان العالم، لكنه يستهلك ٦٠٪ من بترول هذا العالم، والمهمة الأولى للاستراتيجية الأمريكية تقتضى المحافظة على هذه النسبة مهما كانت ظالمة للآخرين والعمل على فرضها بكل الوسائل، دون أن تخدع نفسها بأية أوهام عن مبادئ العدل والمساواة



وكان حساب هذا الفريق فى الإدارة الجديدة أن دول أوروبا الكبيرة أصبحت مثل غيرها في ملجأ الشيخوخة يهمها أن تقضى بقية عمرها في أمان مدخراتها - ومن أجل تأمين هذه المدخرات فهى على استعداد للاستثمار في أى مشروع رابح، وعندما تصبح الإمبراطورية الأمريكية كذلك - فإن أوروبا مهما كانت دواعى حذرها وأسباب شكها - سوف تهرع للاستثمار فيها على عجل حتى لا تتعرض مدخراتها للتآكل.

وإذن فعلى الإمبراطورية الأمريكية أن تتمسك بمشروعها الأكبر، وتترك أوروبا مع «حساباتها الصغيرة» (حكمة وفكرا)!

كانت هذه البؤر الثلاث - (جماعات المشروع الإمبراطورى - وصناعة البترول - وأصحاب الفكر والتنظير للاستراتيجيات والسياسات) - وربما بؤر وجماعات أخرى تدرس وتستعد لعصر ما بعد «كلينتون» حتى يستأنف «المشروع الإمبراطورى» مسيرته أشد حزما وأسرع اندفاعا في ظل إدارة ترعاه - جمهورية وليست ديمقراطية بالتأكيد!

وكانت وساوس أصحاب المشروع الإمبراطورى أن «إنجاز» إدارة «كلينتون» في مجال الاقتصاد، ربما يستطيع مساعدة نائبه «آل جور» في انتخابات الرئاسة سنة ٢٠٠٠ - كما أن «آل جور» وجه معروف باعتباره النائب الحالى للرئيس، وأى نشاط له خبر، وهو يجاهد ليحتفظ لنفسه بمسافة بُعْد مناسب عن فضائح رئيسه.

وفى الاستعداد لملاقاة الحزب الديمقراطى و«آل جور» على مقدمة الصورة فعلا - ظهر فى الحزب الجمهورى رجال رشحوا أنفسهم، لكنهم لم يصمدوا للتجربة:

● فكر «ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الحالى) فى ترشيح نفسه اعتمادا على شخصيته المليئة بالحيوية وقت أن كان وزيرا لدفاع «جورج بوش» (الأب) أثناء حرب الخليج - لكن «تشينى» تردد لأسباب عديدة فيها السبب الصحى (علل القلب) وفيها - وهو الأهم - أنه لا يريد تعريض نفسه وأسرته لعملية «العرى المالى والإنسانى والشخصى» التى يتعرض لها أى مرشح للرئاسة وإذا حياته «ميدان رماية» مفتوح (كذلك تعبيره) لأية قناة تليفزيونية أو إذاعية أو أى صحيفة أو مجلة أو أى مخبر أو «كاتب عمود»!

● وفكر «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الحالى) أن يرشح نفسه ثم تراجع لنفس الأسباب تقريبا.

● وفكر بعضهم في ترشيح «كولين باول» الذى اكتسب سمعة رجل متزن، صاحب تجربة نضجت فى ميادين القتال (فيتنام)، والسياسة (مساعدا لكيسنجر فى البيت الأبيض)، والاستراتيجية (رئيسا لهيئة أركان الحرب المشتركة) - لكن «كولين باول» بعد أن وافق من ناحية المبدأ عاد وتراجع عن التنفيذ بضغط شكوك ألحت عليه:

- بينها تخوفه أن يكون ترشيحه (وهو ملون) مناسبة لإذكاء قضية التفرقة العنصرية، بحيث يجد نفسه إذا فاز أمام معضلة التعامل مع مؤسسة بيضاء، وإذا سقط وسط غضب الملونين قد يتحول إلى فتنة ساخنة.

- وبينها تحسبه لعبء جمع التبرعات اللازمة لإدارة حملته الانتخابية، فالتكاليف باهظة (ثلاثة بلايين دولار) - وجمع التبرعات يحول المرشح رهينة للمتبرعين (بحقهم فى استرداد ما دفعوه)، وهو يخشى أن لا تتمكن حملته (بسبب لونه) من أن تجمع ما هو كاف للصرف عليها، وتشهر إفلاسها قبل أن يحل يوم الاقتراع.

- وأخيرا ضغط مارسته عليه زوجته («آلما») التى رفضت الفكرة أصلا، لأنها تخاف عليه من متطرف أبيض - يكرر معه ما حدث للزعيم الزنجى «مارتن لوثر كنج»، و«آلما» فى النهاية تريد زوجها معها حيا في البيت ولا تريده شهيدا بعيدا عنها في القبر!

وساعد على تردد «كولين باول» إحساسه بأن «جماعات الإمبراطورية» تقبل به على مضض، لأنه - في رأيهم - طبعة (أمريكية غامقة) من شخصية «هاملت» في مسرح شكسبير - رجل مُعَذَّب بالحيرة، تتجاذبه الهواجس وتستغرقه التصورات، وكعادة هذا النوع من الشخصيات فإن ترددهم في الفعل يستهلك استعدادهم للقيادة، وهى في النهاية حسم بين البدائل وقرار!

وكذلك فإن «كولين باول» أعفى نفسه - وأعفى غيره - من ترشيح نفسه، وأعلن رسميا أنه خارج السباق الانتخابى!

ثانيا:

«دوبيا» يولد من جديد أمام المرآة!

وعلى خلفية هذه الساحة المزدحمة، تمكنت النخبة الإمبراطورية داخل الحزب الجمهورى وحوله - من وضع مسودة أولى شبه كاملة للمشروع الإمبراطورى ومعها تحديد إطار لتوجهاته وحركته.

● كان واضع المسودة الأولى - فريق عمل محدود ومتحمس يضم (طبقا لتحقيق قام عليه «روبرت نوفاك» - أحد أشهر وأكفأ الصحفيين الأمريكيين) - كلا من:

«ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الآن) - «ودونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الآن) - و«ريتشارد بيرل» (مدير الخطط الاستراتيجى لمجلس الدفاع القومى الآن) - و«بول وولفويتز» (نائب وزير الدفاع الآن) - و«دوج فايث» (وكيل وزارة الدفاع الآن) - و«جيمس وولسلى» (رئيس المخابرات المركزية سابقا) - و«ريتشارد أرميتاج» (نائب وزير الخارجية الآن) - و«فرانك كارلوتشى» (وزير الدفاع سابقا).

وقد تولت السكرتارية العامة لفريق العمل السيدة «كونداليزا رايس» (مستشارة الرئيس للأمن القومى الآن).

● وكان إعداد هذه للسودة الأولى (وفق تحقيق «نوفاك» وآخرين غيره) - قد انتقل ابتداء من صيف سنة ١٩٩٧ - أى مع اقتراب (موسم الحملات الانتخابية) من مركز «جيمس بيكر» لدراسات البترول فى هيوستون (عاصمة تكساس) إلى البيت الصيفى للرئيس «جورج بوش» (الأب) «كينيبنكبورت» على شاطئ ولاية «ماين».

والداعى أن الرئيس «جورج بوش» (الأب) أصبح الراعى والحامى لهذه الجماعات - بداعى جملة من الملابسات:

- فهو نائب الرئيس «ريجان» الذى كسر إمبراطورية الشر السوفيتى.

- وهو الرئيس الذى خلف «ريجان» - ثم بدأ في عهده وضع إطار الحلم الإمبراطورى الأمريكى وتوفير أدوات تحقيقه.

- وهو الرئيس الذى قاد الخطوة الافتتاحية الرئيسية فى المشروع ببناء تحالف حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت.

- وهو أيضا السياسى الذى يملك خبرة متشعبة، فقد شغل «بوش» (الأب) عدة مناصب عُليا: مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وسفيرا للولايات المتحدة فى الصين، وبعدها نائبا لرئيس الولايات المتحدة، ثم إنه بالمولد والأصل من أسرة بنت ثروتها وراكمتها من صناعة البترول، وبالتالى فإن خبرته وافية ومعرفته مباشرة واصلة إلى النواحى التى يمكن أن يتحرك فيها المشروع الإمبراطورى.

- علاوة على ذلك فإن «جورج بوش» (الأب) هو الذى أنشأ في البيت الأبيض مجموعة إدارة الانتشار الإمبراطورى بعد حرب الخليج الثانية، وكان أمله أن يستكمل المشروع في رئاسته الثانية، ثم إنه مثل غيره من أركان إدارته خرج من منصبه الرئاسى، ولم يخرج من مشروعه الإمبراطورى، وهو يستطيع أن يواصل خدمة المشروع - بالرعاية والحماية - ولديه فوق الأسباب العامة - دوافعه الشخصية:

ـ فهو في أعماق قلبه يحس بجرح، لأن مرشحا شابا مجهولا من أركانساس ـ «بيل كلينتون» ـ هزمه في الانتخابات، رغم أنه («جورج بوش» (الأب) ـ الرجل الذى قاد أمريكا إلى النصر في عاصفة الصحراء.

ـ وهو في جزء من جهازه العصبى يشعر بحافز يلح عليه في ضرورة استئناف دوره (على نحو أو آخر) ـ لأن المشروع الإمبراطورى مازال يطغى على عقله وقلبه (رغم اعتزاله السياسة فى أعقاب فشله الانتخابى المدوى).

ـ ثم إن كل الذين شاركوه في المشروع الإمبراطورى ـ يدفعونه إلى درجة التحريض، بحجة أن عليه مسئولية تاريخية لا يملك أن يتخلى عنها ويتركها (خصوصا لهذا المتورط في الخطيئة، الجالس بدلا منه ـ دون استحقاق ـ في البيت الأبيض ـ «بيل كلينتون»!).

ـ وأخيرا فإن «جورج بوش» رجل غنى ـ راكمت أسرته ثروة طائلة من صناعة البترول في تكساس، وقد عززت الأسرة هذه الثروة بعلاقات في العالم العربى ـ توثقت أواصرها واتسعت تعاملاتها بعد حرب الخليج الثانية، وهذا الغنى وما يحيط به يساعده ويكاد يدفعه دفعا إلى أداء دور الراعى والحامى لمشروع الإمبراطورية.

وقضى «فريق العمل» سنة كاملة فى بيت «جورج بوش» (الأب) يجدد خطة المشروع، ومرة ثانية تم تجهيز تقرير نهائى وقعه ـ أيضا! ـ «ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الآن)، وهو في الحقيقة خلاصة جهد مشترك لكثيرين، وكانت الخطوط الرئيسية محددة ـ وأحيانا بالتفصيل:

١ ـ الحزب الجمهورى لابد له أن «يمسك» من جديد (Recapture) موقع رئاسة الولايات المتحدة مرة أخرى، لأنه الحزب المهيأ لمهام الزمن القادم، وفي نفس الوقت صاحب الرؤية الأوضح لمهام ذلك الزمن القادم.

٢ ـ الرئاسة القادمة عليها أن تدرك بعمق أن الولايات المتحدة الآن في وضع فريد لم يتح لأي قوة غيرها في التاريخ، فلديها الآن شبه تفرد بالنفوذ، لأن انهيار الاتحاد السوفيتى واختفاؤه جعلها قادرة على «نشر قيمها» وترسيخ مسئوليتها عن «حماية هذه القيم»!

٣ ـ الولايات المتحدة على عهد «ريجان» و«بوش» (الأب) تمكنت من الإمساك باللحظة التاريخية واستغلت الإمكانيات المادية والمعنوية للحفاظ على تلك اللحظة، وذلك ما ينبغى استئنافه مع الرئاسة القادمة والتمسك به وعدم التفريط فيه.

٤ ـ الإدارة الجمهورية القادمة عليها أن تمارس دورها في الدفاع عن المصالح الأمريكية والتمكين لها بغير «قيود» لا تستوجبها «ضرورات حقيقية»، بل إن الإدارة الأمريكية القادمة يحق لها «وحدها» توصيف المصالح الأمريكية دون اعتبار لغيرها، وهى مطالبة بالعمل على مسئوليتها سواء من داخل الأمم المتحدة أو من خارجها.

٥ ـ الولايات المتحدة فى ممارستها لمسئوليتها الحالية يصح لها أن تتشاور مع غيرها من الأطراف الدوليين، على أن تحتفظ لنفسها بحق التصرف منفردة إذا وجدت ذلك ضروريا.

٦ ـ التصدى لخطر الإرهاب (حتى بميراث إدارة «كلينتون» الحالية) ـ هو النداء الذى يمكن حشد القوى الكبرى عليه (والصغرى أيضا)، وهذا النداء مازال قادرا على تحقيق حشد عالمي، لأن الكل معرض لخطر الإرهاب. والولايات المتحدة قبل غيرها مكلفة بالقيادة فى مجاله لأنها الأكثر تعرضا لضرباته، وذلك يوفر لها ـ إلى جانب حق الدفاع المشروع ـ داعيا أخلاقيا يضيف إلى مشروعية دورها القيادى.

(كان «جورج بوش» (الأب) على عهد خدمته كنائب للرئيس «ريجان» مسئولا عن قضية الإرهاب ومكافحته، وكان مسئولا عن لجنة عليا شكلها «رونالد ريجان» لمتابعة وملاحقة ومواجهة «خطر العصر» كما كان يسميه!).

والآن صيف سنة ١٩٩٨ ـ بدا أن الخطوط والتفاصيل تحددت مواقعها على الصورة الشاملة للمشروع الإمبراطورى، غير تفصيل واحد مازال معلقا ـ رغم أنه بالغ الأهمية: شخصية الإمبراطور (القيصر)!

وهنا ظهر «جورج بوش» (الابن) ـ ولم يكن ظهوره تلقائيا، ولا سهلا، مع أن الأمر تداعى إليه خطوة بعد خطوة دون تصميم سابق يُفصِّل دور «الفاتح» على مقاسه:

ـ فى البداية كان هناك واقع أن «استعادة الجمهوريين للبيت الأبيض» من جديد، جهدا يجرى فى إطار عائلة «بوش» أكثر مما يجرى فى المقر الرسمى للحزب الجمهورى، والمبرر أن الحزب أثناء رئاسة «كلينتون» الأولى فقد معنوياته من ناحية، بسبب سقوط مرشحه «بوش» (الأب) ـ ومن ناحية أخرى ضيع نفوذه بسبب ارتفاع شعبية «كلينتون» الذى تقدم بنجاح يعالج مشكلة الاقتصاد.

ـ تلى ذلك أن «بوش» (الأب) ظل يستشعر مسئوليته أمام معاونين زينوا أمامه مشروع «تكريس الإمبراطورية» باعتباره رسالته المقدسة بعد أن أتم «رونالد ريجان» رسالة مقدسة سبقت وهى هدم إمبراطورية الشر السوفيتية، وقام بنفسه مدة رئاسته الأولى بوضع الأسس والقواعد لحجر الأساس، لكن الناخب الأمريكى انخدع فى «كلينتون» وأرسل «بوش» إلى المنفى بقسوة لم يكن لها تبرير! ثم إن هؤلاء المعاونين ظلوا قريبين منه يبحثون معه عن وسيلة للعودة بكل طريق إلى المفاتيح الذهبية للقرار (البيت الأبيض)، وقد ضاعت منهم عندما تركها «بوش» على مكتبه وخرج من البيت الأبيض (على عكازين!).

ـ وبطبيعة الأمر فإن «عائلة بوش» وصناديقها المالية المختلفة قامت على تمويل الجماعات الإمبراطورية التى خرجت مع (الأب) من البيت الأبيض وأعانت تفكيرها وتدبيرها. ومع أن أفراد هذه الجماعات كانوا فى مواقع متميزة ماليا (مثل «ريتشارد تشينى» الذى يدير واحدة من أهم الشركات فى مجال خدمات البترول، وهى شركة «هاليبورتن»)، كما أن كثيرين منهم كانوا ومازالوا يعملون فى إطار بيروقراطية واشنطن الدائمة ونخبها المتميزة ـ إلا أن مظلة رعاية واحدة مطلوبة حتى تغطى الجميع، وكانت عائلة «بوش» مؤهلة لتقديم هذه المظلة الواحدة.

ـ وفى إطار هذه الأجواء ـ مضافا إليها مؤثرات السقوط الأخلاقى الذى انزلق إليه «بيل كلينتون» وانكشف أمره خلال مدة رئاسته الثانية ـ فإن بعض المتعصبين من دعاة الإمبراطورية راحوا يبحثون عما إذا كان هناك سبب دستورى يحول دون ترشيح «جورج بوش» (الأب) نفسه للرئاسة من جديد ـ بشعور أن رجلهم لم يقض غير مدة رئاسة واحدة فى البيت الأبيض، ثم قطعتها مدتان لكلينتون ـ وربما أن إمكانية عودة «بوش» (الأب) مطلوبة (إذا كانت ممكنة) لاسترجاع الفضيلة (وهى فى ضمائرهم عودة مُلحّة للمشروع الإمبراطورى) ـ لكن البحثَ فى ترشيح (الأب) توقف بسبب غيبة السوابق حتى وإن غابت موانع الدستور، وبعد عناء بان أن استعادة الماضى محاولة يأس (ليس لديه غير تكرار نفسه) أكثر مما هى استحضار أمل (لديه رؤية على أفق جديد).

ـ ولم يخطر ببال أحد قبل ذلك الوقت أن «جورج بوش» (الابن) يصلح مرشحا، لأن أوجه القصور فى شخصيته وثقافته وجاذبية حضوره تستبعده من أول نظرة. ومن المفارقات أن «الأم» (بربارة بوش) كانت أول من يسلم بعدم صلاحية ابنها لدور «قيصر»، بل إن ابنها ذاته («جورج بوش» (الابن) ـ الرئيس الحالى للولايات المتحدة) اعترف عندما روى قصة حياته (ونشرتها صحف العالم الكبرى وضمنها الصنداى تيمس) وقدم بنفسه جانبا من الأسباب التى جعلت الآخرين يتشككون فى صلاحيته لأى مسئولية على مستوى رفيع، وظل فى عرفهم «دوبيا» وليس «جورج».

....

....

[وكانت والدته هى أول من أطلق عليه هذا الوصف، مستندة إلى الاسم الثانى له وهو «ويليام» (وحرفه الأول W)، وذلك لتمييزه عن والده «جورج» الذى اختار لابنه الأكبر نفس اسمه. وكان الحرف الأول من الاسم الثانى للابن وهو (W) الذى جرى تدليله بـ«دوبيا») هو الذى شاع فى الإشارة إليه وليس «جورج» حتى لا تلتبس الإشارات].

لم يخطر ببال أحد
أن «جورج بوش» (الابن)
يصلح مرشحا، لأن أوجه القصور فى شخصيته
وثقافته وجاذبية حضوره تستبعده من أول نظرة.
ومن المفارقات أن «الأم» (بربارة بوش)
كانت أول من يسلم بعدم
صلاحية ابنها لدور «قيصر»

إمبراطور من تكساس!



....

....

وكان «بوش» (الابن) هو الذى «أمعن» فى الاعتراف بقصورة، قاصدا أن يكون الاعتراف كاملا (حتى يتحقق الغفران)، فقد روى «أنه ظل حتى تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شابا لاهيا - عابثا - كسولا - عازفا عن العلم، خصوصا بعد أن حصل بالكاد على شهادة من جامعة «تكساس» أُلحق بها إجازة من جامعة «ييل» (يكاد يلمح إلى أن نفوذ أسرته أتاحها له بأكثر من جَده فى طلب العلم!).

واعترف «بوش» (الابن) بعدها بأن ثروة العائلة وحياته بين «تكساس» (حيث مصالح الأسرة) - وبين واشنطن (التى قصد إليها ولده بحثا عن فرص سياسية تحققت له) - أخذت منه الاستقرار العائلى وتركت له فراغا عاش فيه حياة غير مسئولة وصلت به إلى حد الإدمان الشديد على شرب الخمر نهارا وليلا، وكان ذلك يضايق زوجته «لورا»، ويسبب لها حرجا شديدا داخل بيت الزوجية وخارجه، فلم يكن يمر أسبوع إلا ودورية بوليس تستوقفه وتسحب رخصة قيادته، لأنه يقود سيارته مسرعا ومخمورا.

ووصل الحال ببعض النوادى فى تكساس إلى حد منعه من دخولها، لأنه كل مرة يدخلها يثير «خناقة» لا داعى لها، أشهرها أنه قام فى إحدى المرات بتوجيه لكمات متوالية لزوج الصحفية الشهيرة «جودى وودروف» وهى من نجوم وكالة (C.N.N) وزوجها نفسه مسئول كبير فى إحدى المؤسسات الصحفية الكبرى فى تكساس) وكان دافع «دوبيا» إلى التهور أن إحدى صحف تلك المؤسسة أساءت إلى عائلته بسلسلة تحقيقات عن مصادر ثروتها!

وأخيرا وصل «جورج بوش» (الابن) فى اعترافاته إلى وقائع ذلك اليوم الذى وُلد فيه من جديد - متحولا من شاب لاهٍ، عابث، سكير - إلى مؤمن شديد الإيمان بعقيدته، وتقى شديد الولاء لكنيسته، ونادم على الذنب مستعصم بالتوبة، وهنا يصف «جورج بوش» لحظة ولادته من جديد فيقول:

«ليلتها شربت كما لم أشرب من قبل، وفقدت وعيى، وحملونى إلى غرفة نومى لا أشعر بشىء حتى ظهر اليوم التالى، واستيقظت على صداع مروع، وذهبت إلى الحمام مترنحا لا أقوى على المشى، ورأيت صورتى فى المرآة وأحسست بما يشبه نزول صاعقة.

اكتشفت أمام المرآة أنهم عندما حملونى إلى غرفة نومى - ارتميت على سريرى بملابسى التى كنت أرتديها، وكانت شديدة القذارة لأننى كما أدركت - أفرغت كل ما فى جوفى على سريرى وعلى ملابسى قبل أن تخمد حواسى وتغيب.

وتحسست وجهى بيدى أمام المرآة، وإذا يدى متسخة ببقايا القىء التى لطخت وجهى وجفت أثناء نومى، وأصابنى منظرها فى المرآة أمامى بقشعريرة هزت كيانى، وأعدت النظر إلى صورتى، ووجدتنى أسأل المرآة قائلا: «دوبيا.. دوبيا ماذا فعلت بنفسك؟!»، ورُحت أصرخ أمام المرآة أعاهد الله ونفسى أن ذلك «لن يتكرر بعد الآن!»، ولم تصدقنى «لورا» (زوجته) بادئ الأمر، وظنته تأثير «لحظة» المرآة، وأننى بعد أيام عائد إلى ما أدمنت عليه، كذلك أيضا قالت والدتى، لكنى أثبت للجميع أنها توبة بلا عودة، وولادة جديدة لنفسى ولأسرتى ولروح السيد المسيح فى قلبى!».

ومن وقتها حاول «دوبيا» أن يتخذ طريق الجد - وبدايته تجربة حظوظه (مولودا من جديد) - فى ترشيح نفسه حاكما لولاية تكساس، لأنها المحيط المباشر لنفوذ الأسرة، وكانت مفاجأة الجميع أنه فاز.

وأغلب الظن أنه عندما بانت علامات الهداية وبُشرى الولادة من البداية - فإن كثيرين لم يأخذوا «دوبيا» (جورج بوش الابن) فى حسابهم وهم يبحثون عن «قيصر»! - لكنه مع مرور الوقت بدأ بعض أصحاب المشروع الإمبراطورى يسألون أنفسهم: «لم لا؟».

كان الصف الأول من المرشحين الذين تخطر أسماؤهم على البال طبيعيا مازالوا بين إقدام وإحجام، كلهم راوده الاحتمال وكلهم قرر العدول: «تشينى» - «رامسفيلد» - «كولين باول» - حتى «جيمس بيكر» (مع اختلاف أسباب كل واحد منهم فى الإقدام والإحجام).

وعلى الجانب المقابل فإن الحزب الجمهورى الذى تشرد فى التيه ثمان سنوات، لم يكن فى حال تسمح له أن يطرح من صفوفه مرشحا يملك فرصة نجاح مؤكد أمام ديمقراطى هو الآن بالفعل نائب للرئيس (آل جور).

وكان الأقطاب المشهود لهم داخل الحزب الجمهورى قد تساقطوا واحدا بعد الآخر، بما فيهم الرجال الذين لمعت أسماؤهم فى الحملة على «كلينتون»، وفيهم زعيم الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب «نيوت جنجريتش»، وفيهم كذلك الرجل الذى تولى إدارة معركة إدانة «كلينتون» فى مجلس الشيوخ وهو السناتور «فرانك لوت» زعيم الأغلبية الجمهورية، فكلاهما طاردته ظروفه - وطردته:

أولهم وهو زعيم الأغلبية فى مجلس النواب الذى رفع لواء الأخلاق - تكشف أن له عشيقة (وفيما بعد طلق زوجته وارتبط بعشيقته واعتزل السياسة).

والثانى كانت له مشاكل عالقة فى ولاية مسيسيبى (وهو بسببها لا يريد أن يضع نفسه تحت الأضواء الباهرة للحملات الانتخابية الصاخبة).

إلى جانب أن أشهر أقطاب الحزب وهو السناتور «روبرت دول» أنهك قواه فى محاولات فاشلة لترشيح نفسه، حتى أصبح اسمه خامدا بلا إشعاع، ومن هذا الإحساس - حتى لديه هو نفسه - فإنه حاول الدعوة لزوجته «إليزابيث» مرشحة للرئاسة عن الحزب الجمهورى بدلا منه (ولم يكن ترشيحها مقنعا لأحد).

ولم تكن «صحة» الحزب الجمهورى فى كل الأحوال مما يهم جماعة الإمبراطورية المحيطة بعائلة «بوش» - ولعلها استفادت من هذه الغيبوبة الحزبية، خشية بروز مرشح يتقدم الصفوف ومهيأ للفوز، ولعل هذه الغيبوبة للحزب كانت ملائمة أكثر لمطالب الجماعة، فالمطلوب من منظورهم ليس مجرد مرشح جمهورى يعود بالحزب إلى البيت الأبيض، وإنما مرشح جمهورى يمشى معهم إلى آخر الشوط!

وكذلك تغير السؤال عن «دوبيا» بـ «لم لا؟»، وحل محله سؤال بـ «هل يستطيع؟»، وكانت هناك اعتبارات تزكى ردا على هذا السؤال الأخير بالإيجاب:

- «دوبيا» لم يعد لديه ما يخفيه عن ماضيه (وذلك هاجس كل مرشح، لكن «دوبيا» سبق واعترف بكل شىء!).

- «دوبيا» فى سن الشباب ويستطيع أن يتحمل عناء حملة انتخابية.

- «دوبيا» لديه فرصة لاستثارة عطف الناخب الأمريكى الذى حرم والده من رئاسة ثانية (متاحة له بالدستور وكان يستحقها لولا معركة «إنه الاقتصاد يا غبى»، ولعل الناخب الأمريكى شعر بعد فضائح «كلينتون» أنه أساء الاختيار، وعليه واجب اعتذار يستطيع تقديمه للابن مادام لا يستطيع تقديمه للأب.

- «دوبيا» وراءه أسرة ومصالح تستطيع أن تمول حملة انتخابية سوف تكون بالتأكيد «صعود جبل» لأنها ضد منافس فى موقع «نائب الرئيس»، وهو من هناك يملك ميزة أن أى كلمة يقولها تلفت الأنظار وتستوقف الاهتمام وتضع اسمه فى العناوين الرئيسية للصحف وملء شاشات التليفزيون!

وأهم من ذلك كله:

- «دوبيا» سوف يكون - إذا نجح - رئيسا «لينا» يترك الفرصة لمستشاريه وهم حملة مشروع رئاسته، ويسمع منهم وهو ليس غريبا عنهم، لأن معظمهم عرفه أيام رئاسة أبيه، وتابع عن قُرب حكاياته الكثيرة وآخرها حكاية الولادة من جديد، وهذه أمور لها توابع أولها أن كل مساعد أو مستشار للأب، يقدر أن يكون معلما للابن ومرشدا، وفى مطلق الأحوال صوتا مسموعا، وتأثيرا له وزن عند موقع القرار الأكبر فى السياسة الأمريكية (المكتب البيضاوى).

ومع التكرار والحيرة، فإن السؤال بـ «لم لا؟» - ثم السؤال بـ «هل يستطيع؟» وجدا جوابا. السؤال الأول وجد جوابا يقول: دعونا نجرب. والسؤال الثانى وجد جوابا يرى أن «دوبيا» ربما كان أنسب الحلول، وكذلك جرى.

وكان وصول «جورج بوش» بالفعل إلى البيت الأبيض معركة انتخابية شاقة

يروى «بوش» (الابن) أنه ظل حتى تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شابا لاهيا - عابثا - كسولا - عازفا عن العلم، خصوصا بعد أن حصل بالكاد على شهادة منْ جامعة «تكساس» أُلحق بها إجازة من جامعة «ييل» (يكاد يلمح إلى أن نفوذ أسرته أتاحها له بأكثر من جَدِه فى طلب العلم!)



وعنيفة، وأسوأ من ذلك مشوبة فى شرعيتها إلى درجة غير مسبوقة - تقريبا! - فى التاريخ الأمريكى.

كان واضحا أن المنافسة بين «جورج بوش» (الابن) - و«آل جور» (نائب الرئيس) - مباراة بين الأقل سوءا وليس بين الأكثر قبولا، فكلا المرشحين مثقل بالحمولات من كل نوع، بعضها موروث («بوش» بمسحة الفشل الذى لحق والده، وبشعار «إنه الاقتصاد يا غبى» - و«جور» بلطخة ما فعله رئيسه فى المكتب البيضاوى وبعوالق ماض لوالده عاد يذكر نفسه). ثم إن بعض الحمولات مكتسب، («بوش» بالشك فى صلاحية شهادة ميلاده الجديد، وبحضور باهت لا يشد بصرا أو سمعا - و«آل جور» بمحاولة يائسة بذلها فى اللحظة الأخيرة بقصد توسيع المسافة بينه وبين رئيسه، قد حرمته هذه المحاولة من استغلال إنجازات رئاسة «كلينتون» الأولى - إلى جانب أن «آل جور» فى حد ذاته ظهر أمام الناس دائما وكأنه لوح من الخشب، وعندما نصحه الخبراء بأن يلين ويتحرك، فإن قصارى ما توصل إليه بدا صناعيا متكلفا مدهونا بزيت ملون لم يجف سائله بعد!).

وكان تقدير الجميع أن نتيجة المعركة الانتخابية سوف تجىء متقاربة - كذلك تقول استطلاعات الرأى العام - وتؤكد الشواهد.

والآن يعرف كل الناس انه بحساب الأرقام فى ولاية فلوريدا - وهى آخر ولاية تم فرز صناديقها - أن عدد الأصوات الحقيقى كان يعطى الرئاسة لـ «آل جور»، لكن المجمع الانتخابى أعطى الرئاسة لـ «بوش» بسبب غياب عدة صناديق انتخابية تخلفت عن الفرز، لأن حاكم ولاية كاليفورنيا (وهو جيب «بوش» شقيق «دوبيا») تصرف بطريقة غريبة، فقد رتب لوضع خمسة صناديق بما فيها من تذاكر على سيارة شحن تنقلها إلى مركز الفرز، ثم قيل إن السيارة «تاهت» فى الطريق (ستين كيلومترا) - لمدة خمسة أيام، ثم نشأ نزاع وصل إلى المحكمة العليا، مع مصادفة أن معظم قضاتها من تعيين رؤساء جمهوريين (خمسة من أصل تسعة) - وعندها أعلن فوز «دوبيا» (جورج بوش الابن).

وكان «جيمس بيكر» (أقرب الأصدقاء إلى الأب ووزير خارجيته السابق ومدير حملته الانتخابية) موجودا بنفسه طول الوقت فى مراكز الفرز وفى قاعات المحاكم، يقود المواجهة القانونية لإثبات صحة الأصوات المؤيدة للمرشح الجمهورى، وكان «ريتشارد تشينى» الذى وقع الاختيار عليه مرشحا لمنصب نائب الرئيس - يدير من داخل بيت «بوش الأب» معركة التعجل فى إعلان فوز المرشح الجمهورى (دوبيا) - مهما كانت الإجراءات، والمخالفات، والطعون، وموجبات الخلل فى شرعية عدد الأصوات، وفى الواقع العملى فإن تلك لم تكن مجرد معركة انتخابية، وإنما - فى تقدير مديريها ومسئوليها - معركة مشروع إمبراطورى يحتاج إلى إدارة فى البيت الأبيض تؤمن به وتقوم على تنفيذه، وهنا يمكن فهم أول تصريح أدلى به «ريتشارد تشينى» بعد صدور حكم من المحكمة العليا، فقد قال: «لست مستعدا للبحث فى التفاصيل، لقد فازت التذكرة الانتخابية («دوبيا» رئيسا - و«تشينى» نائب الرئيس) وهذه بالضبط هى التذكرة التى تحتاج إليها أمريكا اليوم، بارك الله فى أمريكا دائما!».

وهكذا دخل «جورج بوش» (الابن) إلى المكتب البيضاوى، ووراءه نائبه «ديك تشينى» - وبعدهما أركان الإدارة الكبار: «دونالد رامسفيلد» - «كولين باول» - «ريتشارد بيرل» - «بول وولفويتز» - و«كونداليزا رايس».

ولحظتها استطاع الفريق الإمبراطورى فى الحزب الجمهورى أن يعيد القبض «Recapture» على البيت الأبيض من جديد - ويمسك مرة أخرى بالمفاتيح الذهبية للقرار الأمريكى طبقا لأولويات محددة، هى:

- الاحتفاظ بتفوق أمريكى لابد أن يقبل به الجميع (ويبقى إلى الأبد).

- سيطرة كاملة على موارد النفط (فى الشرق الأوسط وحوله).

- والمدخل للإمساك بالاثنين: تحالف عالمى مضاد للإرهاب (وذلك هو الغطاء القانونى والأخلاقى الأنسب!).

ثالثا:

قادة قيصر لا يهتفون باسمه!

لم يكن دخول «جورج بوش» إلى البيت الأبيض يوم ٢٩ يناير ٢٠٠١ - دخول فاتحين، بل لعله كان أغرب دخول عرفه ذلك البيت فى واشنطن، وكانت احتفالات قسم اليمين حافلة بهواجس وشكوك تطال كل شىء: مستوى المعركة الانتخابية لمرشحين كلاهما فى نظر الناخب لا يستحق الجائزة، ثم المشاكل والتعقيدات القانونية التى حاصرت عملية عد الأصوات، ثم انتظار أسابيع مشوبة بالإحباط فى انتظار حيل محامين قبل إرادة ناخبين.

وكذلك تبدى أن الرئيس (الإمبراطور - القيصر) الجديد يصعب أن يكون مقنعا - فى أساس شرعيته، أو سابق تجربته، أو توقعات أدائه، أو قيادته لفريقه، أو ما يمكن أن تثيره قيادته من طموح وإلهام.

وسرى إلى العالم كله إحساس بأن الولايات المتحدة الأمريكية سلمت مقاليد السلطة فيها - مع لحظة فاصلة على مسار التاريخ الحديث - لرجل لا يستحق، وفى أحسن الفروض لا يعرف.

وفى عواصم عديدة بدت تلك فرصة مفتوحة لمن يريد أو لمن يقدر:

- فى لندن: تصور «تونى بلير» رئيس الوزراء (العمالى) أن رئاسة «بوش» (بكل ما يكتنفها) تعطيه مساحة لزيادة حجم التأثير البريطانى فى مجتمع الناطقين باللغة الإنجليزية على جانبى الأطلنطى، وبالتالى فرصة لتقوية الوزن البريطانى فى العلاقة الخاصة التى تربط واشنطن ولندن.

- وفى باريس: تصور الرئيس «جاك شيرك» (الديجولى) أن أوروبا تستطيع أن تعطى نفسها مجالا أرحب للحركة بعيدا عن دائرة النفوذ «الأنجلوساكسونى» (من لندن وواشنطن).

- وفى برلين: تصور المستشار «شرويدر» أنه بتعاون ألمانى - فرنسى تستطيع أوروبا أن تمارس دورا فاعلا، يؤكد دورا لها وحقا فى القرار الدولى مع مطلع القرن الحادى والعشرين.

- وفى موسكو: تصور الرئيس «بوتين» أن غيابا أمريكيا - ولو جزئيا - يفتح بصيص أمل لروسيا تستعيد بعض مواقعها الضائعة، أو على الأقل لتدعيم أوضاعها الداخلية دون شغب يمارسه عليها رئيس أمريكى يحاصرها حتى تظل أنقاض «السقوط السوفيتى» مكدسة من حول الاتحاد الروسى الجديد - تعوقه عن إصلاح أحواله ومد الجسور إلى جواره، ووراء ذلك الجوار.

- وفى بكين: سرى شعور بالراحة مع ترجيح أن تكون الرئاسة الجديدة فى أمريكا «رخوة» تترك الصين وشأنها تواصل بناء نفسها وتعزز اقتصادها وتكمل تحولاتها الواسعة دون عراقيل أو شواغل خارجية.

- وأما فى العواصم العربية خصوصا تلك التى تعاملت بعلاقة ود (ظنته حميما) مع إدارة «بوش» (الأب)، فقد شاع أمل بأن الرئيس القادم إلى البيت الأبيض ضوء أزرق مريح للأعصاب ورقيق، فالقادم الجديد إلى البيت الأبيض «منا وعلينا»، و«بالتأكيد معنا».

وكانت تصورات العرب على تفاوت ما بينها - خاطئة، والحقيقة على العكس منها، لأن ما ظنه بعض العرب فرصة لصالحهم - لاح خطره عليهم، لأن الرئيس الجديد - وهو يقدر حسابات الآخرين لرقته - قصد أن يواجههم بخشونته، وقد



ظلوا بعدها شهورا لا يتصورون ما يرون، وحين اكتشفوا الواقع كان قُصارى جهدهم أن يداروا ويتظاهروا!

في الأسبوع الأول من رئاسة «جورج بوش» وفي إطار اجتماعين لمجلس الأمن القومي برئاسة «جورج بوش» (الابن) - تكشف مناخ يدعو إلى القلق، لأن ما أخفته ضرورات «الاستيلاء على البيت الأبيض» - أخذ في البروز علنا، بمعنى أن المشروع الإمبراطوري تجلى للعيان، كما أن رجاله ظهروا للعلن - ثم زاد أن الداخلين إلى السلطة بدوا وكأنهم في سباق مع بعضهم، وعلى حد تعبير استعمله «كولين باول» «لقد تبين لي أن لحظة الحقيقة حلت علينا، وأن كل الطيور المهاجرة عادت الآن إلى أعشاشها لكي تبيض (في المكتب البيضاوي!)».

كان واضحا أولا - أن الرئيس الجديد لم يتأهل بعد للدور الإمبراطوري الذي أسند إليه، وظلت تطارده حتى في البيت الأبيض نكات ونوادر تركز جميعها على الرأس والعقل والذكاء!

وربما كان ذلك في جزء منه ينطوي على تبسيط قد يكون مخلا، لكنه لا ينفي أن الرجل الذي ظهر في لقاءات العمل المبكرة لإدارته، بدا رجلا «أصغر» من المجال المفتوح لرئيس الولايات المتحدة - وإمبراطور العالم!، والعلة المحسوسة دون انتظار أن تجربة الرجل حتى بعد «الميلاد الجديد» كانت محصورة في ولاية من ولايات الجنوب الأمريكي، ومع أن تكساس ولاية غنية، فإن سلطتها ليست في مكتب حاكمها، وإنما في دهاليز عدد من الشركات العابرة للقارات، وبينها بعض أهم شركات البترول في العالم (مقارها الرئيسية في تكساس).

وكان واضحا بعد ذلك ثانيا - أن الرئيس «جورج بوش» (الابن) وجد على قمم إدارته أصدقاء وزملاء لوالده عرفوه على أنه «دوبيا»، ولم يتأقلموا بعد على أنه السيد الرئيس (Mr President)، وكان بين هؤلاء رجل مثل نائبه «ريتشارد تشيني»، و«دونالد رامسفيلد»، و«كولين باول»، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة بالتحديد - (تشيني - ورامسفيلد - وباول) - يعتبر نفسه - وهو صحيح - أصلح من «دوبيا» للرئاسة لولا اعتبارات جعلت كلا منهم يتردد، في حين جازف هو (ولم يكن لديه مايخسره!). على أن جلوسه داخل المكتب البيضاوي الآن لا يجعله تلقائيا فوقهم - زعيما سياسيا يلهم ويوجه، أو رئيسا تنفيذيا يأمر ويُطاع!

● وكان واضحا أخيرا وثالثا - أن محرك ترشيح «بوش» (الابن) وفوزه وتشكيل إدارته - مشروعا له أصحاب، لديهم جدول أعمال جاهز يريدون طرحه، واعتماده مبكرا مع الأيام الأولى للرئاسة الجديدة، بمنطق طرق الحديد وهو ساخن، مع العلم بأن جدول الأعمال مُتَّفق عليه سلفا:

- إمبراطورية تمسك بمفاتيح السيادة ولا تقبل شراكة معها أو منافسة.

- سيطرة كاملة على موارد البترول (ومواقعه)، تشرف على إدارته وتتحكم في توزيع حصصه.

- حملة عالمية ضد الإرهاب تواجه خطرا يعلن عن نفسه، وفي الوقت ذاته توفر غطاءً أخلاقيا للإمبراطورية الأمريكية.

لكن الاتفاق على جدول الأعمال سلفا، لم يستطع أن يحجب مشاكل رئيسية:

- المشكلة الأولى: خلافات بين دعاة المشروع على ترتيب بنود جدول الأعمال (رغم الاتفاق على قائمته).

- والمشكلة الثانية: اختلافات بين الذين اتفقوا على جدول الأعمال لأنهم متنافرين لأسباب شخصية!

وتشابكت المشكلتان معا - وهي طبيعة إنسانية - وعندما تداخل العام مع الخاص واختلطت الحدود.

- والمشكلة الثالثة وقد راحت تتفاقم، أن «الكبار الذين لم يستطيعوا تقبل زعامة «دوبيا» السياسية (على فرض أنها تجلت)، ولا سلطته التنفيذية العليا (على فرض أنها حسمت) - تركوا خلافاتهم تظهر خارج الاجتماعات، وربما عن عمد، لأن كل واحد منهم اعتبر نفسه مسئولا عن «صورته»، وليس عن «صورة إدارة» متضامنة، ولعدة أسابيع بعد دخول البيت الأبيض كان أقطاب الإدارة الجديدة منهمكين بالكامل في مناورات سياسية تخصهم، فقد راح كلا منهم يحاول إعلاء دوره وتحجيم دور غيره، وإثبات صواب مشورته مع تسفيه مشورة الآخرين، وإفساح مجال نفوذه الشخصي، ولو على حساب «الرئيس» الجالس في المكتب البيضاوي.

وكذلك أصبحت علاقات النفور بين أقطاب الإدارة تسلية نوادي العاصمة، وصالونات «جورج تاون»، وتحولت إلى مادة مشوقة في وسائل الإعلام داخل الولايات المتحدة وخارجها.

وكان «برنت سكوكروفت» (مستشار الأمن القومي في عهد «بوش» (الأب) أول من تحدث عن تلك الأحوال علنا، وإن كان حديثه جاء بأسلوب دبلوماسي محسوب، فقد ذكر في حديث للنشر مع المحقق البارز «فرانسيس فيتزجيرلد» ما نصه:

«هناك في الإدارة الجديدة صراع شخصيات «Personality Conflicts»، وهذه صراعات موجودة باستمرار في كل إدارة، وكانت موجودة على أيامنا في إدارة «بوش» (الأب)، لكن هذه الصراعات ظلت مكتومة في الداخل، وأما الآن وفي عهد هذه الإدارة فإن هذه الصراعات مطروحة في العلن».

وطبقا لما نشره «فيتزجيرالد» فإن «سكوكروفت» وهو خبير مطلع (بحكم أنه كان مستشارا للأمن القومي مع الأب وصديق وفي له بعد سقوطه في الانتخابات، وشريك معه في كتاب واحد بعنوان «عالم يجري تغييره» صدر سنة ١٩٩٨ يحمل اسميهما («بوش» و«سكوكروفت») معا وتجربتهما السياسية جنبا إلى جنب) - فإن هذه الشهادة أشارت دون مواربة إلى أن «ريتشارد تشيني» (وزير الدفاع مع الأب ونائب الرئيس مع الابن) هو مصدر القلق الأكبر بسبب «تطرف زائد وجموح إلى التسرع في الأحكام يمكن أن يتسبب في مخاطر».

ثم يوحي «سكوكروفت» في حديثه مع «فيتزجيرالد» إلى أن «تشيني» كان مشاكسا مع كل وزراء «بوش» (الأب) وكانت له شطحات غير معقولة بعض المرات - ومن شطحاته المشهورة «أنه اشار بعدم تصديق «جورباتشوف» بشك أن ادعاءاته الإصلاحية للنظام السوفيتي ليست إلا عملية تمويه وتضليل، وأن الولايات المتحدة عليها أن تواصل الضغط وتشدده حتى يتفتت عدوها السابق شظايا صغيرة وسحبا من الغبار تغطي الكرملين حتى تدفنه تحتها»! - ولم يكن ذلك رأي وزير الخارجية «جيمس بيكر»».

وفي كلام «سكوكروفت» «أن تشيني كانت له من أيام وزارة الدفاع معارك مع معظم أطراف إدارة «بوش» (الأب) وقتها، وأن هذه المعارك - إذا لم يقع تداركها - سوف تسحب ذيولها إلى إدارة «بوش» (الابن)، فقد اصطدم «تشيني» حين كان وزيرا للدفاع (في رئاسة الأب) مع «كولين باول» (وهو وقتها رئيس الأركان)، وأول الأسباب أن «تشيني» وهو «المدني» حاول أن يتدخل في تحضير وإدارة حرب الخليج (الثانية) - متصورا نفسه «جنرالا على كتفه خمس نجوم» (مثل أيزنهاور) - واضطر «باول» أن يتشاجر معه مرة كل أسبوع على الأقل (طبقا لرواية «فيتزجيرالد» نقلا عن «سكوكروفت»).

والنقطة الحرجة الآن أن «تشيني» خلال تلك الحرب (لحسن الحظ أو سوئه) - بنى لنفسه صورة «مدير كفء»، وهذه الصورة هي التي وضعته على رأس الفريق الإمبراطوري وزكته نائبا للرئيس (خبيرا عارفا) مع رئيس (ليس خبيرا ولا عارفا - بل مولود من جديد) - مع تحسب الجميع من أن الحزب الديمقراطي سوف يركز على قلة خبرة ومعرفة «بوش» (الابن) مقابل خبرة مرشحه «جور» وهو نائب الرئيس وقتها (مع «بيل كلينتون»).

....

....

[وأتذكر أنني قابلت «ريتشارد تشيني» منذ سنوات طويلة (يوم أول أكتوبر ١٩٧٠)، وعندما جاء إلى مصر مرافقا لرئيس بعثة التعزية باسم الرئيس «ريتشارد نيكسون» في جنازة

في الأسبوع الأول من رئاسة «جورج بوش» وفي إطار اجتماعين لمجلس الأمن القومي برئاسة «جورج بوش» (الابن). تكشف مناخ يدعو إلى القلق، لأن ما أخفته ضرورات «الاستيلاء على البيت الأبيض» - أخذ في البروز علنا، بمعنى أن المشروع الإمبراطوري تجلى للعيان، كما أن رجاله ظهروا للعلن



«جمال عبد الناصر»، ولم يكن الرئيس «السادات» فى حالة صحية جيدة، وكان أنه أبلغ «إليوت ريتشاردسون» أثناء مراسم الجنازة وقد تقدم إليه مصافحا يعزيه أنه يستطيع أن يتحدث فيما يشاء معى (وزيرا للإعلام وصديقا مقربا منه أيامها) - بالنيابة عنه، وبالفعل جاء «إليوت ريتشاردسون» إلى مكتبى فى الأهرام فى السابعة من مساء يوم أول أكتوبر، ومعه «تشيني»، وقدمه إلى باعتباره مستشارا فى البيت الأبيض، وكان «تشيني» هو الذى كتب محضر لقائنا ذلك اليوم، ولاحظت تدخله فى مجرى الحديث بأسئلة قام فيها بمقاطعة رئيسه (وكان «تشيني» هو الذى استعاد ذكرى هذا اللقاء فيما بعد)].

....

....

ومن إشارات «سكوكروفت» (فى حديثه مع «فيتزجيرالد» أيضا) «يبين أن «دونالد رامسفيلد» بدوره لا يحب «ديك تشيني»، فهو يعتبر نفسه الرجل الذى رشح «تشيني» كمستشار للبيت الأبيض وقت رئاسة «ريتشارد نيكسون»، وكان عمره وقتها أقل من ثلاثين سنة، لكن «ديك» - كما يناديه رامسفيلد تصغيرا لاسم «ريتشارد» - شق طريقه بسرعة وتفوق.

كذلك يبين ضمن أسباب ضيق «رامسفيلد» أنه لا يستريح مع «عائلة بوش»، ويعرف أنها قبلت به كارهة، لأن «جورج بوش» (الأب) «نما إليه» - ! - أن «رامسفيلد» اعترض على تعيينه مديرا لوكالة المخابرات المركزية فى زمن الرئيس «فورد»، وأنه قال لهنرى كيسنجر (وزير الخارجية وقتها) وهو القائم بدور المرشد والمعلم للرئيس «فورد»: «إن «جورج» (بوش الأب) - لا يصلح مديرا للمخابرات المركزية لأن شخصيته ضعيفة وليست لديه «مواصفات قائد رفيع المستوى»»، ومع أن «بوش» (الأب) حصل على المنصب، فإنه لم ينس لرامسفيلد رأيه فيه.

فوق ذلك فإن «رامسفيلد» لا يحب «كونداليزا رايس»، يراها قريبة أكثر من اللازم من «كولين باول»، متعجلة أكثر من اللازم إلى فتح أبواب المكتب البيضاوى أمام وزير الخارجية حتى يوثق علاقته بالرئيس، وقد أضاف «رامسفيلد» فى حضور الجنرال «ماير» (رئيس أركان الحرب الحالي للجيش الأمريكى) «إنه يستطيع أن يرى الرابط بين «باول» و«كوندى» (يقصد كونداليزا رايس)، ولم يزد «رامسفيلد» على ذلك، لكن الإشارة كانت واضحة إلى اثنين من الملونين فى إدارة بيضاء - تجيء من أقصى اليمين فى الجنوب الأمريكى!

وعلى أى حال فإن «رامسفيلد» لم يستطع إقناع نفسه بأن «تشيني» سبقه، وأصبح نائبا للرئيس فى الإدارة الحالية.

وفوق ذلك فإن «رامسفيلد» يكره «كولين باول» بسبب صيته العريض فى المؤسسة العسكرية الأمريكية، ولا يشعر براحة حين يسمعه يتكلم أمامه وهو وزير الدفاع بخبرة رجل «يظن أنه يفهم» فى شئون وزارته أكثر مما «يفهم» هو.

وفى تلميحات «سكوكروفت» أن «كولين باول» ليس معجبا - على الإطلاق - بكل أفراد «المجموعة الإمبراطورية»، فهو يسمعهم يتحدثون عن «استعمال القوة»، دون أن تكون لأحد منهم معرفة بشئون الحرب، فكلهم - بما فيهم الرئيس «بوش» (الابن) نفسه - تهربوا من الخدمة العسكرية فى فيتنام بعذر أو آخر!

«كولين باول» ليس معجبا - على الإطلاق - بكل أفراد «المجموعة الإمبراطورية»، فهو يسمعهم يتحدثون عن «استعمال القوة»، دون أن تكون لأحد منهم معرفة بشئون الحرب، فكلهم - بما فيهم الرئيس «بوش» (الابن) نفسه - تهربوا من الخدمة العسكرية فى فيتنام بعذر أو آخر!

وتروى السيدة «كونداليزا رايس» أنها كثيرا ما رأت «كولين باول» يعود برأسه إلى الوراء ويقلب عينيه إلى أعلى، إشارة إلى ضيقه بكلام يسمعه حول مائدة اجتماعات مجلس الأمن القومى (وتلك حركة مشهورة عن وزير الخارجية).

وقد فقد «كولين باول» صوابه عندما سمع «رامسفيلد» يتحدث فى أول اجتماع عقده مجلس الأمن القومى بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، قائلا إنه «أول من لفت الأنظار إلى أن الولايات المتحدة معرضة لهجوم غادر عليها من وزن «بيرل هاربور» (عندما هاجمت اليابان الأسطول الأمريكى فى الباسفيك وتمكنت من تدميره بالكامل فى ديسمبر ١٩٤١) - واضطر «كولين باول» إلى تذكير «رامسفيلد» بأن ذلك التحذير الذى يدعى به الآن جاء فى معرض مناقشة عن كوريا الشمالية وقدراتها فى صناعة الصواريخ، وذلك شيء يختلف عما تعرضت له نيويورك صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبالتالى فإن «رامسفيلد» يدعى بأثر رجعى حكمة ونبوءة لم تتحقق، لأن الهجوم على برجى التجارة لم يكن هجوما صاروخيا مفاجئا شنته كوريا الشمالية!».

ومؤدى الأمر فى النهاية أن طاقم «بوش» (الابن) الذى جلس ليبحث المشروع الإمبراطورى أواخر شهر يناير وأوائل شهر فبراير سنة ٢٠٠١ - لم يكن فريقا متجانسا أو منسجما على المستوى الشخصى، حتى مع رابط اقتناع أعضائه بأن مشروعهم الإمبراطورى جاء وقته وأوانه!

....

....

[وكان منطقيا أن يختلف أعضاء الفريق الإمبراطورى فى إدارة «بوش»، رغم اتفاقهم على المشروع الإمبراطورى وبنوده - وكان طبيعيا أن تبرز خلافاتهم على ترتيب الأولويات عندما يجلسون إلى مائدة مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض أواخر يناير وأوائل فبراير سنة ٢٠٠١.

وذلك بالفعل ما حدث، وما تتفق عليه الروايات والشهادات والوثائق الصحيحة والمعتمدة، فقد برز واتسع الخلاف على ترتيب الأولويات، وانقسمت الآراء منذ المناقشات الأولى على عدة اتجاهات، وكل اتجاه يتزعمه قطب من أقطاب الإدارة الجديدة.

١ - كان هناك رأى يتزعمه «كولين باول» يعتقد أن بند مكافحة الإرهاب هو الذى يصح أن يتصدر قائمة الأولويات، لأنه القادر - قبل غيره - على اجتذاب «أوروبا» (وهى مجموعة دول صناعية كبرى ترى نفسها مهددة بهجرات كثيفة من شباب الجنوب تحمل إليها موجات من كل الأجناس ينفذون إلى مجتمعاتها ويتحولون إلى حقول ألغام نائمة فى وسطها، وأدوات فى يد جماعات إرهابية تستعملها من بعيد حين تشاء) - ثم إن العمل ضد الإرهاب يستطيع أيضا أن يجذب «روسيا» (وهى التى عاشت كابوس أفغانستان وبعده مأزق الشيشان) - وهو فى نفس الوقت يجذب «الصين» (التى يقلقها ما يجرى فى جمهورياتها الغربية من نشاط جماعات إرهابية ترفع لواء الإسلام).

وكذلك كان «كولين باول» يرى (من تقدير لأهمية أوروبا وروسيا والصين) أن مقاومة الإرهاب تصلح مدخلا لما هو أوسع منها - بمعنى أن «المشروع الأمريكى» للزمن الجديد يستطيع بهذا المدخل أن يأخذ معه هذا الثلاثى، حتى وإن سلم لأطرافه بدرجة من الشراكة مع الولايات المتحدة فى تدبير أمور هذا الزمن الجديد.

كذلك كان «باول» يرى أن ضرورات نجاح المشروع الأمريكى - والشرق الأوسط أهم ميادين تحقيقه - تستدعى التوصل إلى تسوية للصراع العربى الإسرائيلى لأنه من خبرته ومما اطلع عليه منذ دخل وزارة الخارجية - يعرف أن تلك المنطقة (الشرق الأوسط) تموج بعداء متزايد للسياسة الأمريكية، وأنه بالحديث إلى «خبراء وزارته» تبين له أن الإدارة السابقة (إدارة «كلينتون») قدمت مشروعا لحل دائم للصراع رفضه الفلسطينيون فى كامب دافيد (خريف سنة ١٩٩٩)، لكن هذا المشروع يمكن أن يُعاد بعثه وعرضه بتعديلات طفيفة تجعله مقبولا للفلسطينيين، وغير مرفوض من الإسرائيليين].

....

....

٢ - وكان هناك رأى آخر يتزعمه «ريتشارد تشيني»، ملخصه أن الرئيس الجديد لا يصح أن يقتفى خطوات الرئيس السابق («كلينتون»)، ويهدر وقته فى مشكلة الشرق الأوسط، لأنها لا تتحمل ثقل «حل دبلوماسى»، وظنه فى هذا النوع من الصراعات هو تركها للزمن يتكفل بحلها (سواء بالتقادم أو النسيان)، وبدلا من تضييع الوقت (كما فعل «كلينتون») فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع أن تدخل إلى قلب الشرق الأوسط عن طريق قضية مقاومة الإرهاب وليس عن طريق قضية فلسطين، ويساعد على ذلك فى تقديره أن حكومات المنطقة الصديقة للولايات المتحدة ليست مهتمة إلى الدرجة التى يتصورها «بعضهم» بقضية فلسطين، فتلك معضلة تعود العرب أن يتعايشوا مع تعقيداتها ولم تعد تهزهم تداعياتها - فى حين الاهتمام الجدى لهؤلاء الأصدقاء العرب يتركز فى



«حماية نظمهم». فذلك ما يعنيهم قبل غيرد، ومع أنهم ينسبون إلى «الإرهاب» وحدد أسباب قلقهم كلها - فإن الولايات المتحدة تستطيع استغلال هذا القلق لكى تنفذ إلى قلب الإقليم متوجهة إلى مواقع البترول مباشرة، دون تضييع الوقت فى «البدرومات المظلمة الباردة والدامية» للصراع العربى الإسرائيلى.

٣ - وكان هناك أخيرا رأى يتزعمه «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع (يؤيده فيه نائبه «بول وولفويتز» ومدير التخطيط الاستراتيجى فى وزارته «ريتشارد بيرل») - ملخصه أن الوقت مناسب لضربة مباشرة تستهدف العراق كمدخل لسيطرة كاملة على البترول، لاتضيع وقتها لا مع قضايا مستعصية على الحل، ولا مع مخاوف نظم تهرب من ظلها!

وكان تقدير «رامسفيلد» أن العراق نشيط فى توسيع دائرة التعاطف معه، بسبب فداحة تكاليف الحصار على شعبه، وهذا التعاطف - وهو يتزايد - مما يصعب إهماله، وإلا فإن موضوع العراق (بترول العراق) سوف يظل مرهونا بظروف متقلبة (Volatile).

مُضافا إلى ذلك أن تصفية بقية الحساب مع العراق يفتح مداخل إلى تسوية الحسابات القديمة فى إيران - وبهذد التصفية والتسوية للحسابات فإن شرقا أوسطا جديدا يمكن أن يخرج من وراء الظلمات التى تغطى عليه الآن، خصوصا إذا أمكن تكثيف الوجود العسكرى الأمريكى فى الخليج، ليقوم بعرض لقوة النيران فى منطقة لا تفهم غير لغة «الخوف»، رغم استغراقها فى الكلام عن السلام!»].

....

....

وظلت المناقشات واحتدمت الخلافات، وطبقا لسجلات مجلس الأمن القومى الأمريكى فى الاجتماع الثانى له (مارس ٢٠٠١) - وضمنها محاضر وتقارير وتوجيهات عمل (أرسلت إلى لجنة الأمن والدفاع فى الكونجرس من قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١) - فإن «رامسفيلد» طلب الكلمة (وقصدد فى الغالب أن يرد على تقديرات وزير الخارجية «كولين باول») - ليقول:

«إنها مضيعة للوقت أن نصرف جهدنا مع «قوى مستنفدة» (Spent Powers) مثل الروس، لأن الاتحاد السوفيتى (وهو الخصم السابق)، لم تبق منه إلا دولة صغيرة يتساوى حجم إنتاجها مع حجم إنتاج «هولندا»، وقوة بهذا الحجم لا تقدر أن تكون منافسا للولايات المتحدة، ومع كون هذه القوة تملك ترسانة نووية ورثتها عن الاتحاد السوفيتى - إلا أنها غير قادرة على صيانتها.

وأما أوروبا فإن التنسيق معها ضرورى، أخذا فى الاعتبار أن ذلك التنسيق لا يصح انتظاره طويلا، لأن أوروبا تدرك فى أعماقها أن مصالحها مع الولايات المتحدة، وهى مهما حاولت - بأى قدر من الادعاء باق عندها - سوف «تجىء إلينا فى النهاية».

وأما العالم العربى فإن النظم فيه مشغولة بأوضاعها، وإذا بقى لها شىء فوق هذا الشاغل، فإن إسرائيل كفيلة به.

وإذن فإن السياسة الأمريكية لابد لها أن تنقل مواقع تركيزها إلى جهات أخرى تستطيع عليها إثبات وتأكيد ذلك التفوق الذى تملكه الآن حتى تضمن السلام المستند إلى النصر الساحق الذى أحرزته (فى الحرب الباردة)!

وعلق الرئيس «بوش» (الابن) طبقا للسجلات على كلام «رامسفيلد» - بقوله:

«الحقيقة أننى لازلت متحيرا، فعندما كنت طالبا فى الجامعة، وعندما كنت أعيش مع أبى فى البيت الأبيض (نائبا للرئيس ورئيسا للولايات المتحدة) كنت أعرف أين نحن.

كنت أعرف أننا «هنا» وأن الشيوعيين «هناك»، وأن بيننا وبينهم صراعا، أى أنهم كانوا العدو.

وأما الآن فلدى إحساس بالضياع لا أعرف معه على وجه القطع من هو العدو؟ لكننى فى أعماق شعورى (Gut Feeling) أوافق أن هناك أعداءً لنا، وأن الأعداء «هناك» فى موقع ما «هناك»، ولكن أين بالضبط؟ - هذه هى المعضلة!.

....

....

[وتدخل نائب الرئيس «ريتشارد تشينى» ليقول بعد عرض مفصل لرؤيته عن الأوضاع العالمية الراهنة:

«الرئيس محق حين يقرر بثقة أن العدو لابد أن يكون هناك، وهو بالفعل هناك، متمثلا فى الإرهاب العالمى الذى يبدو أن «تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن» مجرد سطح ظاهر له يخفى تحته جبلا ضخما غارقا فى ظلام البحر، والمعضلة فى مطاردة الإرهاب أنه «معركة كبرى» ضد عدو مختبئ فى كهوف الجبال المظلمة، له شبكة غامضة واسعة فى كل قارات العالم، وهو يضرب مصالحنا كما فعل فى قواعدنا فى السعودية (الخبر) - وضد قوتنا البحرية (المدمرة كول فى ميناء عدن)، ثم يختفى فى الزحام، ومهما كان فإن علينا أن نعثر عليه وأن ندمر بنيته الأساسية وتنظيماته وقياداته حيث تكون، وذلك جهد سوف يستغرق وقتا وموارد، وفى هذا الوقت فإننا لا نستطيع أن نغفو فى انتظار أن يوجه الإرهاب ضربته التالية، ولذلك فإن أمامنا على الفور مهمتين:

- زيادة قوتنا الضاربة ونشرها بحيث تستطيع العمل بحزم وحسم فى أى مكان.

- وتحديد مصالحنا الحيوية فى الشرق الأوسط (موارد البترول والمواقع الاستراتيجية من حول عمليات إنتاجه ونقله)].

....

....

وتوالت المداخلات وأهمها ما ورد على لسان «كولين باول»، وفيها قوله:

«إن الشرق الأوسط هو المنطقة التى ينبغى أن نركز عليها، ووزارة الخارجية تريد أن تتلقى توجيها فى شأن المفاوضات الجارية بين الحكومة الإسرائيلية وبين السلطة الفلسطينية، وهناك معلومات لدى الوزارة ومن أصدقاء لنا فى المنطقة تشير إلى أن «عرفات» نادم لأنه لم يقبل بالمشروع الذى عرضه عليه الرئيس «كلينتون» فى كامب دافيد، وهو على استعداد اليوم لكى يقبل ما رفضه بالأمس، وربما تكون تلك فرصة لتهدئة الشعور العام فى المنطقة، وهو شعور خطر فى منطقة حساسة تتخبط بعصبية، لأنها لا تعرف طريقها إلى العصر، ولأن نظمها محاصرة بمطالب ملحة على ضرورة التغيير وأوله التقدم نحو درجة أرقى من المشاركة السياسية والإصلاح الدستورى والقانونى».

وتدخل الرئيس «جورج بوش» ليروى نقلا عن والدد: «إنه لا يثق على الإطلاق فى «عرفات»، ويراد نموذجا لـ«تاجر سجاد صغير فى سوق شرقى مزدحم»، يعرض بضاعة يعرف أنها ليست أصلية، ويسعى إلى صفقات يعتزم سلفا أن لا يدفع ثمنها.

ويروى «بوش» «إنه فى بداية الحملة الانتخابية قام بزيارة الشرق الأوسط بادئا من إسرائيل، وكان «آرييل شارون» مضيفه ومرافقه فى رحلات استطلاعية بالهليوكوبتر إلى مواقع خطوط الصراع، وأثناء هذه الزيارة فإنه أراد أن يظهر درجة معقولة من الحياد بين الفلسطينيين والإسرائيليين، بناءً على نصيحة من وزارة الخارجية (وكانت «مادلين أولبرايت» وزيرة لها فى إدارة «كلينتون») - وكذلك فإن مساعديه الذين رافقود فى رحلته طلبوا موعدا له مع «ياسر عرفات»، لكن «عرفات» لم يرد، ثم عرف «بوش» فيما بعد «أن عرفات تملص فى الرد وماطل لأنه ظن أن لقاءد معه (مع «بوش») سوف يحرج الإدارة القائمة ويضايق المرشح الديمقراطى «آل جور» (وهو نائب الرئيس)، وذلك ما استغربه «بوش» وكان كافيا لإقناعه أن «عرفات» - كما يرى والده بالضبط - مجرد «تاجر شرقى محدود الأفق»!

وتظهر السجلات بعد ذلك مباراة بين «ريتشارد تشينى» و«دونالد رامسفيلد» فى الدعوة إلى ضرورة ارتكاز السياسة الأمريكية فى المرحلة القادمة على إسرائيل وعلى «آرييل شارون» بالتحديد. ويضيف «رامسفيلد» تعريفا جديدا لاستعمال القوة يقول فيه: «إن تدخل أمريكا من الآن فصاعدا لا يصح أن تحدده مناطق الأزمات، ولكن تحدده كذلك الإمكانيات المتوافرة لنا فى مناطق الأزمات!».

تدخل الرئيس «جورج بوش»
ليروى نقلا عن والده: «إنه لا يثق على
الإطلاق فى «عرفات»، ويراه نموذجا
لـ«تاجر سجاد صغير فى سوق شرقى مزدحم»،
يعرض بضاعة يعرف أنها ليست أصلية،
ويسعى إلى صفقات يعتزم
سلفا أن لا يدفع ثمنها



رابعـا:

١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتوابعه

كان واضحا طوال النصف الأول من سنة ٢٠٠١ أن الإدارة الجديدة تتخبط في سياساتها الداخلية والخارجية، وأن رئيسها لم يكن «مقنعا» في مكانه وفي زمانه، وأن أقطاب إدارته شردوا بعيدا عن البيت الأبيض، وأن كل واحد منهم يحاول أن يجعل من وزارته «محمية» له محرمة على غيره، وكان ذلك ظاهرا في وزارة الدفاع، وفي وزارة الخارجية، وفي وزارة الخزانة، وحتى في وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفيدرالي.

وفي البيت الأبيض ذاته جرت محاولة لإظهار «ريتشارد تشيني» نائب الرئيس، باعتباره الرجل الأول في الإدارة الجمهورية - رغم أنه في النظام الرسمي رجلها الثاني، ووقع بالفعل داخل كواليس السلطة أن أصحاب المشروع الإمبراطوري اعتبروا عمليا أن «ريتشارد تشيني» رجلهم، وأن القرار النافذ يستحسن أن يظل في يده مع وجود رئيس أمريكي «مازال عوده أخضر»، ولم تكن تلك بادرة طيبة إزاء الرئيس حتى وإن كان عوده أخضر، وزاد عليها أن الإيحاء بسلطة «تشيني» العُليا وجد طريقه إلى وسائل الإعلام الأمريكية، وكان الصحفيون الأكثر رفقا بالرئيس هم الذين رأوا أنها إدارة «بوش تشيني» - كلمة واحدة وليست كلمتين إشارة إلى أن الرئاسة هذه المرة شركة بين الرئيس ونائبه: أحدهما لديه اللقب والثاني لديه الصلاحية!

ومع شهور الصيف راح عدد من المستشارين المقربين من الرئيس الجديد وفيهم «أندرو كارد» (رئيس هيئة مستشاري البيت الأبيض)، و«كارل روف» (أقوى مستشاريه)، و«كارين هيوز» (المسئولة عن علاقاته العامة) - يبدون انزعاجهم من أن صورة الرئيس «مهزوزة» أمام الرأي العام في الداخل وفي الخارج أيضا، وتوصيتهم أن «جورج بوش» (الابن) يحتاج للمرة الثانية إلى ولادة جديدة (سياسية هذه المرة وليست أخلاقية)، واقتراحهم أن يكون هناك فاصل زمني، أي إجازة يبتعد فيها الرئيس عن الساحة ثم يعود إليها «رئاسيا بحق وحقيق!».

وكان التخطيط أن يُقال ويُذاع ويُنشر أن الرئيس الجديد سوف يترك واشنطن لشهر على الأقل يلزم فيه مزرعته (كراوفورد) في تكساس ومعه دراسات وتقارير وأوراق يعكف على دراستها، وسوف يعود من هناك ومعه برنامج عمل يجدد طاقات الإدارة ويحشد مواهبها ويوحد كلمتها ويحدد مهامها دون التباس في جدول أعمالها أو حول مصدر القرار فيها.

وكذلك أعلن رسميا أن «جورج بوش» سوف يغيب في تكساس طوال شهر أغسطس حيث يقضي إجازة صيف يقظى وليست مسترخية، ونشيطة وليست كسولة، ومشغولة بالمستقبل وليست مأخوذة بسماع همس الريح أو نسيم البحر!

وبينما كان الرأي العام الأمريكي والعالمي في حيرة إزاء رئيس لم تمض عليه شهور في السلطة، ويريد الآن إجازة شهر كامل في مزرعته - كان الإيحاء من البيت الأبيض أنه «غياب له ما بعده» - وما بعده سوف يكون حضورا طاغيا كأنه وقوع المعجزة!

ويوم أول سبتمبر بعد شهر كامل (أغسطس)، عاد الرئيس «بوش» من مزرعته في «تكساس» إلى مكتبه في البيت الأبيض، ودعا إلى سلسلة من اجتماعات لمجلس الأمن القومي بقصد إجراء مراجعة كاملة لستة شهور من إدارته، ولإعادة ضبط وتوجيه أكثر من ثلاث سنوات باقية من هذه الإدارة، وفي نفس الوقت استشراف فرصة مدة ثانية للرئاسة (بحيث يصحح ما لحق بوالده الذي دخل التاريخ رئيس مدة واحدة (وهي مسبة تسيء إلى أي رئيس سابق، باعتبار أن الناس رفضوه في حق له بنص الدستور)!).

وفجأة صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (بتوقيت شرق الولايات المتحدة) - وقعت الواقعة.

● في الساعة ٨,٤٥ اصطدمت طائرة مختطفة تابعة لشركة الخطوط الأمريكية (الرحلة رقم ١١ من بوسطن) بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي، فكسرت فيه فجوة ضخمة تحولت في لحظة إلى فوهة حريق.

● في الساعة ٩,٠٣ اصطدمت طائرة مختطفة ثانية من مطار بوسطن تابعة أيضا لشركة الخطوط الأمريكية المتحدة (الرحلة رقم ١٧٥) بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي، وكذلك انفجر البرج الثاني لمركز التجارة العالمي.

● وفي الساعة ٩,٤٣ اصطدمت طائرة مختطفة ثالثة من مطار بوسطن ذاته تابعة لشركة الطيران الأمريكية المتحدة (الرحلة رقم ٧٧) بمبنى وزارة الدفاع في واشنطن وهدمت ركنا منه وأشعلت لهبا في ركن آخر يقع فيه مكتب وزير الدفاع نفسه.

● وفي الساعة ١٠,٠٥ كانت أبراج مركز التجارة العالمي - برجان هما أهم معالم نيويورك عاصمة المال والثقافة والإعلام في الولايات المتحدة - يتهاويان حطام أنقاض، ورماد حريق يتساقط على الأرض.

....

● وفي مدينة «ساراسوتا» (في فلوريدا) حيث كان الرئيس الأمريكي في زيارة قصيرة ظهر للناس وكأنه طائر بحري كاد يغرق تحت بقعة زيت تسربت من ناقلة زيت أصابها العطب فتعطلت وتدفقت حمولتها تغطي خليج فلوريدا تنبئ بكارثة بيئية مروعة، وقال الرئيس دون أن يظهر لسامعيه إنه استعاد حواسه بعد المفاجأة:

«أمريكا تحت النار - تعرضنا لهجوم إرهابي!».

كان المشهد مشهدا غريبا عند مركز القرار الأمريكي وأمام الشعب الأمريكي، وأكثر غرابة خارجه وراء البحار والمحيطات].

....

وفي البيت الأبيض كان المشهد أشبه ما يكون بمؤامرات قصور الأمراء الباباوات الإيطاليين من آل «بورجيا» ونظرائهم ممن تمرسوا في دسائس القصور ومؤامرات الاغتيال بالتناحر وبالسم وبالشائعات.

وبعد أن وقع الهجوم على أمريكا كان «جورج بوش» على وشك أن يركب طائرته الرئاسية من فلوريدا عائدا بسرعة إلى واشنطن وإلى البيت الأبيض - وإذا به يتلقى اتصالا هاتفيا من نائبه «ريتشارد تشيني» يرجوه فيه أن لا يقترب من أجواء واشنطن، لأن طائرته مستهدفة بكمين إرهابي يتربص بها، وابتعدت الطائرة الرئاسية عن أجواء واشنطن، وظلت عشر ساعات شاردة وضائعة بين القواعد العسكرية والمطارات.

كل ذلك وأسرة «بوش» وفي المقدمة منها والدته «بربارة» يستعجلون عودته إلى واشنطن، لأن مكانه هناك في المكتب البيضاوي وليس في غيره.

....

[وفي هذه اللحظات الحرجة راح رجال مثل «دونالد رامسفيلد» وغيره من أركان الإدارة يقولون - وبحيث تسمع أسرة «بوش» - أن «ديك تشيني» يريد أن يظل «دوبيا» بعيدا عن مركز القرار ليتأكد الرأي العام أنه رئيس في الشكل وليس في الموضوع، لأن الموضوع كله في يد «ريتشارد تشيني»، وبالفعل فإن «تشيني» انتهز الفرصة ليتصرف فعليا أمام أمريكا باعتباره الرئيس الحقيقي الموجود في البيت الأبيض، وعندما طلبت الأسرة (على الأقل الأب والأم) من «دوبيا» أن يعود على عجل، وأن يضع نفسه فورا وسط الصورة].

....

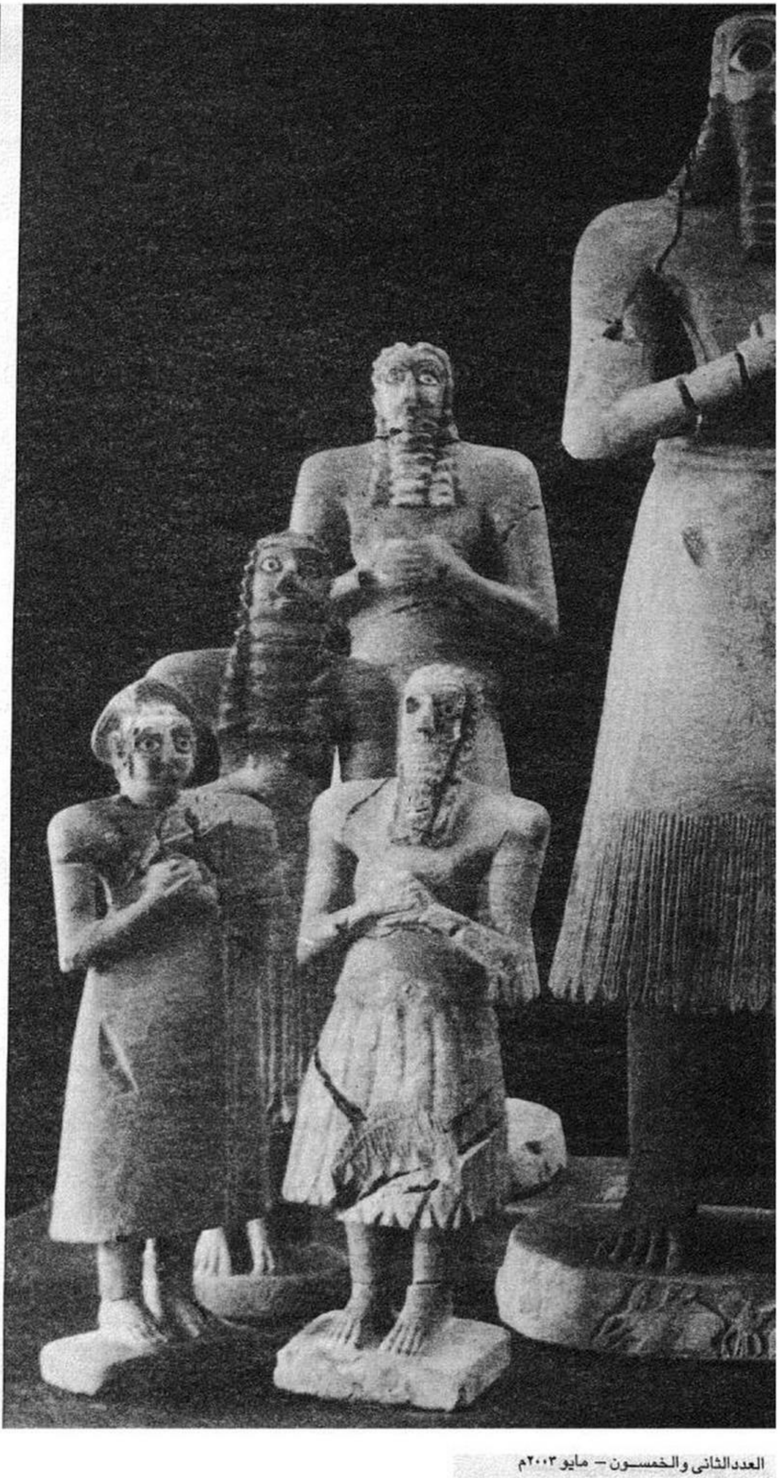
وقد كان وفي وسط موقف شديد الحرج بالنسبة لأمريكا - كانت دسائس القصور تفرض على نائب الرئيس أن يبتعد عن الأنظار، وأن يتجنب الأضواء، وأن يختفي من مواقع النظر بحيث يخلو المسرح لرجل واحد هو «دوبيا»، والحجة أن الرئيس ونائبه في زمن حرب لا يصح أن يتواجدا في نفس المكان.

كان البيت الأبيض يريد قيصرا واحدا يقف عند دخوله كل القواد يهتفون باسمه عندما يدخل - ويكررون الشيء نفسه عند الخروج.

لكنه على طول الولايات المتحدة وعرضها ومن خط الماء إلى خط الماء، كان الصوت والصدى اسم رجل غامض يُشار إليه بالكراهية والرهبة، كأنه من عوالم السحر - هو «أسامة بن لادن» الذي قيل أن أعوانه حضروا كالعفاريت خفية من جبال وكهوف أفغانستان - وانقضوا نارا ودمارا فوق الأبراج العالية لأقوى إمبراطورية في التاريخ!



من أحرق بغداد ؟



هل يدرك العالم كم كان مذنبا بحق حضارته وتاريخه وحتى مستقبله عندما سمح بمرور جريمة نهب وسلب المتحف الوطنى العراقى دون أى رد فعل سوى الكلام. كثيرون حملوا الغازى الأمريكى المسئولية وآخرون اتهموه بالمشاركة صمتا أو فعلا. وفى الحالتين تباكى الجميع على أطلال متحف جسد صورة زاهية لإحدى أهم حضارات العالم القديم. فى ملف متكامل تقدم «وجهات نظر» رصدا وتحليلا.. وأسى لهول ما حدث

حلى من ذهب
أور - ٢٤٥٠ ق م

من أحرق بغداد؟

التـــراث.. الذاكـــرة.. التـــاريخ

طالـــب البـغـدادي

من المتحف الوطني إلى مكتبة بغداد ودار المخطوطات والوثائق، أمضيت أكثر من ٦ عقود أشم رائحة الزمن والتاريخ وتلون بخضرة لطحالب النامية فوق جدران أزقة بغداد القديمة التي تحمل بين جدرانها تراكم حضارة تمتد مع الحروف الهجائية من الألف إلى الياء.

ومازالت ذاكرة تلك الأيام الخوالي تجري في شراييني.. تعيش معي كأنما حدثت بالأمس وليس قبل سنوات طويلة في هذه المكتبة.. رأيت للمرة الأولى نازك الملائكة وهي تطالع أحد الكتب وتعرفت فيها على بدر شاكر السياب وكانت فرحتي الكبرى عندما رأيت وجه الجواهري والآن وبعد أن اكتوت هذه المؤسسات الثقافية بحرائق النيران أكثر استهدفت ماضي وتاريخ العراق وحاضره، لا أملك سوى تنشيط ذاكرتي الزمنية محاولاً أن أبعث الروح من خلال الكتابة، في تراث لم يكن فقط ملكًا للعراق أو الأمة العربية بل العالم أجمع لعلني أصبح في النهاية حجرًا ضئيلاً يساهم ولو قليلاً في إعادة ما ضاع أو قطرة دم صغيرة تجدد الروح فيما احتضر.

بعد أن نفذت الولايات المتحدة وبريطانيا احتلالها للعراق وبعد أن تهاوى النظام وسقطت جميع مؤسساته وقع العراق في فراغ أمني وسياسي قامت بمحاولة ملئه عصابات اللصوص التي عرفها الشعب طوال عقدين من الزمن قبل وقوع الحرب العدوانية، وهذه العصابات هي من إفرازات النظام نفسه وقد حوّلت كل نتائج الحرب ولو مؤقتًا لصالح أعمال النهب والسلب والحرق والتدمير والاغتصاب ضد كل البنى التحتية خصوصًا ضد البنى الثقافية والاجتماعية التي هي ملك المجتمع بأسره بل ملك الإنسانية بكاملها. ولم تقم القوات الغازية المحتلة بحماية البنى والممتلكات الثقافية ضمن موقفها العام بالتنصل من حماية حتى أمن المواطنين والممتلكات العامة والخاصة، ورفضت قيادتها بإصرار النداءات التي وجهت إليها من مختلف الأطراف والمؤسسات والمنظمات الدولية وحتى الوطنية التي رأت أن في نداءاتها شكلاً من الاعتراف بشرعية الاحتلال حيث إنها وجدت أن حماية البنى الثقافية هي مهمة آنية ملحة وواجب تاريخي لا يخضع لعناصر القرار السياسي أو المرحلي، رفضت تلك القيادات المختلفة هذه النداءات ورفضت بإصرار تطبيق ما نصت عليه معاهدة جنيف الرابعة التي تلزم قوات الاحتلال بملء الفراغ الأمني وممارسة مسئوليتها في نشر الأمن والنظام والطمأنينة والحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة وعلى أرواح المواطنين.

وكانت المتاحف والمكتبات والجامعات والمختبرات ومراكز التوثيق أكثر ما استهدفته تلك الزمر والعصابات العابثة، وقامت بعد نهبها وتدمير ما تركته بحرق تلك المؤسسات وبقيت النيران وألسنتها تلتهم المباني وما تحويه دون وجود أية محاولة حتى لإطفائها وتقليل مخاطرها من قبل القوات الغازية التي بقيت وإلى الآن تتفرج من قريب على شكل هذه الكارثة المأساوية وكأنها تنفذ مخططًا مرسومًا لها تنفيذًا دقيقًا يصل حتى التفاصيل الصغيرة.

وقد أثبتت مشاهد هذه الكارثة أن هناك تركيزًا موجهًا على نهب وتدمير المؤسسات التاريخية والثقافية واستمر هذا الدمار والخراب حتى بعد وقف القتال ولايزال مستمراً دون أية محاولة لوقفه أو حتى تحجيمه.

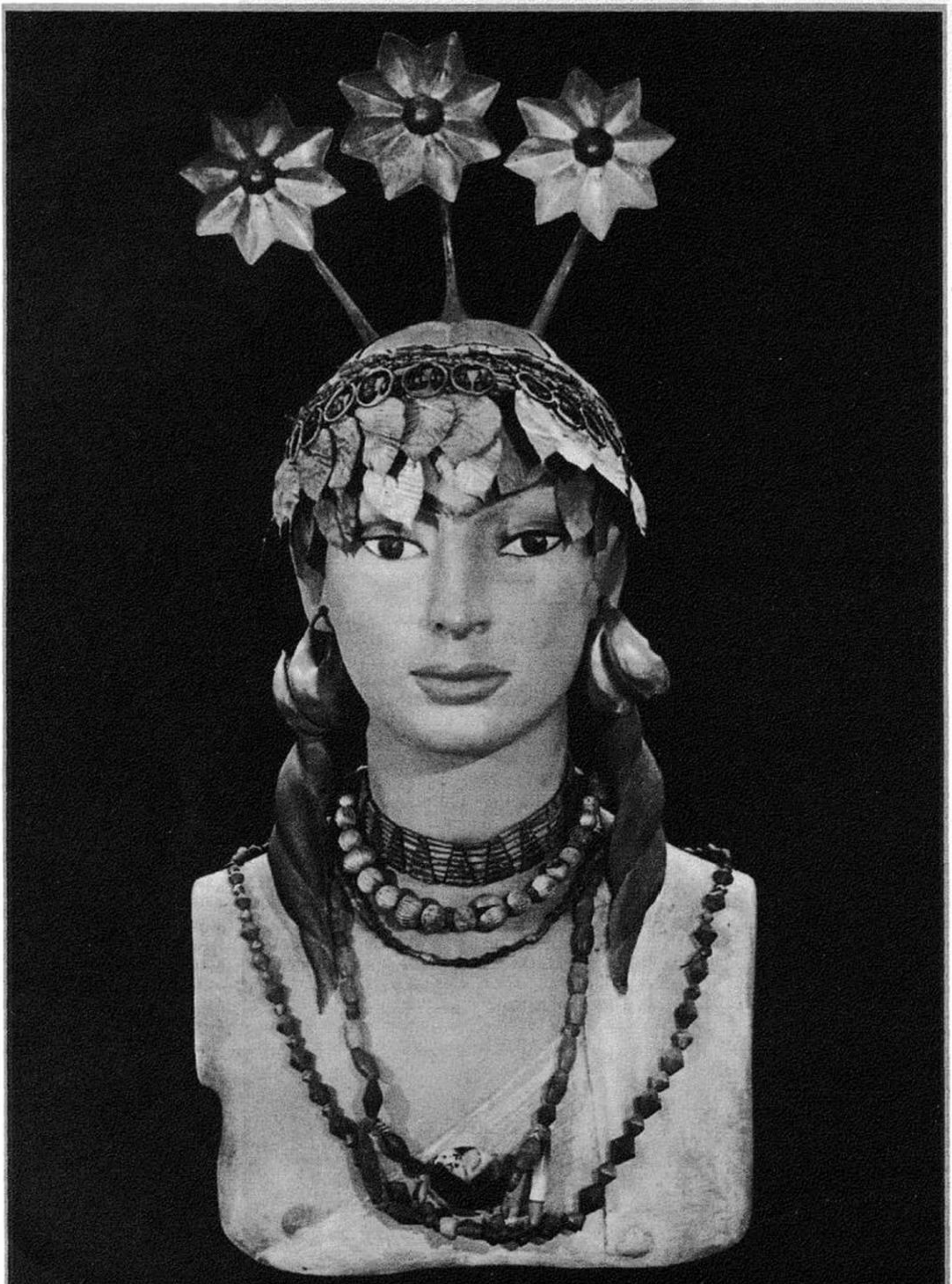
وبالرغم من انعدام وجود الأرقام والمعلومات والمعطيات حاليًا بما يتعلق بما فقد لكنني أستطيع أن أقدم بعض المعلومات عن بعض المؤسسات الثقافية التي راحت ضحية على مذبح الإنسانية والحضارة.

١- المتـــحف العـــراقي:

أُقيم في أعوام الثلاثينيات وافتتح عام ١٩٣٧. أسسه المرحوم العلامة ساطع الحصري وشارك في تطويره الدكتور ناجي الأصيل الذي ترك الوزارة ثم السلك الدبلوماسي ليتفرغ لهذه المهمة الثقافية وساعده جمهور من الباحثين والأعلام العراقيين أمثال فرج بصمة جي - وفؤاد سفر - وكوركيس عواد - وناصر النقشبندي.. وغيرهم. يضم المتحف أهم الآثار والكنوز المكتشفة من الحضارات القديمة التي مرت على العراق منها العراقية الأصيلة كالحضارة السومرية والأكدية والبابلية والآشورية ومنها ما اتصلت بحضارات قامت في مناطق أخرى ثم اتخذت العراق كمركز لها كالحضارة الفارسية واليونانية على عهد الإسكندر المقدوني الذي اتخذ بابل عاصمة له والساسانية التي بنت المدائن عاصمة لها والتي لاتزال قصور الأكاسرة شاهدة إلى اليوم ومنها الحضارة العربية ما قبل الإسلام (الأنباط) التي أسست مدينة الحضر العظيمة عاصمة لها ثم الملوك العرب المناذرة الذين أسسوا الحيرة القريبة من الكوفة الإسلامية التي كانت تسمى حينذاك بكوفى الأديرة عاصمة لهم بعصريها الشهيرين السدير والخورنق. ومن هذه المدينة انطلق الحرف العربي بخطه الكوفي إلى الحجاز لينشر هناك على يد أمية بن عبد شمس وبشر بن مالك.

ثم جاءت الحضارة الإسلامية لتؤسس أعظم مدينتين هما الكوفة والبصرة وتأسس فيهما الفكر الإسلامي، وتطورت فيها علوم الدين واللغة ووضعت فيها مبادئ النحو والبلاغة لتكون أساسًا لمبادئ التفسير وأصول الفقه وبقية العلوم التي تطورت بعدئذ في مدينة بغداد التي تأسست عام ١٤٥ هجرية لتصبح منار البشرية ومركز العالم في الفكر والحضارة والتمدن. وأصبحت على يد العباسيين المركز العلمي الذي تطورت فيه كل العلوم الإنسانية الصرفة منها والأدبية والفلسفية في نفس الوقت، فكان الكندي وابن سينا وابن حيان وابن الهيثم وابن النفيس والفارابي والغزالي وغيرهم. ولا يمكن في هذا المجال سرد ما يحتويه المتحف من نوادر خصوصًا إذا ما تطرقنا إلى ما تحويه المخازن التي كسرت ونهبت. فقد ضم المتحف أولى شرائع المجتمع الإنساني وهي المسماة بشرائع «أورنمو» والتي كتبت بالحروف المسمارية سبقت في تاريخها شرائع حمورابي الشهيرة المثبتة على المسلة المسماة باسمه والموجودة في متحف اللوفر بعد أن عثر عليها المنقبون الفرنسيون في مدينة سوسة في إيران. وإلى جانب هذه الشرائع هناك العديد الكبير من الرقم الطينية المكتوبة بالخط المسماري وبمختلف الأحجام. وتضم عقودًا ورسائل ومواثيق وقصائد ودراسات بعضها في علم الفلك والنجوم وبعضها في مسائل ومحاولات رياضية. وقد حاول السومريون ومن بعدهم الأكديون والبابليون أن يوثقوا كل شيء في حياتهم فنجد التماثيل الملكية والدينية مليئة بالكتابات المسمارية سواء على قواعدها أو على ظهورها. وأستطيع القول أن كل معركة خاضها ملوك المدن السومرية الأكدية والبابلية قد وثقت بالصور والرموز والكتابة المسمارية.

يضم المتحف أهم الآثار والكنوز المكتشفة من الحضارات القديمة التي مرت على العراق منها العراقية الأصيلة كالحضارة السومرية والأكدية والبابلية والآشورية ومنها ما اتصلت بحضارات قامت في مناطق أخرى ثم اتخذت العراق كمركز لها كالحضارة الفارسية واليونانية



أما فيما يتعلق بالأشوريين الذين كتبوا ورسموا على الصخر والمرمر فقد طوروا من خلال ما نراه في المتحف العراقي أو في مواقع الآثار في نمرود ونينوى وخرسباد فن النحت والتجسيم بالحفر. فإلى جانب الثيران المجنحة المليئة بالكتابات والرسوم هناك اللوحات الكبيرة الضخمة التي تروي سريان المعارك أو حفلات الصيد التي كان الملوك يقومون بها. وأهمها لوحات السبي اليهودي ويقال أنها اختفت بيوم واحد قبل النهب والسلب وقد تم العثور على المكتبة الملكية لأشور بانيبال التي تضم عشرات الألوف من اللوحات والرقم التي تروي تاريخ من سبقهم وآدابهم وعلومهم وأساليب حياتهم. وما ملحمة جلجامش الشهيرة إلا واحدة من الأدبيات الأشورية التي تعيد ما كتبه السومريون في تاريخهم من طريق الملاحم والقصص والسرد الشعري. وإذا درسنا النصوص نجد فيها فكرًا متناسقًا وعميقًا يرقى إلى مستوى الفلسفة في النظرة إلى المسائل الأكثر تعقيدًا في مواجهة الإنسان وصراعه في معادلات ومتغيرات ليس من السهل الربط بينها. وفي الموسيقى يضم المتحف القيثارة السومرية التي تعد أول قيثارة بالمعنى المتطور للموسيقى، وقد صنعت بشكل فني رائع وزوقت بالذهب الخالص والنحوت ولا ننسى الآلاف من الأختام الدائرية المصنوعة من أغلى الأحجار الكريمة وشبه الكريمة والتي نحتت بأجمل الصور والكتابات. وإذا ما انتقلنا إلى العصور الوسيطة قبل الإسلام فإن أهم ما في المتحف تماثيل ملوك الأنباط كالملك سلطروق والملك نصر والموثقة بالكتابة الآرامية وغيرهم إلى جانب النماذج المعمارية الهائلة لتلك الحضارة إضافة إلى العديد من الأواني المكتوبة وغيرها من التي توثق تاريخهم وسيرتهم بالإضافة إلى الآثار الساسانية والفارسية الرائعة الجمال وبمختلف المواد كالذهب والفضة والأحجار الثمينة.

وإذا ما انتقلنا إلى العصور الإسلامية التي تزخر بما أنتجه الفن الإسلامي والمنتشر في كثير من المتاحف والمجموعات في العالم فإن أهم ما يحويه المتحف العراقي من هذه الفنون الآثار التي تختص بمرحلة (مدرسة) سامراء التي شهدت انعطافات مهمة في المعمار والفن الإسلامي. وهناك شواهد مادية رائعة من فنون الآجر والسيراميك والخشب ما يندر وجوده حاليًا. وباندثار هذه الشواهد يكون الفن الإسلامي قد فقد ركيزة تاريخية حساسة، أما المنبر الخاصكي فيعتبر أجمل وأهم منبر إسلامي في جميع مقتنيات المتاحف الإسلامية منها الخاصة والعامة الشاملة.

وإذا ما تحدثنا عن النقود الإسلامية فقد تم ضم متحف السكوتان الذي أسسته دائرة الآثار بإشراف المرحوم ناصر النقشبندي. والمجموعة العراقية تعتبر أهم مجموعة في هذا المجال فإلى جانب مجموعة المتحف المذكور يضم المتحف العراقي مجموعة عبدالله شكر العراق، ومجموعات أخرى اقتناها المتحف عن طريق الاكتشافات الأثرية والاقتناء المباشر من المواطنين عن طريق الشراء أو قبول الهدايا والتبرع. وتحتوي المجموعة المسكوكات منها عدد معين من عملة الخليفة عبدالملك بن مروان التي سُكَّت عام ٧٧ هجرية.

٢. دار المخطوطات:

وقد أسستها دائرة الآثار بإشراف الأستاذ الخبير أسامة النقشبندي والذي أمضى كل سنوات عمره في الإشراف عليه وتطويره. ونتيجة لجهوده فقد أصبح أكبر وأهم دار للمخطوطات العربية والإسلامية في العالم. فبالإضافة إلى المخطوطات التي كانت تحتفظ بها مكتبة المتحف قامت دار المخطوطات باقتناء آلاف الكتب والوثائق واللوحات المخطوطة إما عن طريق الشراء المباشر من المواطنين أو وضع مكتبات ومجموعات مهمة كمجموعات المحامي عباس الغرّاوي ومجموعات بعض علماء الدين. وقد قامت الدار بإجراء مسح عام وفق خبرتها وخبرة المشرفين عليها للمخطوطات المتوفرة في العراق.

تحتوي دار المخطوطات على عدد كبير جداً من نسخ القرآن الكريم بخط أشهر الخطاطين أمثال ابن مقلة الوزير العباسي الذي وضع قواعد خط الثلث والنسخ وابن البواب وياقوت المستعصي وحمدالله الأماسي. وهناك عدد كبير من الرقع الخطية واللوحات لعدد كبير من أشهر الخطاطين أمثال مير علي التبريزي الذي وضع قواعد خط النستعليق وعمادالدين الحسني والشيرازي وحافظ عثمان ومصطفى راقم والسلطان محمود خان وأمة در خاتم واللذان كتبا بخط الثلث البسملة وكلمة لفظ الجلالة وكل هذه المخطوطات من الكتاب الكريم ومن الرقم واللوحات مزخرفة ومذهبة ويمكن القول أن دار المخطوطات العراقية قد جمعت خطوطًا لجميع جهابذة الخط العربي بدءًا من الإمام علي بن أبي طالب، إلى هاشم القيسي البغدادي.

وتحتوي الدار على عشرات الألوف من المخطوطات الأصيلة لأنفس الكتب والموسوعات الإسلامية واليونانية لأشهر الفلاسفة والعلماء منها المحققة والمطبوعة ومنها عدد كبير لم يتم تحقيقها إلى الآن. ولم تكتف الدار بحفظ المخطوطات إنما قامت بتصويرها بالأفلام المصغرة لتكون في خدمة الباحثين والمحققين ومد يد المساعدة لهم بتحقيق أي كتاب. وكان الأستاذ النقشبندي يعطي من وقته وخبرته بشكل مطلق لدعم ومساندة أي باحث ومحقق. وقد كانت لي تجربة شخصية في هذا المضمار حيث حصلت على مخطوط كان في وقت ما من مجموعة آل المتولي في الأعظمية بعنوان «المناقب الحسان في حياة الإمام أبي حنيفة النعمان» وحينما قررت الشروع بعدما تأكدت من أهمية هذا الكتاب وما يعطيه من معلومات ومعطيات جديدة في تحقيقه راجعت الأستاذ النقشبندي شخصيًا فانبرى يهيئ لي كل ما احتاجه من مصادر أصيلة مخطوطة تتعلق بحياة الإمام الأعظم وأبدى لي كل الحماس وكأنه هو الذي يقوم بتحقيقه والبحث عنه.

كانت دار المخطوطات مفتوحة أبوابها لجميع المهتمين وتشكل واحدة من المنتديات الأدبية يؤمها الباحثون وتدور فيما بينهم المناقشات وإبداء الآراء السديدة التي تساهم فعلاً في تطوير المعرفة. وفي مناسبة أخرى قصد الأستاذ النقشبندي أثناء كتابتي لبحث فكري حول «الخط العربي. الانتيكات الإسلامية» أبدى لي من الاهتمام ما ساعدني على إكمال البحث وإلقائه في جمعية الخطاطين العراقيين ثم تم نشره في مجلة العمارة التي تصدر عن جمعية المعماريين العراقيين بإشراف الأستاذة المعمارية وجدان نعمان ماهر.

> **تحتوي دار المخطوطات على عدد كبير جداً من نسخ القرآن الكريم بخط أشهر الخطاطين أمثال ابن مقلة الوزير العباسي الذي وضع قواعد خط الثلث والنسخ وابن البواب وياقوت المستعصي وحمدالله الأماسي**

٣. دار الوثائق:

نشأت في أجواء الستينيات، وقد قامت وزارة الثقافة والإرشاد بتأسيسها بإشراف وجهود الأستاذ العلامة سالم الألوسي الذي فقدت زوجته الآثارية السيدة مهاب البكري ذراعها أثناء مهمة تنقيب في جبال تمريز في شرقي العراق. وبقيت تمارس عملها عقودًا عديدة في التنقيب والبحث بذراع واحدة حتى تقاعدها.

وقد ضمت هذه الدار ما تهيأ من جمعه من وثائق رسمية وغير رسمية منذ تأسيس العراق الحديث عام ١٨٧٠ على يد المصلح العثماني مدحت باشا. وتراكمت في هذه الدار وثائق العهد العثماني في العراق ووثائق مرحلة ما قبل الحرب الأولى والحرب نفسها ثم وثائق الاحتلال البريطاني وما تبعه من حرب الجهاد الأولى التي هيأت لها فتاوى الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وفي الكاظمية وبغداد وسامراء ووثائق مقاومة العراقيين للاحتلال. وكذلك وثائق ثورة النهضة الإسلامية عام ١٩١٨ التي قادها العلامة محمد جواد الجزائري الذي نفي مع مجموعة من العلماء الذين أقر القضاء عليها إلى جزيرة هنجام وبعد أن قامت سلطات الاحتلال بإعدام القادة المدنيين لها أمثال الشهيد كاظم صبي وشبيبة عائلة الحاج راضي المعروفة في مدينة النجف.

ومن أهم ما تحويه هذه الدار وثائق ثورة العشرين وما جرى في مكاتبات ومراسلات بين العراقيين في مدينة بغداد والنجف وكربلاء والمدن الأخرى، واشتملت على خطب وبيانات قيادة الثورة والمشتركين فيها إلى جانب وثائق الاتفاقات بين الشخصيات العراقية حول مقاومة الاحتلال وتحقيق أهداف الشعب في الاستقلال والحرية ووقائع مؤتمر كربلاء ومؤتمر الحيدرخانة في بغداد. وكذلك الوثائق التي تؤرخ لمفاوضات العراقيين مع الإنجليز وعلاقاتهم بقادة الثورة العربية سواء في الحجاز أو في سوريا ومصر والوثائق الكثيرة الأخرى المتعلقة بحكم الانتداب البريطاني ثم الاستقلال. وقد استطاعت الدار أن تحصل



فن آشورى:
نمرود ـ الملك
آشور ناصر بال (من العاج)
القرن التاسع قبل الميلاد

على جميع وثائق البلاط الملكى التى تتضمن أسرار العلاقة بين البلاط والمندوب السامى البريطانى ومراسلات وزارة المستعمرات المختصة بالعراق وأسرار تاليف الوزارات العراقية وتشكيلة البرلمانات المتلاحقة وعقد المعاهدة مع بريطانيا.

لقد كانت لدار متحفًا يوثق كل ما يتعلق بتاريخ العراق المعاصر على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والإدارية ومؤسسات الإعلام ولصحف والمؤسسات المدنية فى المجتمع العراقى. وكانت الوثائق محفوظة بشكل مرتب ومنظم ومصورة بالأفلام المصغرة بحيث يسهل على المؤلفين والباحثين وطلبة لدراسات العليا الاسترشاد بها والاستفادة منها كمصادر أولية أصيلة. وكانت فعلاً واحدة من الأسباب المباشرة لظهور لعدد الكبير من الكتب ومن أطروحات الدكتوراة ورسائل الماجستير التى كشفت جوانب كثيرة من حياة الشخصيات والأحزاب السياسية لتى برزت خلال ثمانية عقود مرت على استقلال العراق وتأسيس حكومته وأنظمته.

٤ ـ مكتبة المتحف:

أنشأتها دائرة الآثار بعد تأسيس المتحف العراقى بإشراف الباحث والمؤرخ المرحوم الأستاذ كوركيس عواد. وضمت الآلاف من الكتب المتنوعة. وكانت هذه المكتبة تستقبل من حين لآخر المكتبات الكاملة التى يتبرع بها أصحابها من الأدباء والعلماء سواء قبل وفاتهم وإثر وصيتهم لورثتهم بإهداء مكتباتهم إلى مكتبة المتحف.

تضم هذه المكتبة موسوعات متنوعة فى التاريخ والآداب والعلوم وتزخر بالكتب النادرة خصوصًا لنافدة منها. وقد استعنت شخصيًا بمصادرها أثناء كتابتى لبحوث عديدة أتذكر منها بحثًا حول «النواحى الفلسفية فى ملحمة جلجامش» وحول «طبيعة الفن الاستشراقى» و«الدور لسياسى لهذا لفن». وكذلك بحثًا عن الربط بين محلات وأحياء بغداد العباسية وبغداد المعاصرة.

وقد كانت هذه المكتبة فى مراحل عديدة ندوة لكبار المؤرخين العراقيين يؤمونها ويجتمعون فيها. وطالما دارت حوارات عديدة فيها. ونتذكر من هؤلاء المؤرخين العلامة الكبير المؤرخ المرحوم الدكتور مصطفى جواد الذى أصدر كتبًا عديدة أهمها «دليل خارطة بغداد» الذى كتبه بالاشتراك مع العلامة المرحوم الدكتور أحمد سوسة وكذلك الأستاذ المحامى عباس العزاوى الذى كتب «تاريخ العراق بين احتلالين» بأجزائه الثمانية، وكتاب «القبائل العراقية» وكتاب «النقود الإسلامية» وهذه الكتب الثلاثة تعتبر فى الحقيقة موسوعات مهمة فى مواضيعها المطروحة. ولا ننسى منهم العلامة محمد بهجت الأثرى والأب يوسف غنيمة الذى ألف الكتاب الأصيل والمهم الموسوم بـ «نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق». وقد التقيت شخصيًا فى هذه المكتبة فى فترة المرحلة الأولى من بدء اهتمامى وبحثى بالأستاذ مصطفى جواد وكنت حينها أبحث عن هوية قبر وجدته فى إحدى غرف وزارة المعارف القديمة على نهر دجلة، وكان هذا القبر فى غرفة منعزلة ومغطى بغطاء أخضر اللون. فسألته إن كان يرشدنى على صاحب هذا القبر ـ فكان جوابه السريع الفورى بمثابة محاضرة قيمة غيّرت فى نتائجها بعض القناعات السائدة حينئذ عن قبور ومدافن شخصيات إسلامية. حيث يعتقد ـ رحمه الله ـ أن القبر هو للشيخ عمر السهروردى والمعروف قبره فى مكان آخر يبعد عنه فى شرقى بغداد داخل مسجد كبير يعرف باسمه. والعلامة مصطفى جواد هو الذى وجد أن المنارة المخروطية الاملجنانية المقامة على قبر السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد فى غربى بغداد أن القبر والمنارة لا يعودان إلى السيدة زمردة خاتون وأن قبر السيدة زبيدة الرشيد يقع فى مكان آخر من بغداد حيث إنها دفنت إلى جوار الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق فى مقبرة قريش والتى تطورت وتسمى حاليًا بمدينة الفاطمية، وقبر السيدة زبيدة فى الحقيقة يقع حاليًا ضمن الجامع الصفوى الكبير الذى أسسه إسماعيل باشا الصفوى أثناء احتلاله لبغداد. وقد قام المرحوم الأستاذ مصطفى جواد بتثبيت وتوثيق الأمكنة الحالية لقبور الإمامين الكاظم والجواد. والإمام أبى يوسف (القاضى) والإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت وغيرها من قبور العلماء والأئمة كمعروف الكرخى ومنصور الحلاج والشيخ عبدالقادر الكيلانى والشيخ جنيد البغدادى والوكلاء الأربعة للإمام المهدى.

وقد سألته يومًا ما فى مكتبة المتحف عن قبر الإمام أحمد بن حنبل الذى مات ودفن فى بغداد وليس له قبر معروف، فأجابنى بأنه يقع فى وسط نهر دجلة حيث إن تغيير اتجاه المياه قد التهم مكان دفنه فى الجزء الواقع بين الكاظمية والأعظمية أى أن قبره يتوسط قبور الكاظمية من جهة والإمام أبى حنيفة.

تلك هى أهم الذكريات لى فى مكتبة المتحف وليس لى إلا أن أدعو بالرحمة على أرواح هؤلاء المؤرخين ولباحثين. وأرى روح

المرحوم كوركيس عواد ترفرف وتحوم حول الأيادي للجرمة التي عبثت وأضرمت النار فيها.

٥ـ المكتبة الوطنية:

كانت تسمى سبقًا بالمكتبة لعامة التي تقع في منطقة باب المعظم وتشغل منذ تلسيسها في الثلاثينيات مبنى جميلا من الأجر تغطيه قبة كبيرة أشبه بقبة جامعة القاهرة. وقد تناولتها أعمال الهدم ولتخريب العمراني عام ١٩٦٠ لتأخذ مكانًا متواضعًا في شارع الزهاوي شملي بغداد إلى أن انتهت بنايتها الجديدة اللائقة بها في باب المعظم مقابل القلعة القيمة التي شغلتها وزارة الدفاع.

كانت هذه المكتبة هي المكان الأكثر ارتيادًا من قِبَلنا حين كنا طلابًا في للدارس الثانوية ثم في الجامعة حيث كانت مكان دراستنا اليومي ناخذ من كتبها نراجع فيها ونبحث فيها ونسلمها بعد نهاية ليوم. وكان المرحوم الأستاذ مكي السيد جاسم والمرحوم للؤرخ عبدالحميد لعلوجي المشرفين عليها. يستقبلون الرواد لا بابتسامتهما الدائمة فقط بل بروح المساعدة والدعم. وقد قضى الأديب الكبير مكي السيد جاسم كل حياته في خدمة هذه المكتبة ولبحث في كتبها. كان يعتبر كل كتاب من كتبها التي لا تحصى وكأنه ولد من أولاده. وللأديب المذكور مجلس أدبي يعقده في بيته مرة كل أسبوع، وأصبح واحدًا من أهم المجالس لبغدادية، يلتقي فيه كبار الأدباء والمؤرخين ولعلماء والفنانين، وكان -رحمه الله- يعيش وهو في مجلسه حياة المكتبة الوطنية فكان يتحدث عنها وعن أهم ما اقتنته من كتب ومجموعات.

وأمام بناية المكتبة تم وضع نصب كبير من النحاس الأحمر لشاعر لعراق ولعرب على مر لعصور أبي لطيب للتنبي الخالد الذكر وقد صنعته ونحتته أنامل الفنان الكبير محمد غني حكمت. لكن هذا التمثال رُفع أخيرًا من مكانه ليُنصب أمام لبناية الجديدة لنادي الضباط في مدخل حي الأعظمية في شملي بغداد.

لقد أدت هذه المكتبة دورًا رئيسيًا في البناء الثقافي المعاصر، وساهمت بعمق في خلق كثير من الشخصيات الأدبية والفكرية المعروفة فهي تقع في قلب بغداد في شارع الرشيد (جادة خليل باشا) ولم تكن بعيدة خِلال عقود عديدة عن أهم الكليات. فكانت بنايتها تقع أمام كليتي الطب والصيدلة وتقع خلفها كلية الآداب والعلوم وكلية الهندسة وكلية التربية (دار المعلمين العالية) وكلية التجارة والاقتصاد وكلية الهندسة. وليست كلية الحقوق ببعيدة عنها. ويقع على بُعد خطوات منها شارع المتنبي وسوق السراي اللذان ينتشر على جانبيهما المكتبات ودور النشر وتحرير الصحف، لذا فقد كنا ونحن شباب صغار نرى كل يوم واحدا من عمالقة الشعر والأدب والعلوم لنتعرف على وجوههم ولو من بعيد ثم نتباهى مع عوائلنا حين نقفل راجعين إلى البيت أن رأينا اليوم الجواهري، ويومًا آخر تعرفنا على بدر شاكر السياب، وبلند الحيدري.. ولا أنسى ما غمرت أرواحنا من سعادة وابتهاج حين رأينا نازك الملائكة وهي جالسة تطالع في بهو المكتبة وأصابعنا تشير في نفس الوقت إلى سليمان العيسى ولمسية عباس عمارة وعبدالوهاب البياتي وهم يستعيرون الكتب والمجلات، أو نرى حافظ جميل يخرج متابطًا أحد الكتب وخلفه يسير عبدالكريم العلاف وهو في حوار مع الشيخ جلال الحنيقي لا نعرف كنهه وفحواه ربما عن آلة العود أو ربما حول الفارابي وما كتبه من أنغام موسيقية. ذاك هو دور المكتبة الوطنية. إنها سجل لأعلام العراق وأرشيف كان حيًا لأسماء تخلدها حركة الفكر والنور الإنسانيين.

٦ـ المكتبة المركزية:

وقد أقامتها جامعة بغداد بإشراف الأستاذ لدكتور أحمد البسام بمعاونة الأستاذ عدنان الدوري للعروف بميوله القومية ولوطنية والذي ترك السلك الدبلوماسي ليكرس نفسه لخدمة وتطوير هذه للؤسسة الثقافية التربوية. وتضم هذه للكتبة الألوف من الكتب والمصادر لتي يحتاجها طلاب وأساتذة جامعة بغداد والجامعات الأخرى، كالجامعة للستنصرية وجامعة التكنولوجيا فيها من للصادر العديدة ولثمينة التي لا يستطيع لطلاب أو الأساتذة توفيرها بسبب أثمانها لعلية وبمختلف العلوم. فكانت توفر الاحتياجات الأكاديمية لطلاب وأساتذة جميع الكليات الطبية منها والعلمية والاقتصادية والإنسانية. وفي نفس الوقت كانت تساعد الأساتذة في استيراد الكتب والموسوعات بأثمانها الأصلية وتستوفي مبالغها بأقساط بسيطة، فكان الأساتذة يزودون مكتباتهم الشخصية بما يستجد من إصدارات في مجال اختصاصاتهم وفيما يتعدى ذلك إلى مواضيع عامة.

وطيلة عمري التدريسي في جامعة بغداد كنت أرتادها بشكل يومي مبرمج وأحيانًا أقود حلقات من الطلاب للتجمع فيها حول بحث من البحوث، وكنت كبقية الأساتذة الآخرين يعطي للطلبة المصادر الموجودة فيها بهدف تشجيعهم على ارتيادها. وكانت هذه المكتبة الملجأ الدائم لطلبة الدراسات العليا جميعًا، ففي أروقتها كانوا يمارسون البحث ويفتشون عن المصادر ويقومون بتحرير أطروحاتهم ورسالاتهم. وتضم المكتبة في رفوفها نسخًا من تلك الأطروحات حيث كانت شروط مناقشتها تلزم الطلبة بإيداع نسخة من الأطروحة أو الرسالة حتى قبل مناقشتها إلى هذه المكتبة.

وقد استطعت شخصيًا أن أحقق حلمًا من خلالها طالما تمنيته وهو أن أتمكن من اقتناء نسخة من موسوعة «البيرتانيكا» الإنجليزية وأخرى من موسوعة «اللاروس» الفرنسية. وقد استوردتهما لحسابي ودفعت ثمنهما بأقساط شهرية بسيطة على مدى سنتين ونصف.

٧ـ مركز صدام للفنون:

تأسس كاستمرار وتوسيع للمتحف الوطني للفن الحديث. ويقوم هذا المركز في بناء حديث جميل وضخم في قلب الجانب الغربي في بغداد (الكرخ القديمة) ليس بعيدًا عن دار المخطوطات ودار الوثائق. وقد ألحق به متحف الفنانين الرواد ونقلت جميع أعمال ولوحات هؤلاء الفنانين إليه. ويضم هذا الصرح المهم في قاعاته الكبيرة وفي مخازنه الآلاف من الأعمال الرائعة لكل الفنانين العراقيين المعروفين منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم. فنجد فيه لوحات عبد القادر الرسام الذي بدأت لوحاته تعرف منذ ذلك التاريخ وتقتنى لحد هذا اليوم، فهناك بعض الرسوم مؤرخة في عام ١٣٠٠ هجرية أي في عام ١٨٨١ ميلادية ولوحات عاصم حافظ والحاج سليم أبو الفنانين جواد سليم وسعاد سليم ونزار سليم ونزيهة سليم ولوحات محمود سامي والد الفنان الكبير عطا صبري ولوحات الفنانين أكرم شكري وقاسم ناجي وفرج عبود وصالح زكي وغيرهم إلى جانب لوحات فنان العراق الكبير ومنحوتاته جواد سليم والفنان ذي الشهرة العالمية فايق حسن وحافظ الدروبي والفنان الموصلي الكبير نجيب لويس آل شريف بك وعميد الفنانين إسماعيل الشيخلي والدكتور خالد الجاد وزير صالح ونوري الراوي بالإضافة إلى لوحات مديحة عمر وسعاد العطار وليلى العطار التي قتلها صاروخ أمريكي عام ١٩٩٦. ويزخر المتحف بأعمال فنانين كبار ومتعددين أعطوا في فن النحت كل قدراتهم وعواطفهم فهناك خالد الرحال ومحمد غني وإسماعيل مفتاح ونداء كاظم والدكتور علاء بشير وبران السعدي وهيثم حسن وغيرهم.

أما الفنانون المعاصرون فإن لوحاتهم وأعمالهم يزخر بها المركز وتلمع من خلالها أسماء سعدي الكعبي وراكان دبدوب ورافع الناصري، وعلمي طالب وضياء العزاوي ومحمود صبري والمرحوم ارواش وصلاح جياد وماهود أحمد ومحمد مهر الدين ومخلد المختار وموريس حداد وغيرهم الكثيرون بالإضافة إلى أعمال الشباب المبدعين وإلى جانب ذلك نجد أعمال الخزافين المختلفة والذين هم ورثة خزافي بابل وآشور وسامراء وبغداد، منهم من مات ومنهم من لايزال يمد ساحة الفن بالطين والألوان والتشكيل، يذكر منهم سهام السعودي وسعد شاكر وماهر السامرائي وعبلة العزاوي وغازي السعودي وآخرون وآخرون.

يقوم المركز إلى كونه متحفًا ومعرضًا للأعمال القديمة والحديثة المختلفة برعاية الفن التشكيلي وحركته في العراق وهو المسؤول عن تنظيم أمور الفنانين التشكيليين وينظم في الوقت ذاته محاضرات ومؤتمرات وندوات مستمرة ومعارض داخل العراق وخارجه إلى جانب نشاطاته الأخرى في إقامة دورات تعليم وتطوير الفن التشكيلي.

ومن أهم أعمال الرعاية التي يقوم بها المركز توثيق أعمال الفنانين المتوفين من قبل لجنة خاصة حفاظًا على أصالة الفن التشكيلي ومنعًا للتزوير والتزييف

أمام بناية المكتبة تم وضع نصب كبير من النحاس الأحمر لشاعر العراق والعرب على مر العصور أبي الطيب المتنبي الخالد الذكر وقد صنعته ونحتته أنامل الفنان الكبير محمد غني حكمت

فن أكدى من نينوى:
رأس سرجون. برونز
٢٠٠٠ قبل الميلاد



اللذين تتعرض لهما أعمال الرواد ولطالما اكتشف مثل هذه المحاولات وقام بفضحها وتعرية القائمين بها مما يجعل ساحة الفن التشكيلى فى العراق ساحة نقية ومبدعة.

إن هذا التدمير الجنونى الهمجى قد تم بتدبير مبرمج وبشكل منظم له أهدافه ومعاييره. وخلال كتابتى هذا الموضوع ظهرت مواقف وآراء وتعليقات فى أماكن عدة من المعارك تؤكد على حقيقة أن ما جرى هو مؤامرة. أمريكية - بريطانية - إسرائيلية. وأهم ما يؤكد ذلك استقالة المسؤول الثقافى فى إدارة اللجنة الاستشارية الثقافية فى تلك الإدارة موضحين أسباب هذه الاستقالة بأنها جاءت أولاً: كاحتجاج على ما جرى فى المتاحف العراقية والمعاهد الثقافية وثانيًا: تأكيدًا على إدانة حكومة الولايات المتحدة لقيامها بهذا العمل الإجرامى. وثالثًا: تنصلها من تحمل المسؤولية التاريخية أمام الضمير الإنسانى الذى احتجت كل مفاصله ضد تدمير البنية الثقافية للعراق. وجاء بعد ذلك تصريح البيت الأبيض بأن نهب المتحف العراقى هو أمر مؤسف. وهذا التصريح يعتبر اللغة الدبلوماسية اعترافًا صريحًا بأن حكومة الولايات المتحدة هى التى كانت وراء تلك العملية. ثم ما صرح به الخبير الأمريكى الذى لم يعلن عن اسمه من أن «عصابات منظمة قامت بسلب وحرق المتاحف فى العراق وأن القوات الأمريكية سهلت لها ذلك». إلى جانب ذلك فقد بنى خبراء اليونسكو فى اجتماعهم الخاص بمسألة تدمير البنية الثقافية من أنهم ومنظمتهم قاموا قبيل الحرب بتنبيه حكومة الولايات المتحدة بضرورة حماية المتاحف والممتلكات الثقافية فى العراق إذا ما شنت الحرب. وفى حديث لإحدى الإذاعات المهمة فى فرنسا مع الأستاذ المؤرخ الدكتور شهاب الصراف بين أن خبراء الآثار الأمريكان فى شيكاغو قد أجابوا على طلب للولايات المتحدة أن ضرب العراق يؤدى إلى إلحاق الضرر بالآثار والمتاحف وأنهم يخشون من أن الجيش الغازى لا يوفر الحماية لها.

كل ذلك يؤكد أن تدمير البنية التحتية الثقافية للعراق قد خطط له بشكل منظم وأن جيش الاحتلال قد استعمل العصابات الإجرامية المنظمة لتنفيذ المخطط بشكل يخدم الأهداف المستوحاة فى ذلك لا يخلو من العنف والهمجية وبقساوة يهتز لها الضمير الإنسانى وأعطى تنبيها لكل الشعوب بأن تأخذ اليقظة والحذر من المخططات المشبوهة التى تستهدف تدمير البنى الثقافية بهدف تحقيق السيطرة الكاملة بعد تغيير الأنماط السلوكية الثقافية لتلك الشعوب بما يتناسب ومصالح الولايات المتحدة وشركائها. ■

شاهد عيان:

«حرب تحرير» أم «حرب تدمير»؟!

روبـــــرت فـيـسك

تناثرت أشلاء الآثار على الأرض؛ وتفتّتت - بل قل تمزقت - إلى آلاف القطع المبتورة المشوهة. تلك الآثار، التى لا تُقدر بثمن: تلك الآثار التى أنتجها عبق التاريخ العراقى وأفرزتها أصالة الحضارة العراقية. ذهبت أدراج الرياح فى ثوان معدودة على يد عصابة من الناهبين السارقين، الذين انتقلوا - بدون وعى أو تفكير - من رف إلى رف، ضاربين بالتماثيل والأباريق عرض الحائط؛ غير عابئين بكونها عصارة جهد، تعبت فيه أجناس متعددة: من الآشوريين إلى البابليين إلى السومريين إلى الفارسيين إلى اليونانيين.

وإذا بأقدامنا - فى وسط هذه المأساة - تدوس على حطام التماثيل والأباريق الحجرية، والقواعد الرخامية التى صمدت خمسة آلاف سنة، متحدية كل حصار وكل احتلال فُرض على بغداد بالقوة؛ صمدت طيلة هذه القرون لتلقى مصيرها - أو حتفها - فى النهاية بعد دخول «المحررين» الأمريكيين، الذين أتوا بهدف «تحرير» بغداد. هل فعلها العراقيون؛ فقاموا وهبوا لطمس معالم تاريخهم، وتحطيم دلائل حضارتهم صاحبة الخمسة آلاف سنة؟

هذا التخريب للآثار - الذى حدث بشكل سخيف لا مبرر له وبشكل منظم لا مثيل له - لم نر مثله من قبل: اللهم إلا فى أفغانستان، حينما اعتدت طالبان على الآثار البوذية فى متحف كابول. بل، إننا - ربما - لم نشهد مثل هذا التخريب منذ الحرب العالمية الثانية فى منتصف القرن الماضى.

«هذا ما فعلوه فى تاريخنا»..قالها لنا رجل عراقى فى منطقة الرمادى؛ قالها لنا فى أثناء تجوالنا بين أكوام الأباريق السومرية والتماثيل اليونانية، التى كانت تُعد من «التحف» النادرة، وأضحت الآن من «العجائب» التى لا رأس لها ولا ذراع. وأكمل قائلاً - ونحن مازلنا نمسك بمشاعلنا فى حجرة المخزن بالمتحف الوطنى العراقى - «نحن فى حاجة إلى الجنود الأمريكيين لحراسة ما خلفوه وراءهم. نريد رجال الأمن». لم يكن هذا الرجل - ذو المعطف الرمادى واسمه بالمناسبة عبد الستار عبد الجابر - سوى حارس المتحف، الذى شاهد، بأم عينيه، المعارك المسلحة التى اندلعت بين الناهبين وبين السكان المدنيين. أما خارج المتحف، فكانت طلقات الرصاص تتطاير من فوق رءوسنا، لتسقط على حوائط المنازل المجاورة. وفى غمار كل هذا، إذا بالحارس يلتقط جزءاً نادراً من آنية فخارية ضخمة - «كانت» تعلو حوالى قدمين أو أكثر - فأضحت بعد تهشيمها بقايا محطمة. «انظروا إلى هذه..إنها آشورية». قالها الحارس فى حسرة؛ يتحسر على «بقايا» الآشوريين، الذين حكموا العراق طيلة قرنين من الزمان، قبل قدوم المسيح عليه السلام.

والآن..لنلتفت إلى الأمريكيين - الذين جاءوا «لتحرير» بغداد - لنسألهم: ماذا فعلتم حيال كل هذا؟ ألستم أنتم حكام بغداد الجدد؟ إذن..فأين كان دوركم من كل هذا الخراب الذى حدث؟ لماذا سمحتم لهذا الحشد الغوغائى باختراق واقتحام هذا الميراث الفريد، الذى لا يُقدر بمال..ميراث بلاد الرافدين؟ والغريب أن تتم كل هذه الكوارث الفادحة، فى الوقت الذى يقوم فيه وزير الدفاع الأمريكى - دونالد رامسفيلد - موجهاً سخريته إلى الإعلام، لأنه «زعم» بأن الفوضى قد اندلعت فى بغداد.

لقد سمح الأمريكيون «بغزو» ذلك المتحف، الذى جُمعت تحفه وعجائبه على مدى قرنين من الزمان؛ جُمعت من قصور وأبراج وقبور عمرها ٣٠٠٠ سنة، على يد علماء الآثار، سواء كانوا عراقيين أو غربيين. أولئك العلماء الذين خلفوا من ورائهم عشرات آلاف الملفات المفهرسة، التى عكفوا عليها ليكتبوها بأيديهم.. فى القرن التاسع عشر. فخرجت لنا هذه الملفات - صاحبة الخطوط الرشيقة القديمة - وهى «باكية»..«متألمة».. مبعثرة وسط ركام الخراب، لتلقى نفس مصير «رفقائها» من التماثيل والأباريق. وفى غمرة هذا السكون الحزين، قمت لألتقط قطعة صغيرة، كانت طلقة على الأرض، لأقرأ عليها عبارة مكتوبة بالقلم الرصاص، تقول: «نهاية القرن الثانى، رقم ١٦٨٠»

لقد استخدم الحشد الغوغائى الفناء الخارجى ليتسللوا إلى المخزن لقد حطموا الأبواب المصنوعة من الصلب الثقيل؛ وحملوا المقتنيات الأثرية إلى السيارات والشاحنات؛ ورحلوا قبل قدومى إلى «مسرح الجريمة» بساعات قليلة. حينما سألت الحارس، صاحب المعطف الرمادى، عن عدد المقتنيات المسروقة، أجابنى بأنه لا يعلم حقيقة عدد المسروقات. لا أحد يعلم ماذا حدث لبقايا الآثار الآشورية التى كانت موجودة فى القصر الملكى بـ«خرس أباد»؛ ولا أحد يعلم ماذا حدث للأقراط الذهبية التى دُفنت مع جثث الأميرات السومريات منذ ٤٥٠٠ عام. أما الكارثة الكبرى، فقد تمثلت فى هدم صندوق زجاجى، كان يحتوى على حجر، عمره أربعون ألف سنة. والكارثة الأكبر تتمثل فى كيفية تصنيف الأشلاء التى تركها السارقون من ورائهم..من أحجار مهشمة، إلى مجوهرات متلألئة، إلى أباريق محطمة. هذا التصنيف سيأخذ سنوات، بل سيأخذ عقوداً، ليتم إدراج الآثار من جديد.

لقد انقطع عن بغداد كل شىء: الماء، الكهرباء، القانون، النظام. أما نحن، فظللنا ماكثين فى ظلمات البدروم بالمتحف، واقفين بين الأشلاء المبعثرة. وبينما نحن واقفون، مددت بصرى نحو ركن البدروم، فإذا بى أجد رفاً مكتوبا عليه «جميع المقتنيات المرصوصة تعود إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد». ومع كل أسف، حتى هذه المقتنيات النادرة لم ترحمها أيدى السارقين.

أما ما شهدته مكتبة المتحف..فهو لم يكن بالفظاعة التى شهدتها التماثيل والتحف والأباريق. فالسارقون لا يبالون كثيراً بالكتب. ومن ثم، كان عدد الكتب المسروقة - والتى كانت تتناول الأعمال الأثرية فى منتصف القرن التاسع عشر - ضئيلاً جداً بالنسبة للمسروقات «الثمينة» الأخرى. فرأيت العدد الكامل «للدورية الجغرافية» من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩٣٦؛ وبجانبها وجدت كتاباً مغلقاً، يحمل

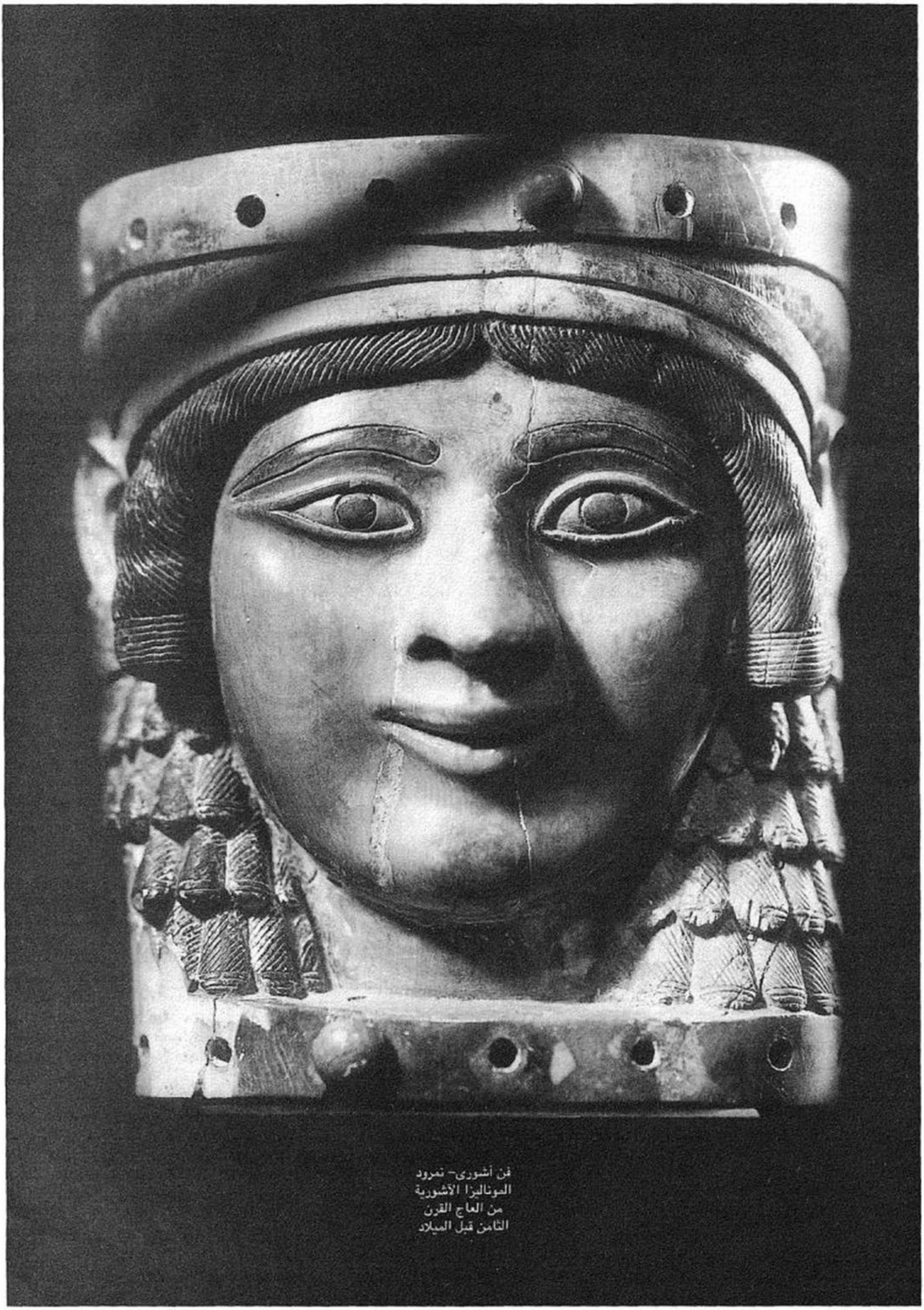


فن سومرى. مارى خاتم أسطوانى وطبعته التى يظهر عليها نقش تصويرى لمعركة

لقد سمح الأمريكيون «بغزو» ذلك المتحف، الذى جُمعت تحفه وعجائبه على مدى قرنين من الزمان؛ جُمعت من قصور وأبراج وقبور عمرها ٣٠٠٠ سنة

The Independent

ترجمة: شيرين حامد فهمى



فن أشوري– نمرود
الموناليزا الآشورية
من العاج القرن
الثامن قبل الميلاد

عنوان «بغداد: مدينة السلام». وبالرغم من ذلك، اعتدى الناهبون على بطاقات الفهرسة، فنزعوها من صناديقها، وألقوا بها فى آبار السلالم والدرابزينات.

لقد لعب علماء الآثار الغربيون - البريطانيون والفرنسيون والألمان - دوراً رائداً فى اكتشاف أجود وأنفس الآثار العراقية. فها هى البريطانية «المستعربة» والمخططة الدبلوماسية «Getrude Bell» التى كانت تسمى «أميرة العراق غير المتوجة»، والتى يقع قبرها على مقربة من المتحف - والتى كانت تُظهر حماسة غير عادية فى تلك الاكتشافات. وها هم الألمان، الذين قاموا ببناء المتحف الحديث على ضفاف نهر دجلة: وقاموا بإعادة فتحه فى عام ٢٠٠٠، بعد أن كان مغلقاً طيلة تسعة أعوام بعد حرب الخليج فى عام ١٩٩١.

ومنذ أسابيع قليلة - وقبل الحدث المؤسف - صرح «جابر خليل إبراهيم»، رئيس مجلس الدولة العراقى للآثار، بأن محتويات المتحف تمثل «ميراث الوطن العراقى». «إذ أنها ليست فقط للمتعة والتسلية والرؤية: وإنما هى تمثل عظمة العراق». أما الآن، فقد اختفى الأستاذ إبراهيم: مثله مثل الكثير من موظفى الحكومة فى بغداد. ولم يعد هناك سوى عبد الجبار - صاحب المعطف الرمادى - الذى يقف حلياً ليحمى ما تبقى من تاريخ بلاده، بصحبة زملائه، وبصحبة بنادق الكلاشينكوف. ويقول عبد الجبار: «نحن لا نريد امتلاك لسلاح: ولكن كل فرد منا يتحتم عليه الآن امتلاك السلاح». «لابد أن نحمى تفسنا لأن الأمريكيين هم الذين سمحوا بتفجر تلك الأوضاع. لقد قاموا بحرب ضد رجل واحد، فلماذا يتركوننا إذن فريسة لهذه الحرب ولهؤلاء المجرمين؟»

وبعد نصف ساعة، قمت بالاتصال بوحدة الشئون الإدارية التابعة للبحرية الأمريكية فى شارع سعدون، لأعطى لهم عنوان المتحف، واصفاً لهم الحالة المخزية التى آل إليها. فجاءنى الرد التلى: «إننا سنتصل فى الغالب إلى هناك». للأسف.. لم يأتوا. وعندما أتوا أخيرا كان الوقت متأخرا جدا: بعد فوات الأوان.. جاءوا بعد أن تبدد التاريخ الحضارى على يد عصابة من السارقين والمغتصبين الذين تركهم الأمريكيون يعيثون فى الأرض: فاطلقوا أيديهم على بغداد، باسم «التحرير».

ولا غرابة بعد ذلك، أن تلقانى سيدة عراقية وتصرخ فى وجه قائلة: «أنت أمريكانى! ارجع إلى بلدك. اخرج من هنا. نحن لا نقبلك فى بلادنا. نحن كنا نكره صدام، والآن نحن نكره بوش لأنه دمر مدينتنا». لقد صبت على جام غضبها، معتقدة - خطأ - أنى أمريكى الجنسية. لقد صبت جام غضبها، بدون أن ترى المتحف الذى دُمر وسلب، فأضاع ميراث بلادها، كما أضاع ميراث مدينتها. فماذا لو رأت المتحف على صورته الحالية؟؟ ■

آتٍ من الماضى.. ذاهب باتجاه المستقبل

بين جناحى ثور عظيم!

نصير شمه

■■ لم يخطر ببال أحد أن الحرب على العراق ستكون عدوانا مدمرا تبدأ بالإنسان، مرورا باجتثاث جذر حضارته وآثاره وثقافته وهويته، وكذلك حاضره ومستقبله.

قد أصبح جليا الآن أن للعدوان أهدافا غير البترول بعد أن تأمنت السيطرة عليه، فورا اتجهت الآلة المدمرة للعبث بأصل الانسان الذى أبدع وابتكر واكتشف وعلم.

دمروه بحاضره، وعبثوا بتاريخه عبر السرقة والحرق.

لم يحصل فى أى حرب أو عدوان أو احتلال أن دمرت مدينة أو منطقة تدميرا شاملا كما حدث للعراق، هذا الوطن الذى كان أرضا لحضارات كثيرة متعاقبة وعرف بأن فيه إبتدأت الأبجدية والعلوم والثقافة والشعر والفلك والطب والرياضيات والموسيقى وأشياء أخرى كثيرة أهمها الفيزياء والكيمياء والهندسة، علما بأن هذه العلوم كانت متاحة للجميع، لكن لا ينبغى لنا أن نفخر بهذا التاريخ وأن نعتز به، إذا كانت أمريكا تمتلك عقدة فى هذا المجال كونها خليطا هجينا ليس له جذور حقيقية ولا يمتد تاريخه إلى أكثر من خمسة عقود معظمها الحديث عنه غير مشرف، فقد تاسست أمريكا على جماجم الهنود الحمر الذين أستبيحت دماؤهم ونساؤهم وأرضهم، وهذا تقليد يتوارثه الأمريكان.

بعد مرور بضعة أيام على وقف إطلاق النار فى حرب الخليج الثانية قررت أن أقدم أول حفل، كانت الدماء لاتزال ساخنة تنزف من عروق وشرايين الشعب العراقى، وأردت لهذا الحفل أن يكون داخل الصالة الآشورية فى المتحف العراقى وكان عنوان الحفل (آتٍ من الماضى، ذاهب إلى المستقبل) لم يكنْ هذا العنوان مجرد شعار، بل إننى أردت أن أقول من خلاله أن الحاضر ليس دائما كما نتمنى، وحينما اخترت مكانى بين اثنين من الثيران المجنحة العملاقة التى يزن الواحد منها سبعة وثلاثين طنا من الحجر الصلب وهو عبارة عن قطعة واحدة، وخلفى الإله الآشورى نابو الذى يتجاوز طوله اثنى عشر مترا، وعلى اليمين واليسار ألواح عظيمة من الحجر تصف وتقف شاهدا على الحضارة الآشورية العظيمة فى العراق.

كنتُ قلت للحضور يومها، نحن سلالة هؤلاء الذين يستضيفوننا اليوم، والذين أبدعوا هذه الفنون التى سبقت مايكل أنجلو فى استخدام الحركة فى النحت وفى التفاصيل شديدة الدقة، خاطبت الجمهور شارحا: من هنا يجب أن نبدأ من دون أن نلتفت إلى الأطلال التى خلفتها الحرب، كنت كمن يريد أن يطمئن نفسه على إرثه الذى يعشقه وعلى مستقبله الذى يريد أن يسهم به بقوة، وفى الوقت نفسه كنت أريد أن أشير إلى عراقة شعبنا العراقى بعد أن طوقته كل دول العالم الشقيقة والصديقة والعدوة فى حرب لم يشهد التاريخ مثيلا لها من قبل، خصوصا أن إيمان الشعب بنفسه وبتاريخه وبعروبته وبانتمائه بكل الثوابت كان قد اهتز. من هنا جاءت أهمية هذا الحفل الذى أعاد الحياة الثقافية إلى بغداد بعد أيام من وقف إطلاق النار.

لم يكن ليخطر ببالى أن هذا المكان الذى يحتضن بين جدرانه تاريخا متسلسلا لتطور البشرية فى أغلب مجالات الحياة يدمر أو يسرق بمنهجية مدروسة ومخطط لها مسبقا، فقد وقفت الدبابات الأمريكية تطوق المتحف الوطنى العراقى وأطلقت طلقتها الأولى باتجاه بوابة المتحف لتدمرها ثم لتنقل الأعمال التى تمثل حضارات أور وسومر وآشور وأكد والحضر وبابل، وبعد ذلك الآثار الإسلامية إلى أماكن لا نعرفها وقد لا نفاجأ بوجودها قريبا فى إحدى ولايات أمريكا، ومن ثم سمحوا لأناس لا نعرفهم ولا نعرف سحنهم ولا إلى أى بلد ينتمون حقيقة ليهشموا زجاج وباقى الأوانى التى بالتأكيد لا يمكن لأمريكى معرفة قيمتها لتبدو وكأنها حالة فوضى ونهب يمارسها أبناء الشعب العراقى.

هنا أريد أن أذكر شيئا وهو أن الشعب العراقى غالبيته القصوى متعلمة، وفى المدارس كانوا يصطحبوننا إلى زيارة هذه الآثار والمواقع والمتاحف وكنا نخرج ومعنا كمية أحلام لها



فن آشوري: خرصاباء
ثور مجنح برأس بشري. من
المرمر الجبسي. القرن الثامن
قبل الميلاد

بداية وليس لها نهاية عما كان يروى لنا بخصوص الملوك والحضارات التى قامت فى بلاد ما بين النهرين، فهل يعقل أن يقوم عراقى عادى بتهشيم وتدمير وسرقة حضارة بلاده وتاريخه العريق.

أما ما يتعلق بدار الوثائق ومكتبة الأوقاف والمكتبة الوطنية العامة ومركز الفنون فهذه أماكن نرتادها بشكل متواصل ونعلم أن العراقيين هم الذين أودعوها فى هذه الأماكن كى تحفظ، وفى كل يوم كنا نقرأ عن أحد كبار المثقفين وقد تبرع بعدد من المخطوطات النادرة حتى أصبح هناك خزين نادر جدا من المخطوطات، وهناك نسخ نادرة من القرآن الكريم خطها ابن البواب وأخرى لياقوت وحمدالله الأماسى والتبريزى وابن مقلة، بالإضافة إلى نسخة نادرة من القرآن خطت باصابع الإمام على بن أبى طالب (رضى الله عنه) بين طيات هذه المخطوطات أجمل فنون الخط العربى وزخارفه إضافة إلى كتب العلم والطب والفلك وصنوف الإبداع والعلوم الأخرى بخط مبدعيها مثل الكندى والفارابى والأرموى وابن سينا وكل من سمعنا أو قرانا عنه فى الحضارات التى سبقت الإسلام ثم فجر الإسلام وما تلاه.

أما لوحات الفنانين الرواد فقد قدمت جزءا بسيطا منها فى مركز الفنون بدار الأوبرا المصرية فى مطلع عام ٢٠٠٣، وقد تناولها النقاد المصريون باحتفاء كبير. هل أقول الآن أن هذه اللوحات والأعمال الفنية الرائعة التى حملت توقيعات جواد سليم وفائق حسن وشاكر حسن آل سعيد ومحمد غنى حكمت وسعدى الكعبى وضياء العزاوى ورافع الناصرى ونورى الراوى ومحمد مهر الدين وعلاء بشير وعلى طالب وسالم الدباغ، وأعمال الشباب كلها حرقت، هل فعل هذا هولاكو يا ترى أم أنها رؤية دانيال الذى أوصى بـ إنشاء دولة إسرائيل وصب اللعنة على أهل بابل.

طوفان جلجامش

عندما قلت هذه الجملة كنت أعلم حق العلم أن الشعب الذى يعايش تاريخا عريقا لا بد أن ينسج مستقبلا مهمّا، وأن الإنسان الذى يمتلك جذورا قوية سيظل موصولا بها عكس الذى ينبت هشا على سطح الماء من دون جذور حتى وإن نجحت تجربة عديم الجذور مؤقتا.

هذه الفكرة هى الاستراتيجية التى هيمنت على هذه الحرب، فهذه الحرب تحمل بجدارة عنوان الحرب / النفط / التاريخ.

أى الحرب على الماضى ممثلا بالتاريخ، والحاضر ممثلا بالإنسان والعمران والمستقبل الذى يمكن أن نقول أن النفط يسهم إسهاما كبيرا بصناعته لكن ليس وحده.

اترى هل أن سرجون الأكدى (٢٣٩٠ ق.م) وزيمرى-ليم المارى (١٨٥٠ ق.م) وأدد - نيرارى الآشورى (١٢٢٠ ق.م) ونبوخذ نصر الأول (١١٢٠ ق.م) ملوك الفتوحات الذين أسسوا بين دجلة والفرات مملكات وإمبراطوريات حكمت الجهات الأربع فى الأرض، أتراهم يعلمون ما حل بأرضهم وبابنائهم؟

هل إن الطوفان الذى تحدث عنه جلجامش فى الملحمة الشهيرة هو ما يجرى الآن؟

صلاة بابلية

حين عزفت مقطوعة صلاة بابلية لأول مرة فى باريس عام ١٩٩٤. كانت الثقة تملؤنى لأنى كنت بينما أعزف استعيد حضارة ستة آلاف عام من الثقافة والموسيقى كانت كلها تتقافز بين ناظرى وبين زند العود، كنت أصف طقس عبادة بين الملك البابلى وآلهته، وكنت فخورا بأن أجدادى تعاملوا مع الموسيقى بهذه المرتبة حيث أصبحت الوسيط بين الإنسان وآلهته كما كانوا يعتقدون، وفى الحفلة نفسها قدمت من آشور إلى أشبيلية وكنت التقطت فكرة العزف بالأصابع الخمس من دون استعمال الريشة من المنحوتات الآشورية التى تصور أحد عازفى العود الآشوريين وهو يضرب على العود باصابعه، تتبعت هذا الأمر أشهر طويلة حتى توصلت إلى طريقة عزف عرفها قبلى الأشوريون عدة آلاف من السنين لكنها انقطعت عنا، وعبر بحث طويل قمت بإعادة ربط الخيوط، ومن الكندى تعلمت أول نظام للهارمونى الذى احترقت مخطوطاته اليوم فى مكتبة دار المخطوطات.

ها أنا سليل حضارات عظيمة، وأمة صنعت أمجادها بالحفر على الحجر، وها هو الشاهد الأكبر الحجر يُهان بما يحمل ويهشم كما لو أنه قطعة بسكويت صغيرة، وها هو تاريخنا كله أصبح فى جملة غريبة، وليس باستطاعتى أن أعرف كيف سيتعلم أطفالنا تاريخ بلادهم، وهل سيقرءونه مجرد حبر على ورق؟

إننى أشعر بأن ما أحمله من ألم ووجع يفوق ما ستمنحنى إياه الديمقراطية بكثير، أشعر بأن عشبة الخلود التى حملها جلجامش قد اقتلعت من جذورها، وها أنا أتحرق ألما على جهد العلماء والمبدعين والمفكرين على مدى تسعة آلاف عام الذين ميزوا حضارات بلاد ما بين النهرين وقد أضاعها برابرة العصر الحديث. ■

فى التاريخ

زاهى حواس

■■ مرت حضارة العراق القديم مثلها مثل باقى حضارات الشرق الأدنى القديم بعصرين: عصور ما قبل التاريخ، وعصور تاريخية.

وعصور ما قبل التاريخ تم العثور على شواهدها ومنتجاتها الحضارية فى عدة مراكز مختلفة بالعراق فى الشمال والجنوب فكانت من أهم حضارات الشمال حضارة «جرمو» وحضارة «تل حسونة» و «سامراء» وكذلك «تل حلف» حوالى (٤٥٥٠-٤٠٠٠ ق.م). أما حضارات الجنوب فتركزت فى «العبيد» و «الوركاء» و «جمدة نصر» حوالى (٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م). ونحن نعلم أن العصور التاريخية اكتملت باختراع الكتابة وقصة الطوفان.

ولم تكن العراق دولة ذات وحدة مركزية وإنما تكونت من عدة مدن تسمى (دويلات المدن) وكان السبب فى ذلك هو تلك الطبيعة الجغرافية للعراق. وتطورت قصة الحضارة فى العراق القديم إلى أن وصلت إلى حضارات العصور التاريخية منذ حوالى ٣٠٠٠ق.م. فكانت الحضارة السومرية التى تعد من أولى حضارات العصور التاريخية فى العراق القديم، وينقسم العصر السومرى إلى فترتين منفصلتين تخللتهما الحضارة الأكدية.

وينقسم العصر السومرى إلى: عصر بداية الأسرات السومرية، وعصر الإحياء السومرى بعد انهيار الحضارة الأكدية. على أن أهم المواقع التى تركزت فيها الحضارة السومرية كانت فى «كيش» والتى تقع جنوب العراق. والموقع الثانى هو «نيبور» التى تقع فى الجنوب أيضاً وربما كانت تلك المدينة العاصمة الرئيسية لسومر. وكذلك كانت مدينة «أور» من أهم المدن السومرية ومثلها «لجش». ومن أهم القطع الأثرية التى ترجع لتلك الفترة لوحة للملك «أورنانشى» أول ملوك لجش واللوحة مصور عليها الملك بحجم كبير وهو يحمل فوق رأسه سلة بها مواد بناء وهى محفوظة بمتحف اللوفر وهى تمثل لنا اهتمام الملك بأعمال البناء والتشييد، وهناك أيضاً لوحة لخليفته «إياناتم» تعرف باسم (لوحة العقبان - لوحة



فن سومرى جديد: تلد
الرأس المعمم القرن ٢٢ قبل الميلاد من حجر الديوريت

النصر) يسجل عليها انتصارد على خصومه فى مدينة أوما وهى مدينة تقع شمال غرب لجش وهى محفوظة بمتحف اللوفر وترجع لحوالى ٢٤٧٠ ق.م.

وكانت الحضارة الأكدية ثانى الحضارات التى مرت بها العراق، حيث استقر الأكديون فى وسط العراق واستمرت تلك الحضارة حوالى ١٥٠عاماً سيطر فيها حكامها على العديد من المدن السومرية، وكان من أهم ملوك تلك الفترة الملك «سرجون الأكدى» الذى حكم حوالى ٥٤ عاماً وكذلك الملك «نيرام سين»، ومن أهم آثاره لوحة تعرف باسم (لوحة النصر) سجل عليها انتصاراته على شعوب الجبل وهذه اللوحة رغم سوء حالتها إلا أنها تعتبر من أفضل الأعمال الفنية فى النقش البارز من بلاد النهرين، وهى مصنوعة من الحجر الرملى وذات قمة مدببة يبلغ ارتفاعها حوالى مترين، وقد نقشت على وجه واحد وعثر عليها بمدينة سوسة عاصمة عيلام وهى محفوظة حالياً بمتحف اللوفر.

ونصل بعد ذلك إلى عصر الإحياء السومرى فكان من أهم ملوك تلك الفترة الملك «جوديا»، وعثر له على حوالى ثلاثين تمثالاً منحوتاً من حجر الديوريت الأسود ومعظم هذه الأعمال تمثله وهو واقف، أما الجالس من هذه الأعمال فهو يعبر عن طاعة وولاء «جوديا» للإله، والكثير من هذه التماثيل محفوظ فى متحف اللوفر بباريس.

أما العصر البابلى فكان أزهى عصور العراق القديم حيث ظهرت فيه تشريعات الملك «حمورابى». حكم الملك «حمورابى» ٤٣عاماً تمكن خلالها أن ينهض ببابل من دويلة صغيرة لعاصمة دولة كبيرة ذات شهرة وكان هدفه الأساسى هو توحيد بلاد النهرين تحت حكم ملك واحد.

ويعتبر «حمورابى» أحد أهم وأشهر مشرعى العالم القديم، وتشريعات «حمورابى» عبارة عن مجموعة من القوانين التى تنظم علاقات الأفراد بالدولة.

وهذه التشريعات كغيرها من القوانين عادة ما تبدأ بالمقدمة الدينية التى تعطى الملك قوة أمام شعبه وإنذار لهم بألا يتخلف أحد عن العمل. وبدأت هذه التشريعات فى الظهور منذ العام الثانى من حكم «حمورابى» وهذا العام سمى (عام إقرار حمورابى إلى العدالة على الأرض). ونُقشت هذه التشريعات على حجر كبير من الديوريت يجمع المسلة المحورة وشكل اللوحة وأقيمت هذه اللوحة فى معبد الإله «شمس» إله الشمس فى سيبار أو بمعبد مردوك فى بابل، وتم العثور على هذه اللوحة فى سوسة عاصمة دولة عيلام وهى موجودة بمتحف اللوفر.

وبرع البابليون فى العديد من المظاهر والعلوم الحضارية مثل الجغرافيا والطب والفلك والعلوم الطبيعية. وتمر العراق بالعصر الكاسى الذى اختلف المؤرخون فى أصل سكانه. أما العصر الأشورى الوسيط فيبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى (١٣٨٠ - ٩١٣ ق.م).

والآشوريون لهم أصول سامية، هاجروا من الجزيرة العربية وسكنوا شمال العراق منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وينقسم تاريخ الآشوريين إلى ثلاث فترات: العصر الآشورى القديم، ثم الوسيط (١٣٨٠-٩١٣ق.م)، ثم العصر الآشورى الحديث أو الإمبراطورية الآشورية (٩١٣-٦١٢ق.م). ومن أهم ملوك الآشوريين الملك «شلما نصر الأول» و الملك «آشور نصر بال الثانى» والملك «سرجون الثانى» وغيرهم من الملوك. وخلال تلك الفترة الأشورية تم غزو مصر من خلال ثلاث حملات عسكرية آشورية منذ عصر الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر.

وتمر العراق أخيراً بالعصر البابلى الأخير أو المملكة الكلدانية التى كان آخر ملوكها الملك «نابونهيد» حيث ضعفت المدينة فى عهده إلى أن استطاع الملك الفارسى «كورش» فى عام ٥٤٥ ق.م، أن يسيطر على العراق حيث دخلت تحت الحكم الفارسى إلى أن غزاها «الإسكندر الأكبر» عام ٣٣١ ق.م، وإلى أن أرسل خليفة المسلمين «أبو بكر الصديق» جيشه لفتح بلاد فارس حيث بدءوا بجنوب العراق. والذى أمر ببناء مدينة بغداد هو الخليفة «المنصور»، وقام بجمع الفنانين المهرة من كل الممالك الإسلامية وكذلك المهندسين ليشيدوا بغداد، حيث ظلت العراق حاضرة الخلافة الإسلامية لمدة ٥٢٤عامًا.

تقاسيم على قانون

الحزن العراقى معتق ومصفى، توقيته ليس كذبة أبريل، ورياحه ليست موسمية، فتحت كل حجر على الضفاف الأربع لدجلة والفرات حضارة وشهيد، وما كان اعتباطًا أن تولد أسطورة شقائق النعمان هناك حيث يعود دم الشهداء مطلع كل ربيع ليذكر الأحياء بتضحيات الموتى فى سبيل المستقبل فى بلاد يكاد الماضى يلتهمها.

وإنه لمستقبل غامض، وملتبس، وكئيب. فبعد كل ذاك الخراب هل يجرؤ أحد مهما كان طوباويًا أن يضيف إليه صفة المشرق بعد خراب البصرة والنجف والموصل وبغداد والناصرية والحلة وغيرها مما لم توفره الجحافل فى زحفها غير المقدس.

وفى الأخيرة وهى حلة بنى مزيد بين الكوفة وبغداد قال إبراهيم بن عثمان الغزى حين نزلها وتعرض له واليها، وأهلها:

أنا فى الحلة الغداة كأنى
علوى فى قبضة الحجاج

وجميع العراقيين وفى عصورهم كلها من حجاج إلى هولاكو ومن قبضة طغاة إلى استعمار غزاة يسألون دون أن يجيبهم أحد:

ـ أليس بين الغزاة والطغاة طريق ثالث ولماذا لم يسمح أحد للعراقيين أن يسلكوه..؟

إنهم بلد الشعر والنفط والنخيل، والشعب الذى يهرب من الدلف إلى المزراب دون أن يجد من يفهم إشكاليات مواجهاته المعقدة بين غزو وديكتاتورية.

أغلبية الناس ضد الأنظمة وما أحد ضد الأوطان وذاك الذى يحترق أمام أعينهم ليس نفط الرميلة والخريبة فحسب، بل نخيل البصرة الذى قال عنه الأصمعى: «سمعت الرشيد يقول نظرنا، فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة».

وأين الملك حسين وكل من دقوا الأسافين التاريخية والمعاصرة لينظروا ما حصل لبصرة الشعر والنخيل، وما هى الصورة التى ينقلها الرائى عن شعبها لعالم بلا رؤية لا يدرى معظمه أن هؤلاء أحفاد من كانوا أكثر أهل الأرض تحضرًا فحولهم الاستبداد والغزو إلى موضع لا يليق بذاك الثوب الحضارى الزاهى للأمة التى اخترعت أول قيثارة ووضعت للبشرية أول قانون مكتوب.

حضاريًا البصرة واسطة العقد، فهى وككل المدن البحرية انفتحت على الثقافات كلها، ولم يكن عجيبًا ولا غريبًا أن تكون دارًا للفراهيدى، صاحب معجم العين، وبحار الشعر، ولسيبويه مؤلف الكتاب الذى قوم الألسنة ولايزال، وللجاحظ علم الثقافة العربية وعلامة مجدديها ولأبي نواس أقحوانة الشعر العربى. هؤلاء كلهم بصريون والقنابل لا تسقط فى خلاء بل على دورهم وكتبهم وأحفادهم.

فى البصرة نشأ النحو والمنطق والاعتزال ولم يكن عند العرب مع الشعر الذى ازدهر فى مربدها غير هذه العلوم والفنون. فهناك عاشت الكوكبة الموهوبة التى وضعت أسس أرقى مدارس الفكر العربى، وما كان الفقه بعيدًا عن إنجازات البصرة وكيف يبتعد عن مدينة درج فيها واصل بن عطاء وسكن حواريها الحسن البصرى.

وفيما الغربيون مشغولون فى البصرة بالبحث عن رفات «الكيماوى» يتذكر عشاقها شاعرها ابن أبى عيينة الذى لو جاءها ما عرفها فليس ليلها المشتعل بالقنابل والرصاص هو ذاته الذى تشوق إليه ذاك الشاعر بحنان الأمهات من جرجان:

فإن أشك من ليلى بجرجان طوله
فقد كنت أشكو منه بالبصرة القصر

إن هذا النوع من الحنين معلق مرحليًا كالعطل الإجبارية فى زمن الانقلابات ـ إلى إشعار آخر ـ فالناس تنشغل عن الحب والحنين فى أزمنة الخراب، وفى هكذا أزمنة يقع الخلط، فيظن الناس أن المثل القائل «بعد خراب البصرة» من نتاج بصرة العراق، وما هو كذلك، فالبصرة التى خربت وصارت مثلاً هى بصرة المغرب فى بلاد البربر كما يؤكد ابن حوقل، وكانت تعرف قبل مراكش باسم الحمراء وبينها وبين فاس حسب رواية البكرى فى «المسالك والممالك» أربعة أيام، وكانت تعرف أيضًا باسم «بصرة الكتان» لاشتهارها بتصنيع ذلك القماش المرتبط بالطيلسانات والأكفان فهل يعرف المتفرجون على حرائق العراق أن ذلك البلد كان ممنوعًا من استيراد الأكفان لموتاه وقت الحصار..؟

ولماذا سيرة الأكفان الآن..؟ بل لماذا لا..؟ وهل هناك غيرها وليس فى أرض العراق غير الشهداء والضحايا فشعب العراق كله «علوى فى قبضة الحجاج» والحجاج هذه المرة بالزى العسكرى الأمريكى ويخطب من CNN وليس من فوق منبر الكوفة كى لا يحصبه أحد بالحجارة، ولو حصل وحُصب فابن جلا وطلاع الثنايا يعتمر الخوذة بدل العمامة بينما الحجاج العراقى أثناء نزف هذا الكلام فى مخبئه السرى فى بغداد ينقح مسيرة الطغاة التاريخيين والمعاصرين، وبوده لو يمحو منها أبيات الشاعر البصرى عمران بن حطان التى قالها لابن جلا الأول متندرًا بهروبه أمام غزالة الخارجية حين ترك نعله فى أرض المعركة واختبأ كالفئران خلف خندق وسور:

أسد عليّ وفى الحروب نعامة
ربداء تجفل فى صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة بالوغى
بل كان قلبك فى جناحى طائر

أسد علينا.. لا بأس هكذا يحصل دومًا مع السفاحين وسفر الطغاة ملىء بهذه المواقف، فما أن يهدأ هدير البصرة حتى تشتعل الموصل والطريق طويل ما بينها وبين دمشق بوابة الدنيا الثانية، فياقوت قال عنهما ونيسابور فى معجم البلدان: «بلاد الدنيا العظام ثلاثة نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لأن القاصد على الجبهتين قلما لا يمر بها».

إنها موصل الحمدانيين وشقيقة حلب، وفيها قابل المتنبى قبل أن يصل إلى سيف الدولة أبا الهيجاء الحمدانى، ويأه.. ما أصعب هذا الاسم الحربى حين تثور الهيجاء لاحتلال بلد عربى، فيتفرج عرب كثر ويصطلى بنار الهيجاء نفر قليل.

من تلك المدينة خرج السرى الرفاء إلى حلب فلما افتقدها صار مثلنا هذه الأيام لا يعرف هل يندبها أم ينوح عليها أم يشمخ متفاخرًا بروح المقاومة فيها، فهى دومًا على مفرق الغزاة فى أساطيل الدم وطرق الحرير.

ومن قصائد السرى الرفاء فى حبيبته الموصل:

سقى ربى الموصل الفيحاء من بلد
جود من المزن يحكى جود أهليها
أأندب العيش فيها أم أنوح على
أيامها أم أعزى فى لياليها
أرض يحن إليها من يفارقها
ويحمد العيش فيها من يدانيها

ولاحقًا سوف تتنازل الموصل عن لقب الفيحاء لدمشق تقديرًا لمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الذى ارتبط اسمه تاريخيًا بتجديدها، وترتيب رساتيقها وأفكارها ولعله وبعد بحار الدم التى خاضها أجداده، كان يفكر فى تحويلها مدينة للتسامح، وتلك محاولة فشلت كما فشل إطلاق لقب مدينة السلام على بغداد بعد أن استلفته من نهرها حيث كان يطلق على وادى دجلة اسم وادى السلام لكن من قال أن ما يجوز على الأنهار ينطبق على المدن..؟

فعلاً السؤال مشروع: لماذا يسمون بغداد مدينة السلام، وهى لم تعرف الراحة يومًا واحدًا منذ أن وضع أبوجعفر المنصور أول حجر فيها وقال فى تدشينها حسب رواية سليمان بن مختار: بسم الله والحمدلله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

هذه المرة جاءت العاقبة للأمريكيين فبغداد المنذورة لسلام لا يأتى قد لا تعرف الهدوء إلا بعد أن يرحلوا، هذا إذا قدر لها أن تعرفه، فهى ومنذ حجر المنصور من فتنة إلى حرب إلى حصار، ودومًا يصلها الغزاة فى شهر صفر الهجرى، فالجنرال تومى فرانكس لم يخلف التاريخ المتفق عليه مع هولاكو، وجميعهم يأتون ويهدمون ويرحلون، ويظل دجلة الخير يسيل بالبركة والأمنيات والأغانى، وأحلام القمح والصبايا.

وبغداد ليست متحجرة القلب كغزاتها وطغاتها فهى أول مدينة تدلُّع نهرًا وتطلق على أحد فروع دجلة اسم «دجيل» ولو قرأت ما كتبه أبوحيان التوحيدى عن طيب أيامها الخوالى لنزف قلبك دمًا وأنت ترى القنابل والصواريخ تهوى على قصر «الخلد» الذى كان مركز المدينة، وعلى قصر «القرار» الذى بنته زبيدة زوجة هارون الرشيد وقبل أن تستمتع به وجدت نفسها تراقب من شناشيله ومشربياته حرب الفتنة بين ولدها الأمين وأخيه المأمون، وكأن بغداد على موعد دائم مع فتن يحسمها سلاح الأجانب بعد أن يشعلها الظلم المحلى.

هناك وفى تلك المرابع البغدادية تجد التاريخ العربى كله يقف ساهمًا على جسر الغزل فالرصافة والكرخ توأمان يصل ما بينهما بدل حبل السرة جسور على مد البصر، وعلى أحدها وقف ذات يوم على بن الجهم ليقول ذلك البيت الندى الطرى الذى حفظته أجيال وأجيال، وتغنى به العشاق فى كل العصور:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

ولم تكن بغداد تدرى من أين تأتيها القذائف الشهر الماضى، فليلها صار من الانفجارات الدائمة نهاراً، فانقبض صدر جسر على بن الجهم ودخلت المها مرابضها ودمعت عيون الغزلان فى الخنادق والفنادق على الأيام الخضر، ولا وقت للهوى بين جسرين ونهرين وحزنين، حزن على أبرياء يجرفهم سيل الكراهية، وحزن على أعرق عواصم الدنيا، وهى تتدمر يوميًا أمام سمع العالم وبصره دون أن تسمع صوت حراس التراث الإنسانى الذين فلقوا الدنيا يوم تدمير أصنام باميان الأفغانية، ثم خيَّم على رؤوسهم الطير و«القنابل» الأمريكية تدمر فى بغداد المارستان العضدى،

عراقى

محيى الدين اللاذقانى

ونواعير الصراة وصرصر والقطائع وجامع المنصور وقصر ابنته أسماء ودار ابن طاهر، ومحلة باب الطاق، ومقبرة الرصافة حيث مراقد معظم الخلفاء العباسيين.

وقد قيل للمنصور حيث بنى بغداد أن النجوم تقول أنه لن يموت فيها خليفة أبدًا حتف أنفه، وهى رواية أثبتها أبوسهل بن نوبخت وأرفقها بتوضيح مبتهج بعلم الفلك حيث قال: «وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج والمهدى ابنه خرج إلى نواحى الجبل فمات فى ماسبذان بموضع يقال له الرذ، والهادى ابنه مات بعيساباذ قرية شرق بغداد والرشيد مات بطوس والأمين أخذ فى شبارته وقتل بالجانب الشرقى والمأمون مات بالبذندون من نواحى المصيصة بالشام والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقى الخلفاء ماتوا بسامرا ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرق بغداد وتعطلت مدينة المنصور منهم.

ولاحقًا سوف نجد التوحيدى يتحدث فى الرسالة البغدادية عن خمول محلة الخلد حيث مدينة المنصور التى لاتزال تحمل اسم الخليفة المؤسس، وهى ذات المنطقة التى دمرت الصواريخ الأمريكية فى الثامن من الشهر الماضى مطعمًا فيها قبل سقوط بغداد بيومين ظنًا أن بعض أفراد القيادة العراقية يجتمعون فيه.

ولم يدمر المبتهجون بسلاحهم الحديث تراث الرشيد والمنصور فحسب بل ومعهما إرث أبوالعباس السفاح فى الأنبار ـ المنطقة المعروفة حاليًا باسم الفلوجة ـ وفيها قصف الأمريكيون موكب السفير الروسى فى الأسبوع الثالث للحرب.

وهذا الخراب الأمريكى لم يطل التراث العربى والإسلامى وحده بل وصل إلى الإرث السومرى والبابلى، فهناك مدن سومرية كثيرة تعرضت للقصف منها واحدة قرب الناصرية من القرن الرابع قبل الميلاد كان اسمها «لجش» وتعرف حاليًا باسم هباء، ولا أحد يعرف قبل أن ينجلى دخان المعارك إن كان التدمير قد طال «أور» و«الزاقورة» وعشرات المواقع البابلية التى صدحت فيها عشتار داعية إلى الحب بدلاً من الحرب.

تُرى هل كان السياب ابن جيكور وجار البصرة وعاشق بغداد ينظر إلى هذه الأيام حين قال واصفًا أحزان عشتار فى قصيدة «مدينة بلا مطر»:

عشتار عطشى ليس فى جبينها زهر
وفى يديها سلة ثمارها حجر
ترجم كل زوجة بها وللنخيل
فى شطها عويل

العراق يعول وقسم منه يفرح، ومن جنوبه إلى وسطه حيرة وخوف مما ياتى وعلامات استفهام مما يجرى فى الشمال، فالمأساة فى كل بيت وأيوب البابلى الذى سرق أسطورته العبرانيون ينطق باسم جميع العراقيين المحاصرين بين مطرقة الغزو وسندان الديكتاتورية، ولسان بعضهم يسأل هل جاء الأمريكيون لتحريرنا أم لنفطنا أم انتقامًا للسبى البابلى؟ أما من كف عن الأسئلة فينشد مع أيوب الرافدين:

تآمر على المخادع والمرائى
وأنت يا إلهى لا تحبط مسعاه
أنا الحكيم لماذا أقيد مع الجهلة
أنا المدرك العاقل
لماذا أحسب مع الجهال

وفى منطقة تختلط فيها الوقائع بالأساطير، والأرقام بزبد المخيلة ويتحكم خوف الماضى بفرح الحاضر وأمل المستقبل تظل عيون الناس على النهر والجسر والإنسان والنخل السامق الذى يعلم من حوله بعض فصول الكبرياء، ويحن مثلهم إلى عودة غزل الجسور.

دولا العذبونى.. دولا المرمرونى
وعلى الجسر المسيب سيبونى

وما مثل بغداد فى أيامها الزاهيات هكذا قال عنها عمارة بن عقيلى حفيد جرير:

ما مثل بغداد فى الدنيا ولا الدين
على تقلبها فى كل ماحين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة
تندى ومنبت خيرى ونسرين
تحيا النفوس برياها إذا نفحت
وخرشت بين أوراق الرياحين.

ولعله فى الفترة ذاتها كان أبوالمطهر الأزدى يصف بغداد نثرًا على لسان أبى القاسم البغدادى فى رسالة أبى حيان: «دجلة مشحونة بالمراكب والزواريق محفوفة بالقصور والجواسق، ترتفع ما بينها أصوات الأغانى وخفقات النايات والسوانى، وأصوات الملاحين، وزعقات المؤذنين إن رأيتها ترى والله جمالاً وكمالاً وتسمع من ألحانها الشجية سحرًا حلالاً».

هكذا كانت مدينة أول قيثارة وأول قانون واليوم لا تسمع فى بغداد التى لا تحب يوم الأربعاء ولا صفر الهجرى غير أنينها ولا أحد يعبر الشطين على مود الأحباب والأصحاب:

ـ عبرت الشطر على مودك

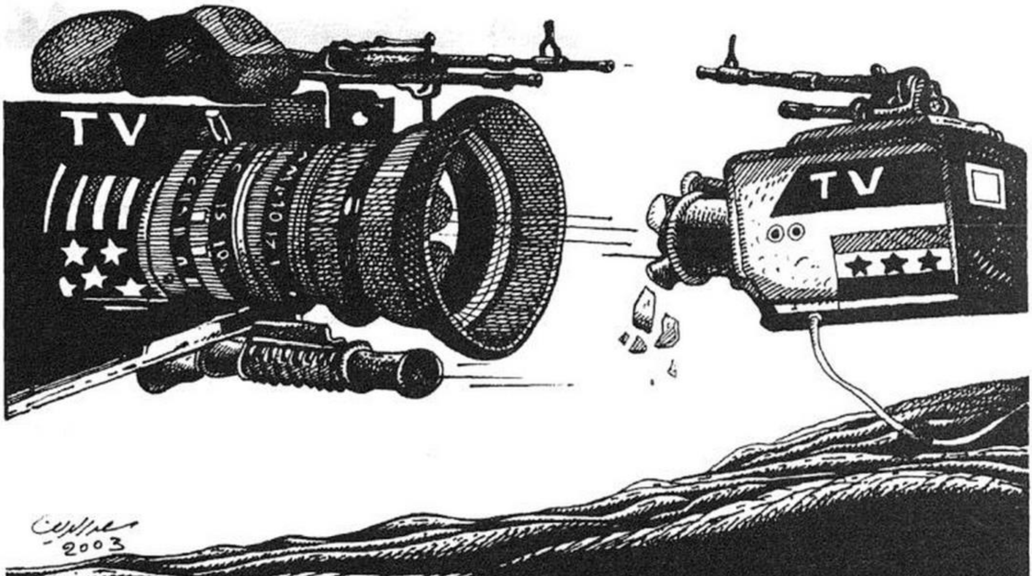
فاللهب فى كل مكان، والسماء تمطر حممًا فتطير فوق النهر الأرواح بدل العصافير، وتلك حالة لن يغفرها العراقيون الذين لم يرحموا طغاتهم عبر التاريخ ولا تعاملوا بمودة مع غزاتهم، فهم الذين صنعوا أقبح صورة للتتار والسلاجقة، والغزنويين وهم الذين حولوا الحجاج إلى مسخ مشوه حين أشاعوا عنه أنه ولد بلا دبر فثقبوا له واحداً على عجل، وهذه الجراحة الخيالية إن صحت تكون أول عملية جراحية ناجحة فى التاريخ لمؤخرة سفاح عربى سبح كغيره فوق بحيرات النفط والنعم فى بلد أعطاه الله كل شىء لكن حكامه نادرًا ما عرفوا طريقة الاستفادة من ثروات الأمة وروحها الحضارية التواقة للعمران والبناء وتعمير الكون واحترام القوانين.



فن سومرى ـ القرن الثانى والعشرون قبل الميلاد

من أور فى العراق خرج جلجامش جنوبًا إلى شط العرب ليصل إلى دلمون بحثًا عن عشبة الخلود ولما خسرها للأفعى قدم للبشرية خلاصة تجربته الروحية وأعطاها كنزها الذهبى الأثمن من «الجرة الذهبية» فقد اكتشف جلجامش، وهذا ما أوحت به أسطورته لمن جاء بعده بأن بناء حضارة الإنسان هو الطريق المستقيم للخلود، وتلك حكمة لا تعرفها القوات الغازية ولا المتطفلون على الحضارات الذى ينسفون ألواح حمورابى فى مكتبة آشور ـ بانيبال دون أن يفكر أحد بعدل أو حرية أو قانون على الأرض التى طورت قبل أن يشب السفاحون أول وأرقى القوانين المدنية.

لقد تحول بلد حمورابى وجلجامش وعشتار ونبوخذ نصر والرشيد إلى غابة بلا حرية ولا قانون ولا فرح، فالغناء تحبسه دومًا هناك الحناجر لتفسح طريق الوديان لأنهار البكاء.. ألم أقل لكم أنه الحزن العراقى الأبدى المعتق والمصفى، فكلما أوشكت الدمعة أن تجف أو تكاد أطلقها من منابع الروح ظلم جديد. ■



أن جذور الحرب النفسية
تضرب فى أعماق التاريخ
البشرى، أما ظهور المصطلح وتبلور
مؤسسة علمية متخصصة تقوم على خدمة
أهدافه فقد كانا ابتكارا
أمريكيا يكاد أن
يكون خالصا

قدرى حفنى

الحرب

وقــفــة أمــام المصطلح

الحرب أيًا كان نوعها فعل يقوم به فرد أو تقوم به جماعة بهدف إجبار الخصم على التسليم بما هومطلوب منه أو بالأحرى مفروض عليه. وتتباين الحروب تبعًا لأهدافها أو لنتائجها أو لأدواتها. ثمة حرب كيمائية، وحرب بيولوجية، وحرب نووية، أواقتصادية، أوإعلامية إلى آخره. الحرب النفسية وفقًا لهذا التصنيف هى تلك الحرب التى تعتمد على أدوات التأثير النفسى لتحقيق نفس أهداف الحرب بعامة. وإذا كانت الحروب «المادية» تستهدف الماديات بما فيها أجساد البشر، فإن الحرب النفسية إنما تستهدف «تعديل سلوك وأفكار البشر» وذلك وفقًا لما هو متوافر من قوانين علمية تتيح التحكم فى السلوك وتعديل أنماطه.

ولايتسع المقام للتفصيل فى عرض لتطورالعلمى لاكتشاف تلك القوانين، واتساع وتحديث مجالاتها التطبيقية لتمتد من مراكز مكافحة الإدمان، ومؤسسات إعادة تأهيل المرضى، إلى معسكرات الاعتقال والتعذيب. وإذا ما نظرنا إلى الحرب النفسية باعتبارها سلاحًا من أسلحة القتال -وهى كذلك بالفعل- فإننا سوف نستوعب حقيقة أن العاملين فى هذا السلاح القتالى يحتاجون شأن غيرهم من المقاتلين إلى توافر مايشبه خطوط الإمداد والتموين. تحديث معلوماتهم عن الجماعة التى ينتمون إليها، ومعلوماتهم عن العالم المحيط بهم من أصدقاء وأعداء على حد سواء، وكذلك تحديث معلوماتهم فى مجال تخصصهم أى علم لنفس بفروعه المختلفة. وإذا كانت المعلومات العسكرية تهتم بحجم القوات ونوعية تسليحها ومواقع انتشارها، فإن المعلومات لنفسية تشمل كل مايتعلق بالسلوك لبشرى الراهن والمتوقع للجماعات المستهدفة فى الداخل والخارج. وتزداد أهمية تلك المعلومات كلما اقترب السلوك المرصود من مناطق التأثير على الروح المعنوية للخصم وللنحن وللآخرين على حد سواء.

نظرة إلى التــاريــخ

يبدو للوهلة الأولى كما لوكان مفهوم الحرب النفسية مفهومًا حديثًا، وقد يكون الأمر كذلك لو وقفنا عند حدود ظهور المصطلح بصيغته الراهنة، والتى بدأ تداولها مع نذر الحرب العالمية الأولى. أما من حيث الممارسة الفعلية فقد عرف البشر الحرب النفسية ومارسوها منذ عرفوا ومارسوا الحرب بمختلف أشكالها، أى منذ فجر التاريخ. مارسوها فى البداية بصرخة توقع الرعب فى قلب العدو، أو تثير الشجاعة فى قلب المهاجم. وتطورت الصرخات البدائية شيئًا فشيئًا لتصبح منشورات وإذاعات ومحطات بث تليفزيونى، وخططًا فنية معقدة يضعها المتخصصون فى فروع الحرب النفسية.

ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا أن ممارسة الحرب النفسية لم تتوقف قط حتى فى فترات السلام القليلة المتناثرة التى عاشتها البشرية عبر تاريخها الطويل، حيث ظلت الحرب النفسية قائمة لا تفتر فى فترات القتال والسلام على حد سواء، ولعلها تكون أكثر صخبًا، بل وأشد خطرًا حين تخمد نيران القتال وتصمت المدافع. حينئذ تكون هى السلاح العامل الوحيد. ولعل نموذج ما يعرف بحقبة الحرب الباردة، أوحقبة اللاحرب واللاسلم التى بدأت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية واستمرت إلى انهيار الاتحاد السوفيتى كانت نموذجًا مثاليًا لحرب ضارية لم تعرف الرحمة اعتمدت على ترسانة من الأسلحة الفتاكة الصامتة تضم الاقتصاد والدبلوماسية وغيرها، وعلى رأس تلك الترسانة سلاح الحرب النفسية.

فى عام ١٩٤١ اعتمد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قرار الكونجرس بتاسيس ما أطلق عليه «مكتب الخدمات الاستراتيجية» وكانت الخدمات الاستراتيجية الموكلة لهذا المكتب تشمل جمع وتحليل المعلومات عن أنشطة الأعداء، والاعتماد على تلك المعلومات «فى رفع الروح المعنوية لجنودنا، وخفض الروح المعنوية للأعداء». وكان فى مقدمة من اعتمد عليهم ذلك المكتب فى إنجاز مهامه مجموعة متميزة من أبرز المتخصصين فى علم النفس آنذاك. وقد أصبح مكتب الخدمات الاستراتيجية فيما بعد مكونًا رئيسيًا من مكونات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حين أنشئت عام ١٩٤٧. وقام المكتب تحت تلك المظلة طيلة حقبة الحرب الباردة باستخدام كافة منجزات علم النفس فى إدارة حرب نفسية مكثفة ضد الاتحاد السوفيتى وحلفائه، وظلت تلك الحرب مشتعلة على كافة الجبهات إلى أن انهار الاتحاد السوفيتى وتفكك. ورغم أن أحدًا لا يستطيع الزعم بأن تلك الحرب النفسية كانت السبب الوحيد أوحتى الأساسى فى حدوث انهيار الاتحاد السوفيتى وما ترتب على انهياره من تغير حاسم فى علاقات القوى الدولية، إلا أن أحدًا لا يستطيع كذلك إنكار الدور الذى لعبته الحرب النفسية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الصدد.

وتعددت مسميات المؤسسة المسئولة عن هذا النوع من الأنشطة، فشهد عام ٢٠٠٢ افتتاح مكتب جديد، يحمل اسمًا جديدًا، وإن كان يتولى نفس المهام، تحت اسم «مكتب التأثير الاستراتيجى» -Office of Strategic Influences وأوكلت إليه مهمة ما يسمى بعمليات المعلومات Information Operations ولم يلبث وزير الدفاع الأمريكى رامسفيلد أن قام بإلغاء المكتب فى فبراير الماضى بعد أن ثارت بشأنه فضيحة تتعلق بتورطه فى زرع مقالات إخبارية كاذبة فى أجهزة إعلام أجنبية، وأنشئ بديل له أطلق عليه مكتب جديد هو «مكتب الأنشطة المعلوماتية» Office of Information Activities.

خلاصة القول أن جذور الحرب النفسية تضرب فى أعماق التاريخ البشرى، أما ظهور المصطلح وتبلور مؤسسة علمية متخصصة تقوم على خدمة أهدافه فقد كانا ابتكارًا أمريكيًا يكاد أن يكون خالصًا.

تحولات فى خريطة الحرب النفسية

اتخذت المعسكرات المتقاتلة فى ساحات الحرب النفسية مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، نفس الشكل الذى اتخذه الصراع العالمى. لقد انقسم العالم عشية انتهاء تلك الحرب إلى معسكرين أساسيين. أحدهما بقيادة الاتحاد السوفيتى يضم أساسًا دول أوروبا الشرقية، والآخر بقيادة الولايات المتحدة ويضم أساسًا دول أوروبا الغربية. وتحيط بهذين المعسكرين بقية دول العالم التى اختلفت تسمياتها بين دول العالم الثالث، أو دول عدم الانحياز، أو دول الحياد الإيجابى، أو الدول النامية إلى آخر تلك التسميات التى لا تعكس فى حد ذاتها ملمحًا من ملامح الحرب النفسية التى نحن بصدد تناولها.

تعددت جبهات المواجهة بين المعسكرين الكبيرين، وتمثلت جبهة المواجهة العسكرية فى قيام حلف الأطلنطى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة حلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفيتى. ولكن تلك الجبهة العسكرية لم تكن الجبهة الوحيدة، بل إنها لم تكن أكثر الجبهات ظهورًا طوال فترة الحرب الباردة. كان ثمة جبهة أخرى أكثر سخونة وظهورًا وأشد صخبًا، هى جبهة الحرب النفسية. كل يحاول كشف مثالب وعورات المعسكر الآخر، ويسعى فى نفس الوقت لإبراز إيجابياته وإنجازاته. كل يحاول أن يتوجه بحربه النفسية إلى جمهوره ليضمن تماسكه، وإلى جمهور «العدو» لدفعه للثورة، وإلى تلك الدول المحيطة بالمعسكرين سعيًا لكسب الحلفاء.

ولا يتسع المقام لاستعراض أدوات وآليات ومراحل تلك الحرب النفسية الضارية، فقد أصبح الأمر كله فى ذمة التاريخ بعد أن انهار الاتحاد السوفيتى وتغيرت ملامح العالم، وكان ضروريا تبعا لذلك أن تتغير ملامح الحرب النفسية.

وفيما نرى فإن الحرب النفسية التى نشهدها اليوم مواكبة للحرب العسكرية الجارية على أرض العراق لم تبدأ مع بداية هذه الحرب منذ أسابيع قليلة، ولا حتى مع بداية ما يعرف بحرب تحرير الكويت. لقد بدأت تلك الحرب عشية انهيار الاتحاد السوفيتى مباشرة. ويصعب علينا محاولة فهم ما يجرى أمام أعيننا اليوم من حرب نفسية ضارية إذا لم تسبق ذلك محاولة لتبين ما جرى عندما سقط الاتحاد السوفيتى، فبسقوط الاتحاد السوفيتى وتغير الخريطة السياسية للعالم، كان لابد أن تتغير خريطة جبهات الحرب النفسية.

لقد فقدت أوروبا بسقوط الاتحاد السوفيتى ذلك الخطر الذى كان يهدد الغرب الرأسمالى بعامة، والذى كان التحالف تحت قيادة الولايات المتحدة فى مواجهته، ولعلنا لا نبالغ إذا ما قبلنا القول بأن مبرر وجود حلف الأطلنطى قد اهتز من أساسه بعد اندثار حلف وارسو بانهيار الاتحاد السوفيتى.

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فقد كان تأثير انهيار الاتحاد السوفيتى عليها مزدوجًا. لقد فقدت بانهياره ذلك الخطر الذى كان ضمن قوى التوحيد الداخلى للمجتمع الأمريكى متعدد الثقافات والأصول. وكان لزامًا عليها فى هذا الصدد أن تختار لها خطرًا تضمن به استمرار وحدة الصف الداخلى. والاختيار فى هذا السياق لا يعنى الاصطناع من لاشىء، بل تضخيم خطر فعلى قائم والترويج الدعائى له بحيث يقوم بوظيفة الاتحاد السوفيتى فى العالم القديم.

النفسية



> **وجدت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضالتها فى ذلك العمل الإجرامى الذى وقع فى ١١ سبتمبر الشهير، فأصبح الخطر لدى الشارع الأمريكى متجسدا فيما عايشه الجمهور الأمريكى فى ١١ سبتمبر**

إن الدور التوحيدى الذى يلعبه الخطر الخارجى، قد أصبح من الحقائق الكلاسيكية فى علم النفس الاجتماعى وديناميات الجماعات. ويصبح وجود هذا الخطر بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فى إطار متغيرات العالم الجديد أكثر ضرورة إذا ما وضعنا فى الاعتبار حقيقة أن قيام الولايات المتحدة الأمريكية على توفير مناخ ليبرالى يؤكد حرية الفرد. لقد كانت تلك الليبرالية ثمنًا مقبولا فى إطار الحرب النفسية الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتى، أما وقد انهار الاتحاد السوفيتى، فقد أصبحت تلك الليبرالية ذاتها تمثل عبئا بل تهديدا بحيث أصبح ثمنها فى نظر البعض قد يفوق عائدها. ووجدت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضالتها فى ذلك العمل الإجرامى الذى وقع فى ١١ سبتمبر الشهير، فأصبح الخطر لدى الشارع الأمريكى متجسدا فيما عايشه الجمهور الأمريكى فى ١١ سبتمبر والذى اعترف أسامة بن لادن بتبنيه له سياسيًا رغم تحفظ البعض حول أن ذلك التبنى السياسى الواضح والمتكرر لا يرقى ليكون اعترافًا صريحًا بالمسئولية الجنائية عن ذلك الفعل الإجرامى، وبصرف النظر عما يشوب التحقيقات الأمريكية فى هذا الصدد من غموض، فإن الحقيقة التى أصبحت راسخة لدى جمهور كبير من الأمريكيين، والتى تبرزها وتؤكدها يوميا آلة الحرب النفسية الأمريكية هى أن «الخطر الذى يهدد الوجود الأمريكى يتمثل فى الإرهاب» وأن الرمز الأساسى لذلك الخطر يتجسد فيما يمثله أسامة بن لادن «المسلم العربى» ولم يكن غريبًا ولا صعبًا أن يعمم نموذج بن لادن ليشمل المسلمين والعرب خاصة. إن قانون تعميم رمز التهديد ليشمل أشباهه، قد أصبح أيضًا من كلاسيكيات علم النفس فى مجال نظريات التعلم. وتزداد مهمة ذلك التعميم الأمريكى سهولة فى ظل نفور عربى متفاوت الدرجات حيال السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وهونفور ظاهر لا يحتاج لجهد متخصص لرصده، فالعين المجردة تقع بشكل متكرر على مشاهد حرق الأعلام الأمريكية.

ولكن آلة الحرب النفسية الأمريكية رغم كفاءتها الحرفية الفائقة، لم يكن فى مقدورها أن تحقق نجاحًا كاملاً. لم يكن المستهدف من تلك الحرب النفسية مجرد تجسيد الخطر الخارجى، بل كان الهدف الداخلى والأهم -فيما نرى- هوالتخلص من تلك الليبرالية الأمريكية التى فقدت وظيفتها بالنسبة للسلطة الحاكمة مع غياب الاتحاد السوفيتى عن الساحة.

وبدأت السلطة الجديدة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتحت قصف مكثف من آلة الحرب النفسية، فى توجيه ضرباتها للداخل. ولعل خير ما يعبر عن ذلك تلك الوثيقة التى يجرى نشرها وتداولها حاليًا، والتى تحمل حتى الآن توقيعات ما يزيد على ٦٥ ألفًا من معارضى الحرب وسياسات الإدارة الأمريكية الحالية، تضم قائمة أسمائهم العديد من مشاهير المثقفين والعلماء. إن قراءة مدققة لتلك الوثيقة تكشف بوضوح أن تلك النخبة من الأمريكيين قد كشفوا عن هدف أساسى وثيق الصلة بغزو العراق. هدف يبدو بعيدًا عن الشرق الأوسط برمته. إن الموقعين على الوثيقة يربطون بوضوح بين ما حدث فى ١١ سبتمبر وغزوالعراق وما أقدمت عليه السلطات الأمريكية حيال الليبرالية فى الداخل، فتقول الوثيقة: «.. شاهدنا مصدومين أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ المرعبة... إلا أن الحداد ما كاد يبدأ حتى أطلق أكبر قادة الأرض العنان لروح الثأر. وضعوا سيناريو مفرطًا فى التبسيط عن الخير فى مقابل الشر، والذى تم تناوله من قبل وسائل إعلام طيعة وخائفة إلى حد أنهم قالوا لنا إن التساؤل عن سبب حدوث هذه الكارثة يقارب الخيانة. لم يعد هناك مجال لأى جدل. لم يعد هناك أى أسئلة سياسية أوأخلاقية شرعية، وأمسى الجواب الوحيد المحتمل هوالحرب فى الخارج والقمع فى الداخل.... نشرت الحكومة الأمريكية فوق المجتمع حجابًا قاتمًا من القمع. وقد أنذر الناطق الرسمى باسم الرئيس الناس للانتباه إلى ما يتفوهون به...».

أما التأثير الثانى لانهيار الاتحاد السوفيتى واختفائه من الساحة الدولية، فقد تمثل فى ترسيخ تصور لدى الولايات المتحدة الأمريكية بأن العالم قد انفتح أمامها لتسعى لإعادة تشكيله ليصبح عالمها هى فحسب. عالم القطب الواحد، ومن ثم فقد وجدت أوروبا نفسها فى مواجهة تحدٍ جديد قد لا يرقى لدرجة الخطر الذى كان يمثله الاتحاد السوفيتى. التحدى الاقتصادى والحضارى الذى تمثله الولايات المتحدة الأمريكية، وإن ظلت ضمن تحالف دولى جديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا وإن كان يستهدف هذه المرة ذلك الخطر الجديد، خطر الإرهاب الدولى والدول التى ترعاه.

أما بالنسبة لبقية دول العالم، دول العالم الثالث، فقد فقدت بانهيار الاتحاد السوفيتى ميزة العيش فى عالم القطبين الكبيرين. ذلك العالم الذى كان يتيح لها قدرًا من المناورة المقصودة، أوالتأرجح غير المقصود، بين العملاقين المتصارعين بما يسمح لها بالاستفادة من صراعهما باعتبارها ضمن أهداف كل من العملاقين لكسب حلفاء. لقد أصبحت تلك الدول فى مواجهة خطر جديد هو التحدى الحضارى والاقتصادى بل والعسكرى الذى تمثله الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة لها.

مقدمات لما يجرى

ليس من شك فى خطورة الدور الذى لعبته وتلعبه أسلحة الحرب النفسية فى تطور الأحداث منذ البداية. وقبل أن نقترب من محاولة تبين ملامح ذلك الدور، قد يكون من الملائم أن نشير إلى أن جوهر الحرب النفسية لم يختلف عبر التاريخ. تتمثل البداية فى رسالة يقوم على صياغتها قادة الحرب النفسية، وأهم مكونات هذه الرسالة هوتبرير الإقدام على القتال. وتوجه الرسالة إلى نوعيات ثلاث من الجمهور: جمهور الجماعة وأبنائها المقاتلين بهدف رفع معنوياتهم، وجمهور العدو ومقاتليه بهدف خفض معنوياتهم، ثم جمهور العالم وقادته بهدف كسبهم كحلفاء. ويقاس مدى نجاح أوإخفاق أية خطة للحرب النفسية بمقدار تحقيقها لتلك الأهداف المنوطة بها وعلى رأسها «الرسالة».

بدأت الحلقة الأولى من حلقات المسلسل بفعل يبدو عربيًا: إقدام العراق على غزو الكويت، وتوالت مشاهدها لتنتهى بإجبار الجيش العراقى على الانسحاب من الكويت وتتوج الحلقة بانعقاد مؤتمر السلام الدولى فى مدريد.

تتلخص الرسالة العراقية فى تلك الحلقة الأولى، أى مرحلة غزو/تحرير الكويت فى إبراز أن الكويت قد عادت أخيرا وبشكل نهائى للوطن الأم وانتهى الأمر بلا رجعة. وصاحبت تلك الرسالة الأساسية بعض الرسائل الفرعية المتعلقة بسرقة حكام الكويت لبترول العراق، واستغراقهم فى ملذاتهم وما إلى ذلك.

أما الحرب النفسية الأمريكية بالنسبة لتلك المرحلة فتتلخص رسالتها فى أن العراق قد انتهك الشرعية الدولية بغزوه لدولة الكويت المستقلة كاملة السيادة. وصاحبت تلك الرسالة الأساسية بعض الرسائل الفرعية المتعلقة بممارسات العراق فى مجال انتهاك حقوق الإنسان.

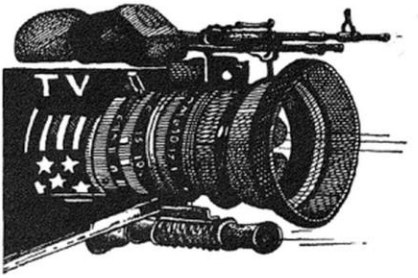
ونجحت الولايات المتحدة الأمريكية فى حشد تحالف دولى مساند للحملة العسكرية، فى حين أخفق العراق حتى فى حشد تحالف عربى يساند رسالته.

وتبدأ الحلقة الثانية بالدعوة لإجبار العراق على نزع ما لديه من أسلحة للدمار الشامل. وتتوالى مشاهد تلك الحلقة من حصار للعراق، واتفاقيات للنفط مقابل الغذاء، وتقدم وانحسار لعمل المفتشين الدوليين فى البحث سدى عن أسلحة الدمار الشامل. وتنتهى الحلقة الثانية من المسلسل بقرار الولايات المتحدة الأمريكية بشن الحرب على العراق.

ولقد قامت الحرب النفسية الأمريكية فى تلك المرحلة على فكرة أن العراق يمتلك أسلحة للدمار الشامل ينبغى تجريده منها، ونجحت الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى فى حشد تأييد دولى لتنفيذ هذا القرار من خلال عمليات التفتيش التى تشرف عليها الأمم المتحدة.

وقامت المواجهة العراقية للموقف على فكرتين أساسيتين. الفكرة الأولى نفى امتلاك العراق لمثل تلك الأسلحة فى الوقت الراهن. والفكرة الثانية أن العراق يلتزم بالشرعية الدولية فى هذا الصدد. ونجح العراق بذلك فى كسب تعاطف دولى يساند تعاونه مع جهود الأمم المتحدة فى هذا الصدد.

لقد اعتمد الطرفان فى الترويج لرسائل الحرب النفسية بشكل أساسى على الإعلام التليفزيونى الذى يكتسب مصداقية من خلال أن المشاهد يرى ويسمع، فيظن أنه يعايش الحدث بالفعل



الحلقة الجارية:

هانحن نعيش اليوم وقائع الحلقة الثالثة من ذلك المسلسل الممتد الذى يمكن أن يحمل اسم «إعادة تشكيل عالم ما بعد الاتحاد السوفيتى». ولقد بدأت هذه الحلقة الثالثة بشن الولايات المتحدة الأمريكية بالاشتراك مع بريطانيا الحرب على العراق. ورغم خفوت أصوات الرصاص والمدافع، وإعلان سقوط بغداد فى أيدى قوات التحالف، واختفاء رموز النظام فجاة وبشكل غير مسبوق، رغم كل ذلك، بل و ربما بسببه فقد اتسع نطاق الحرب النفسية وتزايدت أسلحتها.

لقد انتصرت قوات التحالف الأمريكى البريطانى انتصارًا حاسمًا، ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة انتصاراً مماثلاً وبشكل تلقائى للحرب النفسية التى شنتها تلك القوات، و لنحاول أن نسترجع ملامح المكونات الأساسية لرسائل الحرب النفسية الأمريكية التى صاحبت القتال والتى مازالت تتدفق لتاكيد الانتصار، ولإعداد المسرح للمشاهد التالية.

لقد تمثلت أهم تلك الرسائل فى التركيز على التفوق العسكرى الأمريكى غير المسبوق، وعلى الإمكانيات المرعبة لأسلحة أمريكية جديدة لم يشهد العلم لها مثيلاً من قبل. وكان لهذه الرسالة هدف مزدوج: إثارة الرعب فى قلوب العراقيين، وبث الطمانينة فى قلوب الأمريكيين.

و تمثلت الرسالة الثانية فى صياغة هدف يبدو مشروعًا للقتال، و هو تخليص العالم من خطر امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، ومن ثم كفالة الأمن لجيران العراق وللعالم، وأيضًا تحرير العراق من الحكم الديكتاتورى لنظام صدام حسين.

وفى مقابل هذه الرسالة الأمريكية المركبة كانت الرسالة العراقية الرئيسية شديدة التركيز. إنه غزو استعمارى خائب سوف نقاومه وندحره.

لقد اعتمد الطرفان فى الترويج لرسائل الحرب النفسية بشكل أساسى على الإعلام التليفزيونى الذى يكتسب مصداقية من خلال أن المشاهد يرى ويسمع، فيظن أنه يعايش الحدث بالفعل، رغم أنه فى كل الأحوال لا يطل من خلال رؤية مخرج المشهد. و على أى حال فقد أتيح للمشاهدين متابعة ما يشبه المناظرة الحية بين المتحدثين الرسميين لقوات التحالف سواء فى واشنطن أو فى قاعدة السيلية بقطر، وبين وزير الإعلام العراقى محمد سعيد الصحاف. و لقد كان كل من الطرفين يعكس بصدق طبيعة الجمهور الذى ينتمى إليه والذى يخاطبه. كان المتحدثون الأمريكيون يؤكدون ثقتهم بانتصارهم فى النهاية، ويبرزون فى نفس الوقت أنهم يخوضون معركتهم حيال عدو قوى لا يعرف الرحمة. و إذا ما ووجهوا فى المؤتمرات الصحفية بوقائع قد تمس تفوقهم العسكرى كوقوع أسرى منهم أو خسائر بين صفوفهم، أو قد تمس ما يعلنون التزامهم به من تجنب لإصابة المدنيين، لم يستمروا فى الإنكار بل اعترفوا بالحقائق واصطنعوا لها تفسيرات لا تمس أسس رسالتهم الحرب نفسية. سمعنا تعبيرات مبتكرة مثل «النيران الصديقة» باعتبار أن من سقطوا منهم إنما سقطوا بفعل أخطاء داخلية، وليس بفعل نيران العراقيين. و أنهم حريصون على دقة اختيار اهدافهم بحيث لا تصيب المدنيين، وأنهم إذا ما اضطروا لإصابة مدنيين فإن ذلك إنما يرجع لاحتماء الجنود العراقيين بهم. أما على الجانب العراقى فقد كان أداء وزير الإعلام العراقى محمد سعيد الصحاف متميزًا جذابًا لجمهوره العربى الذى ينتمى إليه ويخاطبه. كان يبدو شجاعًا يجده الإعلاميون بينهم فور توقف القصف ووسط المناطق التى تعرضت لذلك القصف. كان يبدو شديد الثقة بنفسه وبما يقول، إجاباته فورية و نادرًا ما يؤجل الإجابة لحين التيقن من الخبر مثلاً. وكلها صفات قد لا تثير إعجاب جمهور أوروبى، بل لعلها تثير نفوره وتقلل من مصداقية صاحبها. أما بالنسبة للجمهور العربى الذى ألف لسنوات طوال أن تبهره الشجاعة الفردية، وأن يضيق باللون الرمادى فى الرسائل الإعلامية مفضلاً أن تكون الألوان إما بيضاء أو سوداء. فإن محمد سعيد الصحاف كان النجم الإعلامى العربى دون منازع خلال فترة الحرب.

و لعل الوقت ما زال مبكرًا لرصد مدى إخفاق أو نجاح الحرب النفسية الدائرة بالنسبة للجانبين من حيث التاثير على الروح المعنوية. فالطريق إلى نقطة إجراء الحسابات النهائية مازال طويلاً.

لقد بدت لنا استجابة الشارع العراقى فى البداية استجابة إيجابية لرسالة النظام العراقى، ولكن الأمر لم يستمر كذلك. و لنقف أمام مشاهد ثلاثة غنية بالدلالات فى مجال الحرب النفسية. المشهد الأول لصدام حسين يتجول فى أحد شوارع بغداد و المعركة مازالت مشتعلة ليلتقى بجمع من المواطنين العراقيين يهتفون باسمه. المشهد الثانى لجمع من المواطنين العراقيين يتدافعون لهدم تمثال لصدام حسين حتى ينجحوا بمساعدة دبابة أمريكية فى انتزاعه من قاعدته. المشهد الثالث لجماهير عراقية تمارس ما أطلق عليه أعمال النهب فى شوارع بغداد. المشهد كان جزءًا من الحرب النفسية العراقية، و المشهدان التاليان كانا جزءًا من الحرب النفسية الأمريكية. وكنا نحن المشاهدين جزءًا من الجمهور المستهدف. و لنسلم أولا بان تلك المشاهد الثلاثة كانت مشاهد واقعية بمعنى أنها جرت فعلاً.

لقد كان إخراج المشهد الأول رائعًا سواء من حيث التوقيت أو من حيث الرسالة لتى يحملها المشاهد. رسلة تعبر عن الخصائص الأساسية للجمهور المستهدف: «قائد يتميز بشجاعة فردية خارقة وثقة غير محدودة بلنصر، يخرج إلى شعبه فى لشارع دون حراسات، وللعركة مازلت قائمة ليلتف حوله الجمهور ويهتف بحياته «وقد تساءل أحد المعلقين المتحمسين آنذاك «ترى هل هذا سلوك دكتاتور يخشى شعبه؟». مشهد يأخذ حقًا بافئدة جمهور عربى يتطلع لقائد فردى استثنائى فى شجاعته وثقته بنفسه ليقوده إلى النصر. و لم يفت صاحب الرسالة حقيقة لاحظها الجمهور وهى قلة عدد المشاركين، ولكنه بادر بتقديم إطار تفسيرى يدعم الرسالة ولا ينتقص من دلالتها، فظهور لرئيس كان مفاجئًا دون إعداد أو بروتوكول وفى الحرب لا تكون الشوارع عادة غاصة بالبشر.

أما المشهد الثانى فقد تميز أيضًا بإخراج مبهر، وحمل رسالة مليئة بالدلالات: جمهور عراقى يرى الدبابات الأمريكية تعلن بشكل مادى انهيار النظام واختفاء رموزه وعلى رأسهم الرئيس صدام حسين، فيتجه ذلك الجمهور فورا إلى تمثال صدام حسين محاولاً انتزاعه من قاعدته وحين يعجز عن ذلك يستعين بلدبابة الأمريكية لتحقيق هدفه. رسالة واضحة يقول مخرجه من خلالها لقد تنفس لشعب لعراقى لصعداء بعد سقوط الطاغية واتجه إلى التعبير الفورى الحاد عن مشاعره حياله. ولم يقف أصحاب لرسلة طويلاً هذه المرة لتفسير قلة الأعداد المشاركة، ربما لأنهم لم يعودوا حيال رسلة نفسية عرقية مضادة.

أما المشهد الثالث فقد كان يحمل رسالة ذات وجهين: كراهية السلطة البائدة، والحاجة لسلطة تحفظ النظام ولعله بسبب ذلك الازدواج فقد استغرق المشهد وقتًا أطول. ثمة جماهير عراقية تنهب محتويات المبانى والمؤسسات الحكومية فى مناخ تسوده فوضى عارمة. والهدف الأول لأصحاب هذا المشهد يتمثل فى تاكيد الرسالة التى حملها مشهدهم الأول. إن كراهية الشعب للطاغية لا تقف عند حدود تحطيم تمثال. إنها تمتد لكافة رموز السلطة التى غاب أفرادها و لم يعد أمام الجماهير الغاضبة سوى نهب القصور والمبانى الحكومية. أما الوجه الثانى للرسالة فهى أن الفوضى تهدد الجميع ومن ثم فالمطلب العاجل هو قيام سلطة أيًا كانت لإعادة النظام، وليس من جهة يمكن التقدم إليها بمثل هذا المطلب سوى قوات التحالف.

ترى ماذا عن نجاح كل من الرسالتين فى كسب الحلفاء؟ لعله مما يستوقف النظر أن صناع الرسالة الأمريكية ومديرى حركتها لم يبدوا حرصًا على كسب الحلفاء، بعكس ما فعلوه فى الحلقة الأولى حين بذلوا كل ما فى طاقتهم حتى حققوا تحالفًا دوليًا واسعًا. إننا لا نستطيع أن نرجع ذلك ببساطة إلى خطا فى الحسابات الأمريكية، أو حتى عجز موضوعى عن بناء تحالف ما، وإن كان كل ذلك واردًا على سبيل الاستثناء غير المبرر. ترى هل حرصت الولايات المتحدة الأمريكية على تضييق نطاق التحالف المطلوب؟ هل هو سعى للانفراد بالغنيمة المتوقعة؟ هل هى رسالة غير مكتوبة تقول للاوروبيين بل و للعالم باسره إن زعيم عالم القطب الواحد لم يعد فى حاجة لأحد؟ كلها تساؤلات مطروحة لم يحن الوقت بعد للإجابة عليها.

أما على الجانب العراقى فإن الأمر لا يختلف كثيرًا من

حيث النتيجة الواقعية. لم تنجح الرسالة العراقية حتى الآن فى بناء تحالف دولى أو عربى يساند المقاومة العراقية بدرجة فعالة.

وتبرز فى هذا السياق تلك الرسالة العراقية المتوقعة فى مثل هذا الموقف، والتى كانت تتوجه إلى «الجماهير» و«الشعوب» مباشرة، داعية إياها للثورة على حكامها باعتبار أن الخطر لا يتهدد العراق وحدها بل العرب والمسلمين جميعًا.

وماذا بعد؟

ترى ماذا عن رسائل المستقبل؟ هل جرى إعداد رسائل الحرب النفسية للمرحلة القادمة؟ لو كانت الأمور تجرى وفقًا للتخطيط العلمى الصحيح .فإن هذه الرسائل ينبغى أن تكون جاهزة بالفعل، أو فى طور وضع اللمسات الأخيرة لها. بل إن ما شهدناه خلال القتال من تكرار تداول مصطلحات مثل «مرحلة ما بعد صدام» أو «مرحلة إعادة تعمير العراق» إلى آخر تلك القائمة من المصطلحات التى شاع استخدامها منذ وقت مبكر بين الأطراف جميعًا، إنما تعنى أن الاستعداد لإطلاق تلك الرسائل الحربية النفسية كان يجرى على قدم وساق.

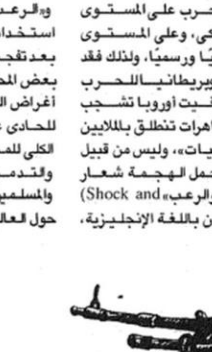
لقد نجحت قوات التحالف الأمريكى البريطانى بالفعل فى الإطاحة بنظام صدام حسين. والسؤال هو: هل يؤدى ذلك تلقائيًا إلى تكريس عالم القطب الأمريكى الأوحد؟ ترى هل سيقبل العالم بذلك؟ وماذا عن العالم العربى؟ هل ستقبل الدول العربية باحتلال أمريكى سافر فى المنطقة؟ وإذا ما قبلت فكيف ستواجه شعوبها التى لن تكون آنذاك مدفوعة للمفاضلة بين تأييد «دكتاتورية صدام» ومقاومة «استعمار العراق»؟. ثم ماذا عن موقف إسرائيل والموقف من إسرائيل فى ظل هذا السيناريو؟ هل ستظل الولايات المتحدة الأمريكية فى حاجة إلى وكيل معتمد يمثلها فى المنطقة وهى متواجدة بشحمها ولحمها فى قلبها؟ أم أن الدور الوظيفى لإسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية سوف يشحب؟ وهل ثمة دور جديد لها فى ظل هذا السيناريو؟ وما هى ملامحه لو وجد؟

ويبقى تساؤل مثير للقلق؟ هل لدى النظم العربية مثل هذا النوع من الرسائل الحربية النفسية المستقبلية؟ أظن ذلك ... وإلا. ■

... والمعارك النفسية

■■ اهتدت الإنسانية عبر مسارها الطويل، وعبر المائة وواحد وتسعين مليون إنسان الذين فقدوا حياتهم كأثر مباشر أو غير مباشر للنزاعات المسلحة فى القرن العشرين، ونصفهم من المدنيين بالمناسبة، إلى حقيقة أن الحروب تبدأ فى العقول والضمائر، وعلى هذا الأساس قامت سياسات اليونسكو الثقافية والتربوية فى برامج «التعليم والتربية من أجل السلام»، ومقالتنا التالى قد يقنعك أن الحروب تدور أساسًا فى النفوس والعقول، وتظل الانتصارات والهزائم هناك، فى الذاكرة والعقل الجمعى، حتى وإن زالت آثارها من على الأرض.

تابع العالم كله على مدار الأسابيع الماضية كابوسًا رهيبًا أفظع ما فيه أنه فى اليقظة يحدث لا فى المنام، والأفظع من ذلك أن الرأى العام العالمى كان مهيئًا له عبر الخطط التى كانت تنشر تباعًا فى وسائل الإعلام بوصفها اكتشافات وسبقًا صحفيًا لهذه الجريدة أو تلك بينما هى فى الحقيقة تسريبات متعمدة من البنتاجون أو المخابرات المركزية للتحضير المعنوى وبث الرعب من ناحية، ولإحباط كل محاولات المعارضة للحرب على المستوى الداخلى الأمريكى، وعلى المستوى لعالمى كله شعبيًا ورسميًا، ولذلك فقد ذهبت أمريكا وبريطانيا للحرب وحدهما، وبقيت أوروبا تشجب وتستنكر، والمظاهرات تنطلق بالملايين حتى بدأت «العمليات»، وليس من قبيل المصادفة أن تحمل الهجمة شعار «الصدمة والرعب» (Shock and Awe)، والعالمون باللغة الإنجليزية،



والناطقون بها يعرفون أن كلمة (Awe) لها ظلال روحية، فهى تحمل خليطًا من المعانى وتتضمن نوعًا من مشاعر الرهبة، والاحترام، والدهشة إلى درجة الذهول، والإنسان الذى يتملكه هذا الشعور يكون مشدوهًا، محتبس الأنفاس، مأخوذًا بما يراه من آثار الدمار، أو عنف القصف، أو شدة الصدمة، وأحسب أن ترجمة Awe إلى «رعب» لم تكن موفقة أو غير كافية على أحسن تقدير.

ويعود هذا التعبير إلى عنوان كتاب صادر عام ١٩٩٦ عن الجامعة لوطنية للدفاع التابعة للبنتاجون، والكتاب يتحدث عن استراتيجية عسكرية هدفها تحقيق السيطرة السريعة على العدو، ودفعه إلى الاستسلام بأقل خسائر ممكنة، والأهم من ذلك كله، بل السبيل إليه أن يتم ضرب إرادة العدو ومعنوياته فيشعر بالعجز التام، وبأنه لا مفر من التسليم، ولذلك فإن الصورة التى ارتسمت فى أذهان مؤلفى الكتاب، وهم يرسمون خطتهم كانت صورة نظرات الذهول والألم التى ملأت عيون من بقوا أحياء بعد القصف الواسع فى الحرب العالمية الأولى، ورأوا فى هذه الصور من المعانى ما يتجاوز خيال الجنس البشرى، والثقافة، والتاريخ.

هذه الصور كانت هى «الملهمة» لواضعى استراتيجية الصدمة و«الرعب»!! ونفس الألفاظ تم استخدامها لوصف مشاعر الأمريكان بعد تفجيرات سبتمبر ٢٠٠١، مما دفع بعض المحللين إلى القول بأن جزءًا من أغراض الحملة على العراق هو الانتقام للحادى عشر من سبتمبر عبر لتدمير الكلى للمدن العراقية، أو أهم معالمها، والتدمير النفسى لمعنويات العرب والمسلمين، بل وكل معارضى الحرب حول العالم وإشعارهم بالذل والإهانة.

وليس غريبًا أن نفس الألفاظ قد استخدمت لوصف الهولوكوست كسياسة دولة استهدفت إخضاع مواطنيها وغيرهم عبر لصدمة و«الرعب». وقد اتضح بالفعل أن الهدف لم يكن «صدام حسين» أو أسلحة الدمار الشامل، ولكنه تحديدًا كما قال مؤلف الكتاب: «تحطيم شعب العراق ماديًا وشعوريًا ونفسيًا»، ويقارن المحللون بين قصف بوش للعراق، وقصف هتلر لقرية «جورنيكا» فى إقليم «الباسك» الإسبانى خلال الحرب العالمية الثانية، فهذه القرية لم تكن لها أية أهمية عسكرية أو استراتيجية على الإطلاق، ولكنها كانت - مثل بغداد - مركزًا ثقافيًا ودينيًا، وجاء قصفها لإرهاب الإسبان وكسر روحهم المعنوية، وشل قدرتهم بل ورغبتهم فى المقاومة.

هل نجحت الحملة الأمريكية؟! وهل حققت أهدافها النفسية والعسكرية؟! سؤال قد يرى البعض من المبكر الإجابة عليه بسبب قلة المعلومات أو غموض الصورة الحالية، ولكن دعونا نرصد المشهد خارج ميدان القصف.

أولا: الخداع:

لا نبالغ إذا قلنا أن «الخداع» هو الحرب التى بدأت قبل الهجوم بكثير، ويبدو أنها لن تنتهى، ونحاول هنا استكشاف جوانب الخداع ثم ننتقل لاحقًا لبيان آثاره النفسية العميقة.

- منذ أن وصفت «مادلين أولبرايت» المليون طفل عراقى الذين ماتوا بسبب الحصار على أنهم (Collateral damage)، أو مجرد آثار جانبية للدواء الأمريكى(...)، وربما من قبل تصريحات أولبرايت تم حشد ترسانة من الأكاذيب والمفاهيم والتعبيرات المغلوطة، ولا يتسع مجلد من ألف صفحة للإحاطة بكل هذه الأكاذيب التى وصلت إلى درجات غير مسبوقة من الفجور، وأذكر هنا أمثلة قليلة:

* تدمير الطرق وشبكات المياه والصرف الصحى = استهداف البنية التحتية للجيش المعادى
* إغراق المدن بوابل مستمر من القنابل الفتاكة = تدخلات جراحية
* احتلال العراق وتدمير شعبه ومدنه = تحرير العراق شعبًا وأرضًا

ويمكن رصد العديد من الأمثلة على التلاعب بالألفاظ، واختلاق الأكاذيب،

فى حرب العراق

أحمد محمد عبدالله

وليس أقلها الأفلام أو المعلومات الملفقة عن أسلحة الدمار الشامل، أو الربط بين النظام العراقي، وتنظيم القاعدة، أو أن من أهداف الهجوم تأسيس نظام ديمقراطى فى العراق فى الوقت الذى تتحول فيه أمريكا نفسها إلى دولة فاشية وبوليسية تعتقل الآلاف دون تهمة، ودون محاكمة، وتضرب للتظاهرين من مواطنيها المناهضين للحرب بالرصاص المطاطى!!

ألا تذكرنا هذه الأكاذيب بمقولة «جوبلز»: اكذب حتى يصدقك الناس.

ـ معركة الإعلام:

سيتوقف التاريخ كثيرًا أمام الإدارة الأمريكية للمستوى الإعلامى من الحملة، وهنا قد يكون من المفيد استعادة كتاب ظهر فى أواخر عام ١٩٩٩ لمؤلفين أمريكيين يجمعان بين الصفتين الأكاديمية والعسكرية، ويعملان معًا فى معهد «راند» (Rand) للأبحاث الذى يقدم استشاراته لجهاز المخابرات العسكرية الأمريكية، ولأسباب غير واضحة لم يلق الكتاب الاهتمام الكافى فى ظل إدارة كلينتون، والمفهوم الرئيسى الذى يدور حوله الكتاب أن حروب المستقبل ستدار أساسًا بالإعلام أكثر من أى سلاح آخر، ويرى الكتاب أن الرسالة الإعلامية الموجهة ونشرها على أوسع نطاق بما يربك العدو، ويشتت قدرته، هى الانتصار الأهم بالسيطرة على المعلومات والاتصالات، وهى الأساس الضرورى لتحقيق النصر النهائى.

ويطرح المؤلفان مفهوم «الحرب الافتراضية» التى تفتح جبهات عسكرية متفرقة، وتغطية إعلامية محكومة بعناية، ودعاية صارخة قبل وأثناء وبعد الهجوم.

والمتابع للأداء الإعلامى الأمريكى سيجد تطبيقًا لهذه الأفكار، ولجميع أدوات البروباجندا داخل أمريكا، وفى ميدان المعركة نفسه.

بحيث تم التركيز على جوانب دون جوانب، وإذاعة معلومات دون أخرى، ونقل صور ومشاهد بعينها، بل وتم منع أية محاولات لتغيير ذلك.

وطبقًا لروبرت فيسك فى الإندبندنت بتاريخ ٢٥/٢/٢٠٠٣ فإن شبكات CNN والـ CBS والـABC، وصحيفة «نيويورك تايمز» قد وافقت على تواجد مسئولين من مشاة البحرية الأمريكية بغرفة أخبار تلك الشبكات فى ولاية أتلانتا للموافقة على مسودة تقارير المراسلين قبل إذاعتها أو نشرها.

وعلى أرض العراق لم يكن مسموحًا للصحفيين أو الإعلاميين إلا بالتجول فى أماكن محددة، وبصحبة الوحدات العسكرية الأمريكية، وعلى الشاشات الأمريكية المختلفة كان الضيوف من العسكريين والمحللين يتلقون ردودًا وتعليقات من عسكريين سابقين، وكل ذلك تحت السيطرة الهادفة لانتصار الحرب، بينما الرأى الآخر لا يجد غير الشوارع ليتظاهر فيها، أو وسائل إعلامية أقل انتشارًا وأضعف تأثيرًا، وحتى هذه لم تنج من التدمير مثل موقع «الجزيرة» على الإنترنت، والذى تم تعطيله لمدة عشرة أيام تقريبًا. وكمثال على التلاعب بالصور أجرت العديد من الهيئات ومنها: بيت تنقية للعلومات Information Clearing house مقارنات وتحليلات بالكمبيوتر أظهرت أن أهم مشاهد العراقيين المهللين بتحرير بغداد(...) ليس سوى صورة حفنة من عملاء المعارضة العراقية العائدة من الخارج، وأن ميدان الفردوس الذى شهد إسقاط تمثال صدام لم يكن مكتظًا بالناس كما بدا فى الصور، وإنما كان خاويًا تمامًا إلا من بضع عشرات ركزت عليهم زاوية اللقطة.. إلخ.

وعندما حاولت بعض وسائل الإعلام مواجهة هذا السيل المتدفق من الأكاذيب أو المعلومات التفصيلية التافهة، وحجب الأجزاء القبيحة من الصورة كانت النتائج التى يعرفها الجميع بقصف الصحفيين، وقتل المراسلين، وطرد وإقصاء أسماء كبرى مثل: بيتر أرنيت مراسل NBC، وفوكس نيوز بقرار من البنتاجون.

ـ وبالمقابل لعبت القيادة العراقية دورًا هزليًا مؤسفًا فى تشويه الحقائق عن موازين القوى على الأرض، وحجم الخسائر لدى الجانبين فأعطت أملاً خادعًا، وصورة وردية عن مقاومة صلبة ستدوم، وجحيم سيطول للغزاة ثم اختفت عن المشهد بين عشية وضحاها.

وإن كنا لا نحب التفسير التآمرى، ولكننا نرى أن اكتمال الصورة بالخداع من الطرفين أطبق على عقول الناس ونفوسهم، وساهم فى إحباطهم وانكسارهم كما سنرى.

ثانيًا: الالتباس:

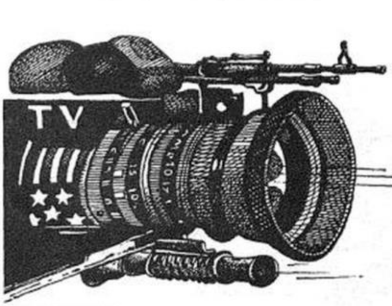
فى غمار الحرب على الأرض بدت الصورة واضحة فى ذهن البعض على أنها غزو أجنبى لبلد عربى مسلم بقصد إخضاعه بالقوة، والتحكم فى مقدراته وثرواته فى غطرسة واضحة، ومنافاة لكل قوانين الأرض، ولكن لدى آخرين كانت الصورة أكثر غموضًا، فالقيادة العراقية بكل تاريخها الأسود الدموى، والشعب المقهور تحت الاستبداد والحصار يتطلع إلى التحرر، والعجز العربى يملأ المشهد، والمحللون العرب يتضاربون فى ولائهم أو إدراكهم للمشهد، وتزداد الحيرة، وعامة الناس لا يملكون القدرة على التمييز بين المستويات أو الخيارات، ولا يتفادون الوقوع فى فخاخ الأسئلة الخاطئة من قبيل خيارين لا ثالث لهما: إما استقلال العراق وقيادة صدام، أو احتلاله وسقوط نظام البعث؟!! وانطرحت قضايا من قبيل: هل هى حرب صليبية أم استعمارية؟!! هل نقاتل فى صفوف العراقيين، ولو كان ذلك فى مصلحة النظام العراقى؟!، وصدرت فتاوى تحض على القتال، وفتاوى أخرى تدعو للعمليات الاستشهادية ضد الغزاة، وتضاربت الأنباء، وتاهت الحقيقة التى يبدو أنها كانت أول ضحايا الحرب، وسقطت العقول فريسة للتشويش.

ثالثًا: بين العنف والعجز:

فى مقابل الحشد المبالغ فيه للعدد والعدة الأمريكية، والحرب الإعلامية الضروس التى نصبتها أمريكا بالخداع، ثم بالرصاص والقنابل عندما لزم الأمر، بدا المشهد العربى منكسرًا وشديد العجز، وبدت الأمم المتحدة ـ قمة النظام الدولى ـ فى مقاعد المتفرجين، وبدت القوى المختلفة فى موقف المتململ، أو الممتعض، أو المطالب بالإنهاء السريع لعملية تدمير/تحرير العراق.

وشعر الناس أنهم يعيشون فى عالم بلا قواعد ولا قوانين، ولا صوت فيه إلا لبلطجى واحد لا يعبأ بمعارضة، ولا يشبع من الدم والأشلاء، ومع استمرار سقوط الضحايا تصاعدت مشاعر الغضب والحنق والقهر، ولم يجد الناس منفذًا لمقاومة ذلك، إلا المتابعة اليومية، مع المزيد من التشويش والاختلاط فى المفاهيم والمشاعر، وكان من الطبيعى أن يلجأوا إلى الدعاء ـ فهو كل ما بقى لديهم ـ وتطلعوا إلى أى نصر ولو كان كاذبًا، وحلموا فى اليقظة بطعم الصمود المستمر، ومشهد اندحار الغزاة، ولكنهم استيقظوا على العلم الأمريكى فى سماء بغداد.

هذا العنف الضارى فى التدمير، والعجز الكامل عن الفعل، والتشويش فى المفاهيم، والتضارب فى المعلومات ثم الانكسار المفاجئ للدفاع النظامى عن بغداد خلق مناخًا مستمرًا من الشحن والتفريغ، والصعود والهبوط ثم السقوط فى هوة سحيقة من الخوف والإحباط، وازداد الشعور بالمرارة، وتأنيب الضمير، والكآبة واليأس لدى البعض، واللامبالاة والتجاهل هروبًا من الواقع المؤلم عند آخرين، أو تبرير ما حدث أو عقلنته أو محاولة البحث عن تفسير غيبى له، وكلها محاولات تهدف إلى تسكين الألم النفسى.



هذا هو المناخ النفسى الذى لابد من فهمه كمدخل إلى ما حدث من تداعيات نفسية، وآثار معنوية.

رابعًا: الضغط النفسى:

لا يمكن فهم الآثار النفسية التى شعرنا بها، وشعر بها الناس من حولنا إلا إذا عرفنا قدرًا من المعلومات عن الضغط النفسى والعصبى الذى أصبح موضوعًا مهمًا من موضوعات الطب النفسى الحديث. ويحدث هذا الضغط مع أية تغيرات حياتية تحمل صدمة مفاجئة، أو أزمة كبيرة، أو مجرد تراكم لصغائر يومية، والحروب هى من أكثر الأوضاع ضغطًا على نفوس الناس.

وللضغط النفسى تأثيرات على كيمياء المخ ونواقله العصبية، وعلى مجموعة من الهرمونات التى تفرزها الغدة الصنوبرية، والغدة فوق الكظرية، وعبر مسارات بيولوجية وفسيولوجية متعددة، وعمليات مركبة تظهر تأثيرات الضغوط النفسية على شكل أعراض وجدانية وجسمانية متنوعة فنرى الضجر، والعصبية الزائدة، ومشاعر الخوف والرهبة، واضطراب النوم، واختلال الرغبة الجنسية، وكل مظاهر الإحباط والاكتئاب، كما نرى الرعدة والغثيان والصداع، وفقدان الشهية، وخفقان القلب، والأوجاع الجسمانية المختلفة، والشعور المستمر بالإرهاق.

والضغط النفسى فى تلك الحرب حدث عبر طرق عدة منها:

- رؤية الخوف والذعر، والجرحى والقتلى العراقيين.
- الإدراك السلبى للذات وللآخرين، وللواقع والمستقبل.
- أفكار غير منطقية عما هو كائن، وعما كان ينبغى أن يكون.
- الاعتقاد بالعجز الكامل، وقلة الحيلة، وعدم القدرة على فعل شىء.
- الشعور بفقدان الثقة، وفقدان القدوة، والتوجيه السليم.
- انقطاع الصلة المباشرة بأهلنا فى العراق، وتضارب الأنباء حول ما حدث هناك.
- سيادة أو شيوع أساطير أو تنبؤات عسكرية أو غيبية تحمل مشاهد مستقبلية سالبة: تقسيم العراق، حروب أهلية، المهدى المنتظر.
- إلقاء اللوم على الذات أو على الآخرين دون وجود خطة واضحة للحل.
- التفكير المستمر فى الموت، وعدم جدوى أو معنى الحياة.

ونتيجة لهذه المؤثرات، وتصاعد معدلات الضغط النفسى شاهدنا حالات - فى واقع ممارستنا الإكلينيكية - ظهرت فيها أعراض اكتئاب، أو وسواس قهرى، وحالات أقل - من الأصغر سنًا - ظهرت عليها أعراض ذهانية من ضلالات وهلاوس، وتعددت شكاوى من قلق وخوف، وروت بعض الحالات - وأكثرهن نساء - عن تكرار أحلام مزعجة يسمعن فيها أصوات المراسلين، وتتكرر فيها مشاهد القتل والتدمير بما يقترب من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة PTSD الذى يكون مصحوبًا باختلال الاتزان النفسى فى الإدراك والتفكير، والتركيز، واستعادة مشاهد القتال أو صور الجرحى والقتلى، وبعد ذلك تجتاح النفس مشاعر عدم الاطمئنان وأحيانًا الإحساس بالذنب لعدم قدرته على تقديم المساعدة، وقد تنتابه نوبات من الإحباط والغضب الشديد.

وفى الأطفال تباينت ردود الأفعال من معاناة التخيلات والأحلام، والكلام أثناء النوم إلى فقدان الشهية للطعام، والبكاء بدون سبب علاوة على ضعف التركيز، والإهمال الدراسى، واشتكى البعض من صداع أو مغص، وظهرت مشاعر الأطفال فى ألعابهم ورسومهم التى تمثلت الحرب وآثارها.

ولم يتأثر الناس بنفس الدرجة بالطبع صغارًا وكبارًا، وتعتمد قدرة الإنسان على التكيف مع الضغوط على عدة عوامل منها:

- مدى سلامة نشأته الطفولية من العوامل السالبة.
- التعرض لخبرات سابقة بالفعل، أو بالتدريب على التعامل مع الأزمات.
- طبيعة الشخصية وبخاصة فيما يتعلق بنمط تعبيره عن مشاعره أو كتمانها.
- الظروف المحيطة بالإنسان من دعم أسرى واجتماعى.
- وجود معنى وجودى عميق مثل الإيمان بمعتقد أو التمحور حول هدف مثالى.
- الوعى بأبعاد ما يحدث، والقدرة على التفسير والتقييم.
- شدة التعرض لمشاهد القتل والدمار، ومتابعة الأخبار.
- الاندراج فى عمل محدد لمواجهة ما يحدث، أو الاكتفاء بالفرجة.

خامسًا: آليات المقاومة:

ولكن الناس لم تسكت فى مواجهة هذه الضغوط النفسية، وظهرت أشكال من الآليات الدفاعية النفسية والاجتماعية منها:

- تبرير الحملة بأن صدام هو السبب الرئيسى لكل ما وقع ويقع وسيقع للعراق، وبالتالى هو المسئول، وشعبه مسئول بالتبعية لأنه لم يسقطه، ولكن هذه الآلية لم تستمر طويلاً.
- الاعتراض على موقف الأنظمة العربية بالتظاهر الذى فاق فى سرعته واتساعه كل الحسابات والتوقعات حتى قال المراقبون أن مظاهرات القاهرة فى ٢٠ و ٢١ مارس هى أكبر مظاهرات عفوية خرجت منذ جنازة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.
- الشعور بالتضامن العالمى، والامتداد الخارجى بأن حركتنا المناهضة للحرب هى حركة إنسانية دولية، وبأننا لسنا وحدنا.
- اللجوء إلى الإيمان لتسكين الآلام، واستمداد العون، واستلهام إرادة التماسك من التوكل على الله، والاستعانة به.
- خروج قطاعات واسعة من الكتلة السلبية الصامتة عن صمتها وسلبيتها، وظهور حالة جديدة من النشاط والإبداع فى التعبير عن الرفض للوضع القائم، ولا يمكن تجاهل التنكيت والرفاهية كآلية دفاع مهمة يستخدمها الناس.
- التواصل مع آخرين محليًا وعالميًا يحملون نفس الهموم والاهتمامات، وتبادل وجهات النظر، والتواصى باستمرار مناهضة الحرب.
- الخروج من موقف الضحية العاجزة إلى دور المتفاعل مع الأحداث، المشارك فى صناعتها.

وقد رأيت أثناء تجوالى خلال التجمعات المختلفة أنماطًا متباينة الأعمار والخلفيات الثقافية والوظيفية خرج كل واحد فيهم لحاجة فى نفسه، ولكنهم التقوا جميعًا على هدف واحد هو مناهضة تلك الحرب الظالمة مثلهم مثل الملايين حول العالم.

وهكذا فإن الضغوط النفسية ليست شيئًا سلبيًا على طول الخط، فالضغط النفسى هو مصدر من مصادر الطاقة الداخلية، ويمكن توجيهه إلى خدمة أهداف دافعة، وهو صمام أمن مهم للحركة ضد الخطر، وخلق الدوافع المستندة إلى اعتبارات مادية أو معنوية حقيقية.

كنت أطالع تقرير منظمة الصحة العالمية لعام ٢٠٠٢ عن العنف والصحة فى العالم، ووجدت تحت عنوان العنف الواسع «الجماعى» إجراءات لمنع هذا النوع من العنف المدمر أو التقليل من آثاره منها:

- التقليل من الفقر.
- التضييق على امتلاك الأسلحة البيولوجية والكيمائية والنووية، وبقية الأسلحة.
- التأكد من نشر وتطبيق المعاهدات الدولية، وبخاصة المتعلقة بحقوق الإنسان.

ثم يختم هذا الفصل بالحديث عن معاهدة جينيف عام ١٩٤٩، وسرحت بخاطرى متخيلاً أن من صاغوا التقرير كانوا يقصدون قبائل أفريقيا، أو الجماعات المسلحة فى آسيا، وترددت بين أن أعتبر الأمر برمته حبرًا على ورق، أو آخذه معى مكبرًا على لافتة فى المظاهرة القادمة ضد الحملة الأمريكية على العراق!! ■



المراجع:

(1) Shock And Awe: Achieving Rapid Dominance.
Ullman, Harlank., and James P.Wode, with L.A.Wdney et al
Washington, D.C: National defence Univ., 1996.

(2) The Emergence of Neopolitik,
John Arquilla and David Ronfellt
Rand Monograph Report, Santa Monica, California, 1999



من تكساس إلى بغداد

إبراهيم عبد الجليل

في صباح يوم بارد من أيام يناير عام ١٨٤٨ صاح أحد الأمريكيين في أقصى الغرب الأمريكي وكان يدعى جيمس مارشال في العاملين معه بانه قد عثر على منجم للذهب. وكانت تلك الصيحة بداية لأكبر حركة هجرة عرفها التاريخ الإنساني حيث اندفع نحو تسعين الف شخص إلى كاليفورنيا خلال العامين التاليين لصيحة جيمس مارشال ليصل بعد ذلك عدد المهاجرين هناك إلى نحو ٣٠٠ الف شخص، وكان سكان أمريكا حينئذ لا يزيدون على ٢٥ مليون نسمة. ولم يكن هؤلاء المندفعون نحو الذهب في الغرب الأمريكي قادمين للاستقرار والبناء شأنهم شأن باقي المهاجرين الأوائل للعالم الجديد.

ولكنهم جميعًا كانوا قد أتوا من أجل الذهب، ومن أجل نهب ما يمكن نهبه من هذا الذهب بأي وسيلة وبكل وسيلة ممكنة ولم يقتصر ذلك على الأمريكيين وحدهم، بل لقد امتد جنون الذهب ليشمل الإنجليز والفرنسيين والأسبان والعديد من الجنسيات الأخرى الذين عبروا المحيط الأطلنطي في ظل ظروف بالغة القسوة طمعًا في بريق الذهب الأصفر. ولم تكن تلك الرحلة سهلة، ولم يكن البحث عن الذهب في الأرض الجديدة غريبًا أمرًا ميسورًا، فلقد لقى نحو ٢٠٪ من هؤلاء حتفهم، إما نتيجة للإصابة بأمراض الكوليرا والملاريا، أو أمراض سوء التغذية، أو نتيجة لأعمال العنف الدموي التي اشتهر بها هؤلاء المغامرون في الغرب الأمريكي حيث سادت بينهم شريعة الغاب بلا رادع من أي قانون سوى منطق القوة والنهم والجشع من أجل مزيد من الذهب والثروة.

وهكذا كتبت تلك الهجرة بداية التاريخ لولاية كاليفورنيا الأمريكية والتي أصبحت الآن أغنى الولايات الأمريكية وأكثرها تحررًا وتقدمًا، فهي معقل صناعة السينما، وموطنا لنجوم هوليوود، ومقرا للصناعات المتقدمة بدءًا من التكنولوجيا الحيوية وانتهاءً بصناعات الالكترونيات والاتصالات في وادي السليكون الشهير.

وتمر نحو مائة وخمسين عامًا أو تزيد قليلاً منذ اندفع هؤلاء المغامرون إلى الغرب الأمريكي بحثًا عن الذهب داسوا خلال اندفاعهم الجشع على كل ما اعترض طريقهم. فهل يا ترى يعيد التاريخ نفسه الآن لنرى موجة جديدة من أحفاد هؤلاء الأفاقين تندفع هذه المرة نحو المشرق العربي بحثًا عن الذهب الأسود. أتوا يحملون معهم كل ما في جعبة آلة الحرب الأمريكية من أسلحة للدمار والخراب، أتوا يدقون أبواب عاصمة الرشيد تحت شعار تحريرها من قبضة صدام حسين، لكنهم في الحقيقة أتوا ليضعوا أيديهم على منابع الذهب الأسود في منطقة تحوي تحت رملها ومياهها نحو ثلث مخزون النفط في العالم. بعد كل تلك السنين، وفي غيبة من الزمن، سطا حفنة من المغامرين ورجال الأعمال على مفاتيح القوة في البيت الأبيض، وراحوا منذ اللحظة الأولى يخططون للاستيلاء على مقدرات الثروة في العالم مستلهمين في ذلك روح الأجداد الأوائل، تساندهم الشركات الأمريكية العملاقة التي أتت بهم إلى مقاعد السلطة في واشنطن.

الولايات المتحدة البترولية

في دولة يعيش الناس فيها ويصحون وينامون على استهلاك البترول، حيث نصيب المواطن الأمريكي منه يتعدى عشرة أضعاف نظيره في أي بقعة من العالم، وحيث سعر جالون البنزين في محطات التموين يمثل لهم كل صباح اهتمامًا يفوق أي اهتمام آخر بأحوال الدنيا والعالم.

في تلك الدولة الأكبر استهلاكًا للبترول في العالم (نحو ٢٧٪ من الاستهلاك العالمي) تصبح قضية البترول والطاقة هي أم القضايا، ويصبح توفير البترول بسعر رخيص هو محور السياسة للجالسين في البيت الأبيض والمخابرات الأمريكية والبنتاجون.

في شهادة أمام الكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٩، صرح الجنرال أنتوني زيني قائد القوات المركزية الأمريكية، أن منطقة الخليج بمصادرها البترولية الهائلة تعد ذات قيمة حيوية للمصالح الأمريكية في المدى البعيد، لذا - ولازلت أنقل عن الجنرال الأمريكي - فإن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون لها حرية الوصول لتلك المصادر، وتطوع بنفسه لشرح ماذا يقصد بحرية الوصول، وقال بمعنى السيطرة على تلك المصادر اقتصاديًا وعسكريًا. وهكذا دون أي مواربة شهد شاهد منهم بأن السيطرة على منابع البترول في الخليج كانت هدفًا استراتيجيًا للسياسة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. فحتى عام ١٩٧١ كانت بريطانيا تقوم بدور الشرطي الحارس لتلك الثروة في منطقة الخليج، أما الآن فلقد تقدمت أمريكا لتلعب نفس الدور بدعم من بريطانيا التي توارت خطوات إلى الوراء بحكم تغير موازين القوى في العالم، وارتضت أن تلعب دور التابع الأمين للقوة الأحادية المهيمنة والمسيطرة.

لذلك لم تكد تمضي أسابيع عدة على فوز بوش الابن الآتي من تكساس إلى البيت الأبيض حتى أمر بتشكيل مجموعة عمل برئاسة نائبه ديك تشيني وكانت المهمة صياغة سياسة جديدة للطاقة في الولايات المتحدة الأمريكية. وديك تشيني هذا كان قبل أسابيع عدة من توليه منصب نائب الرئيس الأمريكي يشغل منصب الرئيس لواحدة من أكبر شركات الخدمات البترولية في العالم (شركة هاليبرتون)، كما أن باقي المجموعة الحاكمة في البيت الأبيض قد جاءوا من تكساس معقل صناعة البترول الأمريكية بعد أن ساندت حملتهم الانتخابية دولارات البترول التي ساهمت بها الشركات الأمريكية التي تسيطر على مقدرات صناعة البترول في العالم، تلك الشركات كانت ولازالت تقف بضراوة ضد أي محاولة لتهميش دور البترول كمصدر رئيسي للطاقة في العالم منذ اكتشافه وحتى يومنا هذا مهما كانت المبررات بيئيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

النفط مقابل الدماء!

سياسة جديدة للطاقة في أمريكا:

وضع ديك تشيني سياسة جديدة للطاقة في أكبر دولة مستهلكة لها في العالم، تلك الدولة التي تعتمد بالدرجة الأولى على البترول، والتي زادت وارداتها منه لتصل حاليًا لنحو ١٠٠ مليار دولار أمريكي سنويًا، وتشير التقديرات المستقبلية إلى أن تلك الواردات ستصل لنحو ٥٠٠ مليار دولار عام ٢٠٢٠.

فإذا علمنا أن نسبة كبيرة من تلك الواردات (٣٠٪) سوف تأتي من منطقة الشرق الأوسط، تلك المنطقة التي يتزايد فيها العداء والكراهية للولايات المتحدة الأمريكية يومًا بعد يوم كنتيجة طبيعية للسياسة الظالمة وغير العادلة التي تساند من خلالها إسرائيل على طول الخط. والتي أطلقت من خلالها يد القوة الغاشمة في إسرائيل لكي تمارس كل أنواع الانتقام والبطش بالشعب الفلسطيني الأعزل، الذي تم الاستيلاء على أرضه ونهبت ثرواته بمباركة مستمرة من الحكومات المتعاقبة في واشنطن.

وتعترف سياسة لطاقة التي وضعها ديك تشيني بأن جهود ترشيد الاستهلاك، ومحاولات تنمية مصادر الطاقة المتجددة صديقة البيئة لن تفلح في مواجهة الطلب المتزايد على الطاقة في المستقبل، لذا فإن الحل هو زيادة المعروض من خلال بناء محطات جديدة وزيادة المعروض من منتجات البترول، ولتذهب صيحات حماية البيئة إلى الجحيم. ولم يكن ذلك بالشيء الغريب على المراقبين. فلقد وقف لرئيس الأمريكي بنفسه في مارس عام ٢٠٠١ ليزف للعالم نبأ انسحاب أمريكا من بروتوكول كيوتو الذي يدعو إلى خفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون المسبب لواحدة من أكبر مشكلات البيئة العالمية، ألا وهي قضية تغير المناخ.

وكان ذلك إشارة البدء بالتزام الإدارة الجديدة في واشنطن بدعم صناعة البترول وشركاتها التي أصبحت تؤثر بشكل مباشر في عملية صنع القرار في البيت الأبيض، ولم تمض سوى شهور على ذلك، حتى وقف الوفد الأمريكي بشدة ضد أي محاولة لتشجيع استخدام الطاقات المتجددة النظيفة، وكان ذلك أثناء انعقاد قمة التنمية المستدامة التي عقدتها الأمم المتحدة في ديسمبر من عام ٢٠٠٢ بمدينة جوهانسبرج في جنوب أفريقيا. وللأسف الشديد، فلقد بلعت بعض الدول المنتجة للبترول في العالم بما فيها دول عربية الطُعم الأمريكي وراحت تساند موقف الولايات المتحدة، بل لقد بلغت المأساة ذروتها حينما ساند الوفد العراقي في هذا المؤتمر الموقف الأمريكي دعمًا لصناعة البترول العالمية.

اقرأوا التاريخ:

منذ نحو عشرين عامًا كانت السياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط ترتكز بشكل أساسي على ضمان إمدادات البترول إلى شرايين الاقتصاد الأمريكي، فكان دعم صدام حسين ضد إيران وجر الدولتين في حرب مدمرة استمرت نحو عشر سنوات استنفدت فيها عائدات البترول لصالح شركات السلاح الأمريكية، ثم جاءت حرب الخليج الثانية حينما اعتدى النظام العراقي على دولة الكويت، فكانت فرصة ذهبية أخرى لا أقول استغلها مخططو السياسة الأمريكية لتثبيت الوجود العسكري الأمريكي قرب منابع البترول، بل لا أكون مبالغًا لو قلت أن تلك الفرصة قد تم التخطيط لها لدعم استراتيجية بعيدة المدى للبقاء في تلك المنطقة من العالم لسنوات طويلة قادمة.

لقد بلغت مبيعات السلاح الأمريكي لدول الشرق الأوسط خلال الفترة من ١٩٩٠ وحتى ٢٠٠١ نحو ١٠٠ مليار دولار أمريكي، تم سحبها من عائدات النفط العربي ومعها قيمة فواتير حرب تحرير الكويت لتضخ في شرايين الاقتصاد الأمريكي الذي عاش خلال سنوات إدارة كلينتون أزهى فترة في تاريخه.

وفي تلك الفترة تغاضت الولايات المتحدة الأمريكية أكبر داعية أو مدعية لحقوق الإنسان والديمقراطية، تغاضت تلك الداعية عن الجرائم التي تُرتكب في حق الشعوب العربية والإسلامية لا لشيء إلا من أجل الإبقاء على استقرار مصنوع تسانده واشنطن ويتم بالتوازي معه تنفيذ مسلسل من التسويف والخداع والمماطلة لحل مشكلة الشعب الفلسطيني حتى يتم إحكام قبضة إسرائيل على الأراضي المحتلة بينما النظم العربية غارقة في أوهام السلام.

وبعد عشر سنوات من الحصار والتجويع والإذلال لشعب العراق الصامد تملأ أمريكا العالم ضجيجًا عن ضرورة نزع أسلحة الدمار الشامل من العراق وتغيير نظام الحكم في بغداد تحت دعاوى وأكاذيب ساذجة لم تعد تنطلي على أحد في العالم.

كل ما هنالك أن المستعمرين القدامى وأصحاب المصالح من شركات البترول لازالت تغذي تلك النزعة النهمة للسلب والنهب لكي تستعيد سيطرتها على بترول العراق، الدولة التي تمتلك تحت أرضها نحو ١١٪ من إجمالي المخزون العالمي، وتشير تقديراتهم إلى أن ذلك الرقم سيقفز في المستقبل لكي يصل إلى نحو ٢٥٪ من جملة الاحتياطي في العالم، وما العراق سوى بوابة للخليج وباقي دول المنطقة التي كانت دائمًا هدفًا للأطماع الاستعمارية.

أما منظمة «أوبك» فإن دورها للأسف الشديد يتقلص يومًا بعد يوم وبعد أن كانت تستهدف الدفاع عن مصالح أعضائها من الدول المصدرة للنفط، ومنها ٧ دول عربية، تحول بها الحال لكي تكون أداة لضمان ضخ مزيد من النفط في شرايين الاقتصاد العالمي حتى أثناء دوي الصواريخ والقنابل في كل أنحاء العراق. فلم نسمع من أوبك وأعضائها سوى تأكيد الالتزام بضمان عدم حدوث أي نقص في إمدادات البترول العالمية أثناء الحرب الظالمة على العراق، وهكذا تحول البترول العربي من سلاح في يد العرب إلى سلاح في يد أعدائهم يرتد إلى صدورهم، وكان ذلك الموقف المتردي لمنظمة الأوبك نتيجة حتمية لكل السياسات التي تبنتها الدول الصناعية المستهلكة للبترول منذ صدمة الطاقة في أكتوبر عام ١٩٧٣، ولتي هدفت إلى تهميش دور الأوبك حتى تحقق لها ما أرادت. أما منظمة «الأوابك» التي تضم الدول العربية المصدرة للبترول في إطار الجامعة العربية فلا أسكت الله لها صوتًا، فلم نسمع عنها أو منها أي همسة كما لو كان قد أصابها صاروخ أمريكي في مقتل.

ولو حدث - لا قدر الله - أن سيطرت الولايات المتحدة على بترول العراق وربما باقي المنطقة فإن ذلك يعني النهاية لأوبك وأوابك وكل تلك المنظمات الهشة التي انكشفت عند أول صاروخ انطلق ليصيب هدفًا في بغداد. فلا هم قادرون على السيطرة على معدلات الإنتاج ولا هم قادرون على تحديد الأسعار، ولاهم قادرون على دعم مصالحهم في مواجهة قوى الشر والعدوان.

وأخيرًا..

هل تصبح تلك الحرب الظالمة على العراق بداية لفرض السيطرة الأمريكية على بترول الشرق الأوسط ومقدراته وتغيير خريطته لصالح القوى الاستعمارية والصهيونية؟

هل تصبح تلك السياسة الأمريكية المفضوحة بداية لتراجع تاريخي في جهود المجتمع الدولي من أجل حماية البيئة، تلك المسيرة التي بدأت في ستكهولم عام ١٩٧٢ مرورًا بريو عام ١٩٩٢ وانتهاءً بجوهانسبرج عام ٢٠٠٢، وهل كان انسحاب أمريكا من بروتوكول كيوتو بداية لتخلي الدولة الكبرى عن التزاماتها الدولية بسبب مصالحها التجارية والاقتصادية؟

هل معنى ذلك تراجع صناعات الطاقة المتجددة الصديقة للبيئة وتراجع كل الجهود التي يبذلها المجتمع الدولي للبحث عن بديل للطاقة يفي بمتطلبات التنمية المستدامة، وهل تراجع ذلك أمام الهجمة الشرسة لشركات البترول العالمية وغيرها من أصحاب المصالح في صناعات الفحم والسيارات وغيرها؟

هل معنى ذلك دفعة قوية لصناعة الطاقة النووية التي تراجعت بشدة منذ حادث تشيرنوبيل الشهير عام ١٩٨٦؟

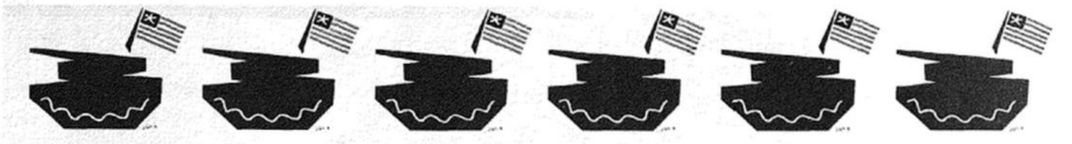
هل سيكون ذلك بداية النهاية لمنظمات الأمم المتحدة العاملة في مجالات البيئة والساعية للم شمل المجتمع الدولي من أجل مواجهة تحديات البيئة العالمية التي تعدت الحدود الجغرافية بين الدول، وأصبح لا بديل لمواجهتها عن التعاون الدولي؟

بل هل سيكون ذلك بداية النهاية للنظام العالمي الذي استقر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والذي بدأت أولى خطواته حينما تحركت الجيوش الأمريكية لضرب العراق ضد إرادة المجتمع الدولي وبدون موافقة من مجلس الأمن؟

هل سيكون ذلك نهاية لما سُمي بالنظام العالمي الجديد الذي سقطت عنه الأقنعة التي خدعتنا طويلاً أو كادت تحت شعارات العولمة وحرية التجارة وحقوق الإنسان.. وباقي القائمة والتي كانت كلها تخفي استعمارًا حقيقيًا كذلك الذي تخلصنا منه خلال الخمسين عامًا الأخيرة. فلا فارق، وكان التاريخ يعيد نفسه، ولكن هذه المرة من واشنطن، الإمبراطورية الجديدة التي تريد استرداد العروش القديمة التي سقطت وتهاوت تحت أقدام الشعوب.

أسئلة كثيرة وتداعيات مرعبة كأنها كابوس ثقيل يجثم فوق الصدور لازالت تبحث عن إجابة! ■


متواجد في مراك



الحملة على العراق أولى مراحل الاستعمار

جلال أمين

ما أكثر الفضائح التي تتكشف في أوقات الكوارث. فالمفاجأة لا تترك لأحد الوقت الكافي لتغطية نفسه وإخفاء ما هو متورط فيه. والهزة الشديدة تسقط الأقنعة التي كانت تغطي الوجوه الدميمة فيظهر قبحها للجميع.

حدث مثل هذا في مصر، كما حدث في غيرها، أكثر من مرة. فعندما وقع الزلزال الكبير في مصر في سنة ١٩٩٢، ظهر فجأة كم من المدارس والمباني الحكومية كانت قد بنيت بأسمنت مغشوش، وكم منها لم يجر ترميمه وصيانته لسنوات طويلة، رغم أن أموالاً كانت قد رصدت وقُبضت من أجل الترميم والصيانة. وعرفنا كلنا كم من الناس كانوا يسكنون بيوتًا غير صالحة للسكنى، بل وصدرت بشأنها قرارات بالإزالة، ومع ذلك استمروا في الإقامة بها وهم يدركون أن من الممكن أن تقع على رؤوسهم في أية لحظة لمجرد أنهم لا يعرفون أية طريقة للنجاة بأنفسهم في ظل إمكانياتهم المادية القاصرة، وعجز الحكومة أو امتناعها عن مساعدتهم.

حدث مثل هذا أيضًا عندما وقع الحريق المأساوي لقطار الصعيد في العام الماضي. إذ تكشف للناس فجأة بسبب هذا الحادث كيف تعيش نسبة لا يستهان بها من المصريين، وما يتعرضون له يوميًا من أخطار يعرفونها جيدًا، ولكنهم يئسوا تمامًا من أن تتخذ الحكومة أي إجراء ينقذهم منها.

حدثت مثل هذه الفضائح أيضًا عندما هجم الجيش العراقي فجأة على الكويت في ١٩٩٠، فتبين أن كل البلايين من الدولارات التي أنفقتها الكويت والسعودية على الأسلحة، لم تجلب أي نفع إلا لبائعي هذه الأسلحة، إذ لم يوفر كل هذا السلاح أية حماية للكويتيين أو السعوديين عندما جد الجد.

وقبل هذا كشفت حرب فلسطين في ١٩٤٨ عن فضيحة الأسلحة الفاسدة التي كانت تباع للجيش المصري، وكشفت هزيمة ١٩٦٧ عن أن الطائرات المصرية، عندما وقع الهجوم الإسرائيلي، كانت لا تزال في صناديقها على الأرض.

كان لابد أن نتوقع فضائح مماثلة عندما وقع الهجوم الأمريكي/البريطاني على العراق في أواخر مارس وأوائل أبريل الماضيين: وعلى الرغم من أن الهجوم كان متوقعًا من جانب الكثيرين، ولم تكفّ الولايات المتحدة عن التهديد به يوميًا لعدة شهور، فقد كان لابد أن يكون لحدث بهذا الحجم وهذه الخطورة مفاجآته وفضائحه، وأن تمتد المفاجآت والفضائح لتشمل القائمين بالهجوم والمعرَّضين له على السواء. وهذا هو ما حدث بالفعل، وما أتناوله في هذا المقال، مكتفيًا الآن بفضائح المهاجمين.

[١]

ولأبدأ بفضيحة بسيطة، كان المفروض أن يكون أمرها مكشوفًا حتى من قبل أن يبدأ أي هجوم، إذ لم يكن في الحقيقة ليعجز عن كشفها أي تلميذ صغير في مدرسة ابتدائية ولديه مستوى متوسط من الذكاء. وأقصد بذلك زعم الولايات المتحدة وأبواقها الدعائية أن الغرض من هجومها على العراق هو إرساء قواعد الديمقراطية والقضاء على الديكتاتورية. صحيح أن هذا الزعم قد تحوّل إلى فضيحة عندما رأينا ما أحدثته القوات المهاجمة من خراب وتدمير وقتل وتشريد، ثم عندما أخطرنا بعد تمام الهجوم بأن الذي سيتولى الحكم في العراق عسكريون أمريكيون بدلاً من العسكريين العراقيين، ولكن درجة العبثية وفساد الذوق في هذا الادعاء، كان من المفروض أن تكون واضحة حتى من قبل أن يبدأ الهجوم. أما كيف بدت نسبة كبيرة من الشعب الأمريكي على استعداد لتصديق هذا الزعم فهو أمر مدهش كما أنه مؤسف للغاية، ويدل على أية حال على القدرة الشيطانية التي تحوزها وسائل الإعلام. فها هو مثال آخر على الحقيقة المحزنة الآتية: وهي أنه مهما كانت الكذبة كبيرة، فيكفي أن تكررها عددًا من المرات، وبإلحاح وصوت مرتفع، حتى يصدقك عدد كبير من الناس.

كان المفروض من قبل أن نرى ما حدث من تدمير وخراب أن نعتبر كل هذا الكلام عن العلاقة بين ديكتاتورية صدام حسين وبين الهجوم على العراق من قبيل اللغو من القول الذي لا يحتاج لأدنى جهد لتفنيده.

فمنذ متى تقبل دولة كبيرة أن تضحي بالمال والعتاد، ناهيك عن أرواح أولادها، من أجل سعادة ورفاهية شعب صغير لا ينتسب إليها لا برابطة الدم ولا بالثقافة، بل ولا تكف هذه الدولة الكبيرة منذ زمن طويل، على تحقير ثقافته والإساءة إلى الأمة التي ينتسب إليها؟ وتاريخ الولايات المتحدة في تأييد نظم ديكتاتورية في العالم الثالث أطول من أن يحكى، وكذلك تاريخها في تدبير الانقلابات الدموية وغير الدموية لقلب نظم ديمقراطية من أجل مصالح مادية بحتة لشركاتها. كما أن الأدلة هي أكثر من تحصى على أن مثل هذه المصالح هي أيضاً وراء هذا الهجوم على العراق.

ثم فلنفترض جدلاً أن العراق كان قد بدأ تطبيق نظام ديمقراطي رائع منذ بضعة شهور، فهل كان هذا سيمنع الولايات المتحدة من الهجوم على العراق لاحتلال آبار البترول، أم كان من شأنه فقط أن يجعل هذا الهجوم وهذا الاحتلال أكثر صعوبة وأكثر دموية، مثلما حدث عندما قامت المخابرات الأمريكية بترتيب الانقلاب الدموي في شيلي لقلب نظام الليندي الديمقراطي الذي لم تكن ترضى عنه الشركات الأمريكية؟

كل هذا كان من الممكن استنتاجه حتى قبل أن يقع الهجوم، ولكن الفضيحة الحقيقية حدثت بعد بداية الهجوم. إذ لم تستطع الشركات الأمريكية صبرًا ولم تطق الانتظار حتى تنتهي الحرب ويتم إرساء قواعد الديمقراطية ثم تبدأ بعد هذا بتوقيع الاتفاقات وإرساء العطاءات التي تعطي الشركات الأمريكية الأولوية على





ما عداها فى اقتناص فرص الربح المتولدة عن الاحتلال، بل شرعت القوات المهاجمة فى توزيع العقود وإرساء العطاءات بمجرد دخولها أرض العراق، وأحيانًا كانت تعطى عقد المقاولة الخاص بإعادة تعمير مرفق أو إصلاح منشآت أو أنابيب حتى قبل أن يتم تدميرها، خوفًا من أن تنازع هذه الشركات شركات أخرى غير أمريكية أو لا تتمتع بنفس الحظوة لدى المسئولين عن هذا الهجوم.

ثم اشتدت الفضيحة عندما رأينا القوات المهاجمة، وقد تم احتلالها لبغداد، تفرض حراسة مشددة على وزارة البترول العراقية، حيث الوثائق والرسوم والخرط الضرورية لإحكام القبضة على البترول، ولكنها تقف متفرجة لا تحرك إصبعًا وهى تشاهد الناس وهم ينهبون متحف الحضارة العراقية وتحرق المكتبة الوطنية فى بغداد (بترتيب خاص بلا شك مع المسئولين عن الهجوم لما يحققه هذا النهب والإحراق من فوائد لا تقدر بثمن لإسرائيل على وجه الخصوص). وكأن إرساء قواعد الديمقراطية لشعب ما، شىء، وحماية الحضارة والتراث القومى لهذا الشعب شىء آخر، أو كأن تدمير نفسية الشعب بالحكم الديكتاتورى شىء وتدمير ذاكرة نفس هذا الشعب شىء آخر.

إننا لم نعهد مثل هذه الجرأة فى تجارب الاستعمار القديم، إذ كانت المصالح الاقتصادية (التى كان لها دور أساسى بالطبع) يجرى تحقيقها بدرجة أكبر من الحياء والتستر. الواضح إذن أن الخوف من الفضيحة قد أصبح أقل قوة بكثير مما كان منذ مائة عام.

[٢]

لا شك أن الفضيحة قد طالت أيضًا الأستاذين الأمريكيين فوكوياما وهانتنجتون صاحبى النظريتين الشهيرتين: نهاية التاريخ وصراع الحضارات. كان المفروض هنا أيضًا أن تكون النظريتان مفضوحتين من البداية، فالحقيقة أن منطقهما كان من الهزال والضعف بحيث إنه لم يكن يجدر بالمثقفين أن يعاملوهما بكل هذا الاحترام والاهتمام، وعلى الأخص لم يكن يجدر بمثقفى العالم الثالث، والعالمين العربى والإسلامى على وجه الخصوص، أن يقعوا بهذه السهولة فى هذا الفخ الذى نصب لهم، فيرددون مع غيرهم كل هذا الكلام الغريب عن نهاية التاريخ وصراع الحضارات.

كان المفروض أن يكون واضحًا من البداية أن الترويج لمقولة «نهاية التاريخ» كان بمثابة احتفال فكرى بانتصار الولايات المتحدة فى الحرب الباردة وسقوط المعسكر الاشتراكى، يقول فيه المنتصر إنه «ها قد اتضح أننى كنت دائمًا على صواب، ولا مجال بعد الآن للشك فى أن نظام الحرية السياسية والاقتصادية الذى أحمل لواءه هو النظام الأصلح، بل هو النظام الوحيد الصالح». ولكن حتى لو كان البعض قد انخدعوا بهذه المقولة فى نهاية الثمانينيات، عندما سمعنا عن نهاية التاريخ لأول مرة، فهل يجوز هذا الآن، بعد أن أخذت الولايات المتحدة تتصرف فى العالم وكأنها صبى أهوج مجنون، وتقيد الحريات وتراقب تصرفات الناس فى داخل الولايات المتحدة وكأنها قد عادت إلى أسوأ أيام المكارثية؟ ثم ها هى تقوم بالهجوم على العراق غير عابئة باحتجاج ملايين المعترضين فى داخل الولايات المتحدة وخارجها، فى سبيل مصالح ضيقة لشريحة صغيرة جدًا من الممسكين بمقاليد القوة والمال. هل يمكن لفوكوياما أن يقف الآن ويقول نفس الكلام عن «نهاية التاريخ» بنفس الثقة التى كان يقوله بها منذ عشر سنوات؟

أما عن «صراع الحضارات»، فأين هو بالضبط صراع الحضارات فى هجوم الولايات المتحدة وبريطانيا على العراق؟ إذ لو كان الذى حدث بينكم وبين صدام حسين هو حقًا «صراع حضارات»، أكان من الجائز أو المتصور أن تقفوا إلى جانبه وتصادقوه إلى هذه الدرجة وتدعموه بالسلاح والعتاد مادام يشن حروبًا فى صالحكم، ثم تضربونه وتضعون نهاية لنظامه عندما تتطلب مصالحكم نظامًا مختلفًا؟ هل تسمية هذا الذى حدث «بصراع الحضارات» هى أنسب تسمية ممكنة، بينما الصراع هو عادة بين طرفين متقاربين فى القوة؟ هل هو صراع حضارات ذلك الذى ينتهى بفقدانكم نحو مائة جندى وفقدان العراق لعشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال؟ وأى شىء مما حدث من جانبكم أو من جانب العراق، كان يعبر ياترى عن قيم حضارة بعينها؟ هل كان ضربكم للعراق حماية للحضارة الغربية وتظاهر صدام حسين بالحرب حماية لحضارة عربية أو إسلامية؟ أم أن إقحام لفظ «الحضارة» فى الأمر كان مجرد عمل من أعمال الدعاية استدرج إليه للأسف عدد لا بأس به من المهتمين بالشئون الثقافية؟

[٣]

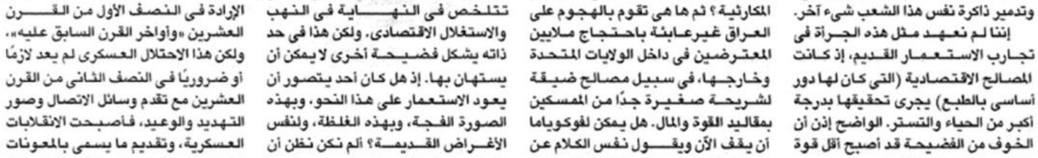
لم يكن ما حدث فى العراق إذن أكثر أو أقل من هجمة استعمارية جديدة من طرف مدجج بأحدث أنواع السلاح، على طرف تم التأكد من تجريده من السلاح قبل أن يبدأ الهجوم، ولأهداف لا تختلف قط عن الأهداف المعروفة والمشهورة لأى هجوم استعمارى عبر التاريخ، والتى تتلخص فى النهاية فى النهب والاستغلال الاقتصادى. ولكن هذا فى حد ذاته يشكل فضيحة أخرى لا يمكن أن يستهان بها. إذ هل كان أحد يتصور أن يعود الاستعمار على هذا النحو، وبهذه الصورة الفجة، وبهذه الغلظة، ولنفس الأغراض القديمة؟ ألم نكن نظن أن الاستعمار قد انتهى إلى غير رجعة منذ نحو خمسين عامًا، وحصلت البلاد المستعمرة على استقلالها وأصبحت تتمتع بكل مظاهر السيادة، وتعبر عن رأيها الحر المستقل فى الهيئات الدولية، وتقف موقف الند للند أمام الدول الاستعمارية القديمة فى المنظمات والمحافل الدولية؟

المؤكد أننا خُدعنا فى هذا أيضًا، وأن الأمر كله يحتاج إلى إعادة نظر. فعندما ننظر إلى القرن العشرين بأكمله، فى ضوء تصرفات الولايات المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية، وعلى الأخص فى أعقاب حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، نجد أن تاريخ ذلك القرن المنصرم يتخذ شكلاً مختلفًا إلى حد كبير عما كنا نتصوره من قبل. وهذا فى حد ذاته ليس بالجديد، فما أكثر ما تطلب حادث جديد إعادة النظر فى حقبة تاريخية بأكملها، وما أكثر ما ألقى حادث ما من ضوء جديد تمامًا على أحداث ماضية. ولكن الذى نراه الآن، تحت هذا الضوء الجديد، ليس شيئًا سارًا بالمرة، وإن كان علينا ـ شئنا أم أبينا ـ أن نعد أنفسنا لقبوله.

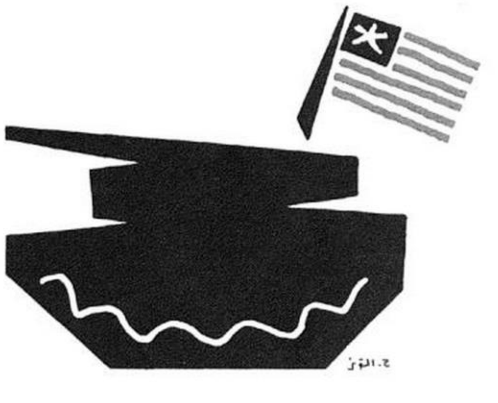
ذلك أن ما سمى بحصول دول العالم الثالث على استقلالها فى منتصف القرن العشرين، أى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، يبدو الآن أنه كان صوريًا إلى حد بعيد، وقصير العمر بأكثر مما نتصور، وأن الفرق بين حال الدول المسماة بدول العالم الثالث خلال النصف الثانى من القرن العشرين وبين حالها خلال النصف الأول، لم يكن يتعلق بالضبط باستقلال الإرادة أو فقدانها، بل كان يدور فى الأساس حول صور فقدان الإرادة، أو بعبارة أخرى حول الطريقة التى يجرى بها فرض إرادة على أخرى.

كان الاحتلال العسكرى، كما هو معروف، هو الطريقة الأساسية لفرض الإرادة فى النصف الأول من القرن العشرين «وأواخر القرن السابق عليه»، ولكن هذا الاحتلال العسكرى لم يعد لازمًا أو ضروريًا فى النصف الثانى من القرن العشرين مع تقدم وسائل الاتصال وصور التهديد والوعيد، فأصبحت الانقلابات العسكرية، وتقديم ما يسمى بالمعونات الأجنبية أو منعها، طريقة فعالة لتحقيق نفس الأغراض القديمة. فبدلاً من الاحتلال العسكرى أصبح من الممكن الوصول إلى نفس النتائج عن طريق حكام محليين لهم كل سمات الحكم الوطنى المستقل (بل وأحيانًا حتى التمرد على الاستعمار) وبمساعدة من بعض المؤسسات الدولية كصندوق النقد والبنك الدولى.

استمرت هذه الطريقة فى إخضاع دول العالم الثالث طوال عمر الحرب الباردة التى انتهت قرب نهاية القرن العشرين، ولكن حدثت خلال هذه الفترة تطورات خطيرة ومذهلة أوجدت وسائل



جديدة، ومذهلة بدورها، جعلت من الممكن تحقيق نفس الأهداف القديمة للاستعمار بطرق أقل كلفة فيما يتعلق بالأرواح «على الأقل أرواح جنود الدولة الاستعمارية» كما أن نتائجها مضمونة أكثر، وأكثر ملاءمة لما حدث من تطور فى أفكار الناس وقيمهم. ربما كان من اللازم استخدام بعض التحركات العسكرية وبعض الصور المحدودة من الاحتلال العسكرى، وكذلك قد يكون من اللازم تنصيب حكومة عميلة تتلقى التوجيهات مباشرة من الخارج، ولكن الجديد فى وسائل التحكم عن بُعد هو ما أصبحت تتيحه ثورة الاتصالات والمعلومات بدرجة غير مسبوقة، خلال العشرين سنة الماضية، من قدرة على التحكم فى المعلومات



والأفكار والمشاعر بدرجة عالية من الكفاءة والسرعة، عن طريق استخدام الصوت والصورة.

انظر كيف سمح هذا التطور بتحقيق نفس الأهداف القديمة بطريقة أسهل وأرخص وذات نتائج مضمونة أكثر. كان إسكات رأى المعارضين للاستعمار (سواء المعارضين فى البلاد الخاضعة للاستعمار أو فى داخل الدولة الاستعمارية نفسها) يعتمد على استخدام السلاح استخدامًا مباشرًا: دكّ حصون البلاد المطلوب فتحها؛ وإطلاق الرصاص على المتظاهرين أو إيداعهم السجون. أما فى ظل «الاستقلال» الذى حصلت عليه دول العالم الثالث فى النصف الثانى من القرن العشرين، فلم تعد الدولة الاستعمارية فى حاجة، من أجل إسكات المعارضين، إلى استخدام السلاح إلى هذه الدرجة ولا إلى نقل الجيوش من مكان لآخر. كان إسكات المعارضين يتم عن طريق استخدام حكام محليين، يحققون للمستعمر نفس الأغراض القديمة ولكن فى ظل شعارات وطنية ومستقلة، ويجرى ترويضهم، عند اللزوم، بالمعونات الاقتصادية، كما يجرى عزلهم، عند الضرورة، بانقلاب عسكرى جديد. أما على الساحة الدولية، فقد كان الأمر يبدو فى صورة مشرقة تمامًا: دول مستقلة تتعامل مع دول كانت استعمارية فى الماضى ولكنها لم تعد كذلك، والجميع لهم نفس الحق فى التصويت فى هيئات الأمم المتحدة وهيئات التمويل الدولية أو الهيئات المنظمة للتجارة العالمية.

كل هذه الوسائل القديمة لازالت مفيدة، بل وأحيانًا لاتزال ضرورية، ولكن كلاً منها أصبح الآن يتعرض لمصاعب ويخلق متاعب لابد من مواجهتها. فإرسال جيوش الاحتلال بأعداد غفيرة لم يعد أمرًا مقبولاً بالدرجة التى كانت فى الماضى، إذ أن أرواح الجنود أصبحت أغلى على النفس وأعلى سعرًا مما كانت، بل حتى أرواح الناس فى بلاد العالم الثالث نفسه أصبح ينظر إليها الآن نظرة مختلفة عما كان سائدًا فى الماضى، مع انتشار الشك فى تفوق عنصر بشرى على عنصر آخر. أما استخدام حكام محليين لتأدية نفس الأغراض فهو أقل كلفة بالطبع من الاحتلال العسكرى المباشر، وهو وسيلة لا يمكن فى الحقيقة الاستغناء عنها، وإن كان من المفيد دائمًا أن تصبح أكثر دقة ونتائجها أكثر إحكامًا.

لقد أتاحت ثورة المعلومات والاتصالات الفرصة لتحقيق هذه الدقة المطلوبة ولزيادة درجة الإحكام فى النتائج المرغوب فيها، مع الاحتفاظ بنفقات الاستعمار عند أقل مستوى ممكن.

فكما يحدث فى الفيلم السينمائى من استخدام حيل بصرية وسمعية تجعل من الممكن إيهام المتفرج بوجود آلاف مؤلفة من الناس فى ميدان واسع، بينما الحقيقة هى أن التصوير يجرى لعدد محدود من الأفراد، فى جزء صغير من الأستوديو، يمكن أيضًا الإيهام بقيام حرب ضروس يقع فيها ضحايا كثيرون وتسال فيها أنهار من الدماء، مع أن الحقيقة لا تزيد على مقتل عشرة أو عشرين شخصًا من أفراد الجيش القائم بالهجوم (بعضهم أصيب برصاص أطلقته أيد «صديقة»)، وذلك بالاستخدام الملائم لحيل صوتية وبصرية مما أصبح الآن متاحًا نتيجة لثورة المعلومات والاتصالات. ولكن الأغرب والأفدح من هذا هو ما أصبح من الممكن صنعه مع «العدو» نفسه. إن وجود عدو أمر ضرورى بالطبع ولا غنى عنه، إذ كيف تبرر عملية الاعتداء كلها بدون وجود عدو؟ وهو عدو لابد أن يصور بأنه شرس وماكر إلى أبعد حد، وذو قوة أسطورية ويتحكم فى وسائل للدمار يصعب وصفها أو الإحاطة بتفاصيلها أو تحديد مكانها. هذا هو ما يجب قوله للناس وإلا فكيف يبرر إنفاق هذه المبالغ الطائلة على السلاح والعتاد، وكيف تبرر الطلبات المتتالية إلى الكونجرس لاعتماد مبالغ طائلة جديدة يذهب معظمها بالطبع فى صورة أرباح للشركات ذات الحظوة والنفوذ؟ ولكن من المهم مع ذلك ألا يكون هذا «العدو» بهذه الشراسة والمكر وكل هذه القوة فى الحقيقة. إذ لو كانت له هذه الصفات بالفعل لأصبح الأمر أكثر صعوبة ولأصبحت تكاليف الاستعمار أعلى بكثير.

الأمر المذهل حقًا هو أن نفس هذه الثورة فى المعلومات والاتصالات قد جعلت من الممكن جدًا الجمع بين هاتين الصفتين المتناقضتين: الشراسة والمكر والقوة الأسطورية من ناحية، والوداعة والمسالمة وسهولة الانقياد من ناحية أخرى. إذ ماذا لو استطعنا التحكم فى تصرفات هذا «العدو» على نحو يجعله يأتمر بأمرنا فى كل كبيرة وصغيرة من ناحية، ونجعل صورته تبدو على الملأ وكأنه شيطان رجيم من ناحية أخرى؟ بهذا ننفى أى خطر قد يأتى من وقوع قتال فعلى وطبيعى بين الطرفين، ومن انحراف مسار الأحداث عن المسار المرسوم مقدمًا، ونضمن فى نفس الوقت كسب رضا المتفرجين وتخفيض أصوات المعارضين إلى الحد الأدنى.

شىء شبيه جدًا بهذا هو فى رأيى ما حدث فيما سمى «بالحرب» التى دارت فى العراق. لم يكن الطرفان فى الحقيقة إلا طرفًا واحدًا يقوم بدورين مختلفين، كما يحدث أيضًا فى الفيلم السينمائى حيث يظهر الممثل الواحد فى صورتين مختلفتين وبرداءين مختلفين، وكأنه شخصان يجلسان متجاورين ويحادث أحدهما الآخر. وقد توفرت للقصة كافة عناصر التشويق والإثارة المطلوبة والتى تحقق فضلاً عن التشويق والإثارة بعض الأغراض الثانوية.

فقد أثير الحماس فى البداية وكأن القصة يمكن أن تنتهى بانتصار الطرف الأضعف، ثم سرعان ما أُنهى هذا الجزء من القصة خوفًا من أن يثير آمالاً من الخطر أن تزيد على حد معين، فإذا بالإحباط النهائى يفوق أى إحباط (إذ أن الإحباط الذى يأتى فى أعقاب ارتفاع فى مستوى الآمال يكون أشد منه عندما يكون الأمر ميئوسًا منه فى البداية). وهذا الشعور بالإحباط مطلوب لأنه يسهل مهمة ترسيخ الوضع الجديد الذى يعاد فيه ترتيب كل شىء.

أما «العدو» الأسطورى، الشرس جدًا والماكر للغاية، وصاحب القوة الأسطورية وأسلحة الدمار الشامل، فقد ظهر أنه لم يكن ينوى القتال طويلاً، بل لا ينوى القتال على الإطلاق، مما لابد أن يثير الدهشة الشديدة لدى من لا يقبل التفسير المتقدم، إذ كيف يكون الرجل بتلك الدرجة الخارقة من الشجاعة قبل ساعات من بدء الحرب (بل وخلال أيامها الأولى)، ويدلى بتصريحات مدهشة عن المقاومة والصمود، ثم يكفّ هكذا فجأة عن عمل أى شىء مع أنه كان فى مقدوره (مهما كان ضعفه الحقيقى) أن يفعل الكثير ولو على سبيل إنقاذ ماء الوجه؟

ثم يختفى هذا «العدو» فجأة وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، ويزول كل أثر له، باستثناء بعض المقاعد الوثيرة التى جلس عليها بعض الجنود المهاجمين وهم يدخّنون السيجار (وقد ظهروا فى صورة أقرب إلى ما نراه فى فيلم ذى جو كافكاوى مخيف)، أو على المسرح فى مسرحية بارعة الإخراج). كما يستمر ترديد اسم هذا العدو الشرير كرمز للشيطان نفسه، الواجب التصدى له والبحث عنه، كما حدث من قبل لرجل مماثل يسمى «أسامة بن لادن».

[٤]

أما الفضيحة الرابعة فهى تلك المتعلقة «بالحضارة الغربية»، لقد



اقترنت الحضارة الغربية منذ نشأتها منذ نحو خمسة قرون بشن الحروب الاستعمارية بين الحين والآخر، جريًا وراء الربح، سواء كان الربح من وراء الاستيلاء على أراضي الغير وطرده منها أو إبادته، كما حدث في الفتح الأوروبي لأمريكا الجنوبية والشمالية، أو الحصول على أيد عاملة رخيصة، كشن الحملات على أفريقيا لاصطياد الآدميين وإرسالهم إلى القارة الأمريكية حيث يجرى تشغيلهم كعبيد، أو الحصول على مواد أولية رخيصة وفتح أسواق جديدة أمام فائض السلع الصناعية، كما هي الحال في سائر الهجمات الاستعمارية الأوروبية والأمريكية على أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

لقد اقترنت الحضارة الغربية منذ نشأتها كذلك بالحروب فيما بين الدول الأوروبية نفسها، ثم انضمت إليها الولايات المتحدة في القرن العشرين، سعيًا وراء أهداف ليست أفضل من الناحية الأخلاقية من الهجمات الاستعمارية. ولم يعد خافيًا على أحد أن الشعارات التي اقترنت بها هذه الحروب أو تلك كانت دائمًا شعارات زائفة تستخدم لإخفاء أهداف دنيئة.

لم يعد أحد الآن يصدق أن استعمار بلاد أفريقيا أو آسيا كان بغرض تمدين أهالي هذه البلاد، أو نشر الحضارة بينهم أو حماية الأقليات، كما لم يبق كثيرون الآن ممن يصدقون أن الحربين العالميتين في القرن العشرين كانتا بغرض الانتصار للديمقراطية ودحر النازية والفاشية، أو أن الحرب الباردة في ذلك القرن كانت منافسة شريفة بين أيديولوجيتين: الرأسمالية والاشتراكية. وإنما يعرف الجميع الآن أو يجب أن يعرفوا أن كلتا الأيديولوجيتين كانت تستخدم لتغطية أهداف أخرى تتعلق إما بالكسب الاقتصادي أو توسيع مناطق النفوذ.

كان كل هذا يلقي بظلال كئيبة وقاتمة للغاية على الحضارة الغربية دفعت عددًا من الكتاب والمفكرين الغربيين أنفسهم إلى التعبير عن شعورهم بالإحباط الشديد وخيبة الأمل إذ يكون هذا هو مصير حضارة عُلقت عليها كل هذه الآمال الكبرى منذ حركات التنوير المتفائلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وإذ يرون أن هذه النهاية العبثية هي منتهى ما وصلت إليه العقلانية في الغرب، وأن يكون هذا التقدم في إنتاج الأسلحة وإلقاء القنابل، بما في ذلك القنابل النووية على شعب كان قد استسلم بالفعل، هو أقصى ما يمكن أن يتفتق عنه التقدم العلمي والتكنولوجي، وأن يكون نشر الأفكار النمطية واستخدام الدعاية الفجة هو أقصى ما يتفتق عنه كل هذا التقدم في جمع ونقل المعلومات وفي تسهيل الاتصال بين الناس.

كان كل هذا هو ما دفع كتابًا ومفكرين من أمثال شبنجلر، وهـ. ج. ويلز، وهكسلي، وأورويل، وسارتر، وكامي، وبرتراندرسل.. إلخ إلى التحذير من مصير بائس للبشرية إذا استمر سير الحضارة الغربية في هذا الاتجاه، وهو أيضًا ما جعل المهاتما غاندي يجيب ساخرًا على سؤال لصحفي بريطاني عن رأيه في الحضارة الغربية، بقوله: «إنها لتكون فكرة طيبة جدًا، لو كان بالإمكان تحقيقها!» (It Would be a very good idea!). ما الجديد إذن مما يمكن أن تكون قد جلبته هذه «الحرب» الأخيرة في العراق؟

هناك بالطبع ما سبق أن أشرت إليه من جرأة بالغة وغير معهودة وعدم اكتراث بالفضيحة، بالمقارنة بمحاولات أكثر جدية للتستر على فضائح الاستعمار في الماضي. وهناك الفجاجة والركاكة اللتان يتسم بهما الخطاب الإنشائي وتقترن بهما هذه الهجمة الاستعمارية الجديدة بالمقارنة بالخطاب الاستعماري القديم، وهو ما يشبه الفارق بين شخصية رئيس للولايات المتحدة من نوع جورج بوش (خاصة الابن) وشخصية استعمارية أخرى ولكنها أقدم بنصف قرن على الأقل، مثل رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل.

ولكن كل هذا يهون في رأيي بالمقارنة بشيء واحد أعتبره هو الطامة الكبرى فيما يحدث الآن، وقد ظهر بصورة بالغة الوضوح في هذه الهجمة الاستعمارية الأخيرة على العراق، وهو ما يشكل في رأيي أكبر فضيحة للحضارة الغربية الحديثة. وهو هذا الالتجاء غير المسبوق، في سبيل تمرير الأعمال غير الأخلاقية، وفي سبيل إسكات أصوات المعارضين، إلى استخدام وسائل غسيل المخ والتلاعب بعقول الناس إلى هذه الدرجة الشيطانية. إن هذا هو الشيء المخيف حقًا: أكثر من سلب أموال الناس، وأكثر من الاستيلاء على أراضي الغير بالباطل، وأكثر من قتل الأبرياء. إن هذا الإصرار الشيطاني على خلط الحق بالباطل، وغرس الأكاذيب في عقول الناس، ومحو ذاكرتهم، هو أسوأ ما تمخضت عنه هذه الأحداث الأخيرة في العراق. والمرء يأمل أن يكون الأمر مجرد فضيحة، إذ الفضيحة يمكن على الأقل العمل على عدم تكرارها. أما إذا تمخض الأمر عن أن يصبح هذا الأسلوب في مخاطبة الناس هو السمة الثابتة لوسائل الإعلام والاتصال، فإنه يكون بذلك قد تجاوز الفضيحة إلى ما هو أسوأ بكثير.

كتاب الزاوية



البيان والتبيين للجاحظ

يعد هذا الكتاب من أهم كتب التراث العربي خاصة في مجال إرساء قواعد الفكر البلاغي، وهو يجمع بين كونه كتابًا في الأدب بالمفهوم الواسع القديم لكلمة الأدب الذي يعني الأخذ من كل علم بطرف وكونه كتابًا في النظرية الأدبية.

والجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ولد في عام ١٦٣هـ/ ٨٦٩م في مدينة البصرة جنوب العراق واشتهر بالذكاء الحاد والذاكرة القوية والقدرة البالغة على الإنشاء الأدبي، وقد درس علوم عصره الأدبية والفكرية، كما قرأ المؤلفات الفلسفية التي تمت ترجمتها إلى العربية من اليونانية. وعاش الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية والإسلامية، عصر الخليفة هارون الرشيد وولده عبد الله المأمون.

توفي الجاحظ في البصرة عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م وترك آثارًا أدبية كبيرة ومهمة في التاريخ الفكري والأدبي الإنساني. ويقال أنه كتب ثلاثمائة وستين كتابًا في شتى ألوان المعرفة الإنسانية السائدة في عصره. وقد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق سوى القليل منها وفي مقدمتها الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والطفيليون وفضيلة المعتزلة وأخلاق الملوك ومسائل القرآن ورسالة التربيع والتدوير.

وقد أصدرت الهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر بداية العام الحالي ضمن سلسلة الذخائر كتاب «البيان والتبيين» في أربعة أجزاء وهو من تحقيق وشرح المحقق الكبير الراحل الأستاذ عبد السلام هارون.

المشكلة الكردية

هل تجد حلاً أم تزداد تعقيدًا؟

درية عونى

نكتب هذه السطور بعد أن انهار النظام العراقى ورموزه وسقطت بغداد وانتهت الحرب، أو كادت واستسلمت مدينتا كركوك والموصل بدون قتال أو مقاومة.

طيلة الأزمة التى سبقت الغزو الأمريكى - البريطانى وأثناء هذا الغزو وإلى الآن برزت القضية الكردية كأحد أهم المحاور التى تركزت حولها التحليلات والتوقعات لما سيكون عليه عراق مابعد صدام حسين.

فعندما كانت أمريكا تهيئ قواتها لفتح «جبهة الشمال» معتمدة على حليفتها الاستراتيجية تركيا وعلى قواعدها الحربية فيها بالإضافة إلى أن تركيا عضو فى الحلف الأطلسى «ناتو» انفجر أول لغم كردى عندما رفض قادة وشعب كردستان العراق شروط تركيا المجحفة للسماح للقوات الأمريكية بالمرور من أراضيها وأهمها «دخول ستين ألف جندى لحراسة المقاتلين الأكراد بعد نزع أسلحتهم، الاشتراك مباشرة فى إدارة كركوك خاصة والعراق عامة». واكتشفت واشنطن أن تركيا بالإضافة إلى الخمسين مليار دولار التى تطلبها كمساعدة تريد أن تحصل على أكثر من نصف «الكعكة» التى حشدت لها أمريكا كل هذه القوات ودخلت فى عداوة مع معظم سكان الكرة الأرضية وترفض أن يشاركها فيها أحد حتى حليفتها بريطانيا.

ما هى الأسباب التى أدت إلى أن تحتل القضية الكردية هذا الحيز الكبير عل مسرح الأحداث؟ هل ستجد المشكلة الكردية حلاً؟ وفى أى حدود؟ وهو احتمال وارد كما أن هناك سؤالاً آخر يطرح نفسه أيضًا وهو: هل ستزداد هذه المشكلة تعقيدًا خاصة إذا تفجر الجوار الإقليمى حيث توجد أقليات كردية فى جميع الدول المحيطة بالعراق (تركيا وإيران وسوريا) وهذا احتمال وارد أيضًا؟

من الصعب الإجابة عن هذه الأسئلة بدون التذكير ولو بإيجاز شديد ببعض النقاط التاريخية والجيوجغرافية والجيوسياسية المتعلقة مباشرة بالموضوع الذى نحن بصدده: سنذكر بأصول الشعب الكردى وتاريخه ووضعه حتى انهيار الإمبراطورية العثمانية: ثم نذكر بظروف نشأة الدولة العراقية الحديثة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨).

ثم نسرد بإيجاز أهم تطورات علاقة الحركة القومية الكردية مع الأنظمة العراقية المتتالية وخاصة مع النظام البعثى وصعود نجم نائب رئيس الجمهورية ثم رئيس الجمهورية العراقية صدام حسين إلى حرب الخليج الثانية أو اجتياح الكويت فى أغسطس ١٩٩٠، والتى أدت إلى نشأة إقليم كردستان وتطوره بعد أن فصله الرئيس العراقى إداريًا عن باقى العراق عام ١٩٩١، وحتى وقوع الغزو الأمريكى - البريطانى فى مارس ٢٠٠٣.

أصل الكرد

الشعب الكردى هو أحد ثلاثة شعوب أصيلة فى منطقة الشرق الأوسط، هذه الشعوب هى: الفرس - العرب - الكرد.

وهو شعب آرى من مجموعة الشعوب الهندو - أوروبية من العائلة الإيرانية، لغته الخاصة وهى اللغة الكردية ذات لهجتين أساسيتين: السورانية (يتكلم بها كرد شرق كردستان العراق وكرد إيران) والبهديانية (يتكلم بها كرد غرب كردستان العراق وكرد تركيا وسوريا).

ومن الصعب جدًا إن لم يكن من المستحيل إعطاء رقم حديث ودقيق عن تعداد الشعب الكردى، فأقل رقم يذكر من سنين هو ٢٥ مليونًا وأكبر رقم يذكر هو ٤٠ مليون نسمة وكردستان مقسمة سياسيًا فى الوقت الحاضر بين خمس دول هى: تركيا (من ١٥ إلى ١٨ مليون نسمة) وإيران (من ٦ إلى ٨ ملايين) والعراق (من ٥ إلى ٦ ملايين) وسوريا (مليون ونصف) وأرمينيا (الاتحاد السوفيتى سابقًا بضعة آلاف) وتمثل كردستان وحدة جغرافية متصلة. وهم يمثلون المجموعة العرقية الوحيدة فى العالم التى يزيد تعدادها على ٣٠ مليون نسمة والتى لم تحصل بعد على حقوقها القومية.

وتزخر المناطق الكردية بالثروات المعدنية ويأتى البترول على رأسها ويقدر احتياطى البترول فى كل أجزاء كردستان بأكثر من ٤٥ مليار برميل (أى أكثر من احتياطى الولايات المتحدة) ففى كردستان العراق يوجد البترول بوفرة فى حقول كركوك وعين زاله وخانقين وباباكركر (وهى من أغزر آبار البترول إنتاجًا).

وفى كردستان تركيا يوجد البترول فى ديار بكر وباطمان، وفى كردستان إيران يوجد فى منطقة كرمنشاه وقصر شيرين وخانه، وفى كردستان سوريا يوجد البترول فى روميلان وكراتشوك.

بجانب البترول يوجد كثير من المعادن المهمة مثل الكبريت والفوسفات واليورانيوم والذهب والنحاس والفضة والحديد، فضلاً عن أن المنابع الأساسية لنهرى دجلة والفرات تبدأ من كردستان تركيا، لذلك نجد أن أكبر السدود فى تركيا (GAP أو مشروع جنوب شرق الأناضول) وسدى «دوكان» و«دربندخان» فى العراق تقع فى أراض كردية.

أما ديانة الأغلبية العظمى من الكرد فهى الإسلام على المذهب السنى الشافعى، ويوجد حوالى ستة ملايين كردى شيعى نصفهم فى كرمنشاه (إيران) كما يوجد علويون أكراد، وينتمى المسيحيون منهم إلى الشعب الآشورى الذى حكم نينوى (الموصل الآن) قبل الميلاد ومنهم قلة تعتبر نفسها كردية.

كذلك توجد أقلية كردية يهودية هاجر معظمها إلى إسرائيل عام ١٩٤٨ وهى الآن تشكل جالية كردية يهودية تعدادها حوالى ١٠٠٠٠٠ نسمة فى إسرائيل.

وكانت معاهدة سايكس - بيكو قد أناطت ببريطانيا حكم منطقة وادى الرافدين من جنوب الموصل إلى الخليج العربى (أى ما يطلق عليه بالعراق العربى) ثم انتقلت إليها ولاية الموصل التى كانت من نصيب فرنسا بعد الحرب.

ورغم أن إنجلترا وقعت على معاهدة سيفر إلا أنها لم تطبق أى بند منها وسارت فى مخططها بإلحاق ولاية الموصل الكردية بولايتى البصرة وبغداد العربيتين وتنصيب الأمير فيصل ملكًا على العراق، وبعد عدة انتفاضات كردية للحصول على دولة مستقلة قمعتها إنجلترا بشدة وبالسلاح الكيماوى رضخ الأكراد وقبلوا بحكم ذاتى فقط داخل العراق، ففى ١٦/١٢/١٩٢٥ تحت تأثير بريطانيا وحلفائها تخذت عصبة الأمم قرارًا بضم ولاية الموصل للعراق ولكن بشرط إعطاء الأكراد حكمًا ذاتيًا وتكوين إدارة كردية واستعمال اللغة الكردية.

وبهذا انفصلت ولاية الموصل نهائيًا عن تركيا، ولكن تركيا لم تقبل حتى الآن هذا الانفصال وحاولت فى كل مناسبة استرجاعها كما حصل أثناء حرب تحرير الكويت، وكما تحاول الآن منذ بدء الأزمة العراقية ثم الغزو الأمريكى - البريطانى.

وبانتهاء الانتداب البريطانى على العراق فى ١٩٣٠ واستقلال العراق

من الصعب جداً إن لم يكن من المستحيل إعطاء رقم حديث ودقيق عن تعداد الشعب الكردى، فأقل رقم يذكر من سنين هو ٢٥ مليوناً وأكبر رقم يذكر هو ٤٠ مليون نسمة

لم تدم الفرحة طويلاً فقد نشرت الحكومة العراقية في ٧٠/٧/١٧ ومن طرف واحد مشروع الدستور المؤقت دون البند العاشر الذي يعلن أن الشعب العراقي مكون من شعبين (العربي والكردي) واستمر النظام في تهجير الأكراد إلى إيران واندلعت الحرب مرة أخرى

الرسمي والاسمي أصبحت العلاقة السياسية الرسمية بين النظام العراقي وقادة الحركة الكردية علاقة مواجهة، وأصبحوا في خندقين في مواجهة مباشرة وفي حالة حرب أو شبه حرب لأكثر من ٤٠ سنة. وتطورت الحركة الكردية مع إنشاء الحزب الديمقراطي الكوردستاني عام ١٩٤٦ (المعروف بالبارتي) والذي رأسه الزعيم مصطفى البرزاني ويرأسه حاليًا ابنه مسعود البرزاني بهدف الحصول على حق تقرير المصير. وفي ١٩٥٨/٧/١٤ أطاح انقلاب عسكري بقيادة عبد لكريم قاسم بالنظام الملكي، وفي محاولة لإعادة الحياة الديمقراطية إلى العراق اعترف بالأحزاب بما في ذلك «البارتي» وظهرت ١٤ صحيفة ومجلة كردية في هذه الفترة. وتم إعلان الدستور المؤقت الجديد الذي يعيد الحياة الديمقراطية وأعلن البند الثالث منه وبصراحة أن (الشعب العراقي يتكون من قوميتين: العرب والأكراد وأنهما شركاء في هذا الوطن) وأكد الدستور على ضمان الحقوق الوطنية الكردية داخل إطار الكيان العراقي.

وساد لفترة قصيرة جو من الديمقراطية وسمح للقائد مصطفى البرزاني بالعودة من منفاه في الاتحاد السوفيتي، وساعد هذا المناخ على الإسراع في بلورة التيارات السياسية الكردية وبروز حركة قومية تحررية منظمة سياسيًا وعسكريًا مرتكزة على قاعدة شعبية.

ولكن سرعان ما نزع عبد الكريم قاسم قناعه وظهرت حقيقة ممارساته الديكتاتورية على العرب وعلى الأكراد معًا، وفي ١٩٦٠ قرر إلغاء لبند الخاص بالشعب الكردي للدستور المؤقت وأمر طائراته بدك منطقة برزان بالقنابل.

بعد هذا التصرف من قبل عبد الكريم قاسم قرر حزب «البارتي» بقيادة مصطفى البرزاني الدفاع عن الشعب الكردي، وفي يوم ١٩٦١/٩/١١ اندلعت الحرب بين السلطة العراقية والحركة الكردية وظلت هذه الحرب مستمرة مع الأنظمة العراقية المتتالية حتى عام ١٩٩١ مع فترات قليلة من الصلح والوفاق سرعان ما كانت تنتهي بانفجار جديد.

وفي ٨ فبراير ١٩٦٣ أطاح ضباط بعثيون في الجيش بحكم عبد الكريم قاسم وأعدموه وولوا عبد السلام عارف على الحكم وتم تعيين أحمد حسن البكر رئيسًا للوزراء، وصدام حسين نائبًا له.

بعد قتال عنيف بين النظام والحركة الكردية اتصل أحمد حسن البكر سرًا بمصطفى البرزاني ثم بدأت مفاوضات بينهما أدت إلى الاتفاق الشهير باتفاق «آذار ١٩٧٠» من ١٥ بندًا واعتبر كل طرف أن الاتفاق حقق له الحد المقبول من مطالبه، فالأكراد اعتبروا اعتراف الاتفاق بوجود أمة كردية شريكة في الوطن العراقي كسبًا كبيرًا كما اعتبر الحكم في بغداد التأكيد على وحدة التراب العراقي مكسبًا مهمًا.

ولكن الفرحة لم تدم طويلاً فقد نشرت الحكومة العراقية في ٧٠/٧/١٧ ومن طرف واحد مشروع الدستور المؤقت دون البند العاشر الذي يعلن أن الشعب العراقي مكون من شعبين (العربي والكردي) واستمر النظام في تهجير الأكراد من كركوك وكذلك تهجير ١٢٠ ألفًا من الأكراد الشيعة «الفيلية» إلى إيران واندلعت الحرب مرة أخرى ودار قتال شرس بين القوات العراقية والبيشمركة الكردية.

اتفاقية الجزائر مارس ١٩٧٥:

أمام احتمالات انهيار الجبهة العراقية وتقدم المقاتلين الأكراد الذين أرسلت لهم إيران كمية كبيرة من الأسلحة، سارع صدام حسين، وكان لازال نائبًا للرئيس، منع هزيمة كانت محتملة وتنازل عن السيادة العربية على أهم ممر مائي عربي في الخليج أي شط العرب مقابل منع هذه الكارثة.

فبمساعدة الرئيس الراحل بومدين ووزير خارجيته عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجزائر الآن - تمت صفقة مشينة للعرب والأكراد في الجزائر أثناء مؤتمر الأوبك - في ١٩٧٥/٣/٦، تنازل العراق عن السيادة العراقية على كل شط العرب وأن يكون خط ثالوك هو الحدود بين العراق وإيران وأن توقف بغداد حملاتها الدعائية ضد طهران، وأن تكف عن مهاجمة معاهدة فك الاشتباك في سيناء بين مصر وإسرائيل مقابل أن توقف إيران مساعداتها للأكراد وتغلق حدودها مع العراق وتشديد الحراسة عليها لمنع الأكراد من الهرب من قنابل صدام، كذلك أغلقت تركيا حدودها في وجه الأكراد مقابل تحقيق هدفين: تزويدها ببترول عراقي بأسعار خاصة وإضعاف الأكراد، انهارت الثورة الكردية تمامًا، وفي ١٩٧٥/٣/١٨ ألقى مصطفى البرزاني السلاح وقرر اللجوء إلى إيران وكانت أكبر كارثة نفسية وحربية وإنسانية عرفها الشعب الكردي في تاريخه الحديث.

في هذه الأثناء وبعد انهيار الثورة الكردية عام ١٩٧٥ نجحت الحركة الكردية في المنفى في إعادة تنظيم صفوفها، وتركت القيادة الفردية التقليدية المكان لبروز قيادات شابة وأحزاب جديدة، ففي دمشق عام ١٩٧٥ تكون الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يترأسه حتى الآن جلال الطالباني (كان لمدة طويلة من أهم معاوني مصطفى البرزاني قبل حدوث الانشقاق الكردي عام ١٩٦٤م).

أما مصطفى البرزاني والذي كان موجودًا في إيران فقد أعاد تنظيم حزبه (الحزب الديمقراطي الكردستاني) بتشكيل قيادة مؤقتة تألفت من نجليه إدريس البرزاني (توفي) ومسعود البرزاني (رئيس الحزب الآن) إضافة إلى عدد من الكوادر الشابة، وظهرت أحزاب واتجاهات جديدة مثل الاتجاه الاشتراكي والتيار الإسلامي (ففي سنة ١٩٨٤ تأسست الحركة الإسلامية الكردستانية بقيادة الشيخ عثمان عبد العزيز من قيادة الإخوان المسلمين سابقًا) وهي ليست لها علاقة بأنصار الإسلام الذين هُوجِموا في الأيام الأولى من الغزو الأمريكي - البريطاني. وقد صعدت بغداد من سياسة التهجير والتعريب إلى أن أصبحت حرب إبادة منظمة باستعمال كل أنواع الأسلحة وبالذات الأسلحة الكيماوية، في هذه الفترة أزيلت أكثر من ٤٥٠٠ قرية من على سطح الأرض، أكثر من نصف مليون كردي هجروا من كركوك إلى جنوب العراق في الصحراء وآلاف من الأكراد يقدر عددهم بـ ٣٠٠ ألف نسمة واستولت السلطات العراقية على منازلهم وأعطتها العائلات من جنوب العراق في محاولة لطمس الهوية الكردية لكركوك في ١٩٨٨/٣/١٦.

ولابد أن نذكر هنا مأساة حلبجة، فقد حررت القوات الكردية مدينة حلبجة (تقع على بعد بضعة كيلو مترات من الحدود الإيرانية) وأيقنت بغداد أن الخطر جسيم وكان رد الفعل رهيبًا وسريعًا وبموافقة ضمنية أمريكية قامت الطائرات العراقية (فرنسية الصنع) بإلقاء أطنان من المواد الكيماوية (ألمانية الصنع) على هذه المدينة الحدودية وفي ثوان كان حوالي ٦٠٠٠ (ستة آلاف) شخص أغلبهم من الأطفال والنساء ورجال مسنون (الشباب كانوا يقاتلون في الجبال) قد تجمدوا في أماكنهم وكأنهم تماثيل في متحف الرعب.

ورغم أن الصحف العالمية نشرت الصور والأخبار التي تكشف عن بشاعة المجزرة لم يمنع أحد من الغرب أو الشرق النظام العراقي من الاستمرار في استعمال الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد طيلة شهري أبريل ومايو ١٩٨٨، ولم يندد بهذه المجزرة غير عدد قليل من المثقفين العرب.

اجتياح الكويت

عندما اجتاحت القوات العراقية الكويت رفضت الأغلبية الكردية تأييد غزو الكويت وواجه الأكراد إشكالية واجهها الكثيرون

وهى الانحياز إلى أمريكا وحلفائها مع عدم ثقتهم فى النوايا الأمريكية، ولكن أمريكا حسمت الموقف عندما قررت الابتعاد عن أى حوار أو تعاون مع الأكراد خوفًا من إغضاب تركيا التى كان لها دور مهم فى حرب الخليج، وبلغ حرص أمريكا وحلفائها على عدم الاتصال بالأكراد، إلى درجة أنهم كانوا يمتنعون عن استقبال القادة الأكراد فى واشنطن أو باريس أو لندن.

وبدأ القادة الأكراد يضعون خططهم لمواجهة كل الاحتمالات سواء سقوط صدام أو قيامه بهجوم يائس على كردستان. وفى سبيل مواجهة كل هذه الاحتمالات تحرك قادة الأكراد فى العراق للتنسيق مع قادة الأكراد فى كل من تركيا وإيران، وأكد القادة الأكراد على تصميمهم على عدم تقسيم العراق ونيتهم فى عدم إقامة دولة كردية مستقلة.

وبدأوا فى مفاوضات مع المعارضة العراقية لإيجاد خيار آخر لنظام صدام. وفى دمشق يوم ٢٧/١٢/١٩٩٠ تم اتفاق ١٧ مجموعة وحزبًا عراقيًا على ضرورة الإطاحة بصدام حسين وإقامة دولة ديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وضرورة منح الحكم الذاتى لأكراد العراق.

الانتفاضة: ولادة «إقليم كردستان»

بعد هزيمة العراق فى حرب الخليج، انتفض الشعب العراقى فى الجنوب واستمرت الانتفاضة لمدة أسبوعين وبدت بغداد وكأنها غير قادرة على عمل شيء، وفى كردستان قامت انتفاضة عفوية فى ٤/٣/١٩٩١ فى مدينة «رانية»، ولكن سرعان ما انتشرت الانتفاضة فى كل أنحاء كردستان، والتحق بها القادة والمقاتلون، وبسرعة استطاع البيشمركة أن يسيطروا على عشرات المدن مثل السليمانية وأربيل ودهوك.

بعد وقف إطلاق النار مع الحلفاء وعدم تعرضهم لنظام صدام القابع فى قلعته البغدادية شعر النظام العراقى بأنه طليق اليدين داخليًا فسحق الانتفاضة فى الجنوب بوحشية منقطعة النظير، ثم اتجهت جيوشه وطائراته إلى الشمال حيث كانت مساحة تصل إلى ٨٥٪ من مساحة كردستان قد تم تحريرها خاصة مدينة كركوك.

> **بعد فشل المفاوضات فى بغداد حسم صدام حسين الوضع بجرة قلم، فقد قرر فصل إقليم كردستان إداريًا عن باقى العراق وسحب جميع الإدارات من المدن الكردية تحت الحماية وتوقف عن دفع رواتب الموظفين الأكراد وأعلن حصارًا اقتصاديًا على كل المناطق الكردية**

بعد ذلك استطاع الأكراد أن يواجهوا القوات العراقية التى لم يكن يحميها غطاء جوى بسبب حماية الحلفاء وأن يستعيدوا من القوات العراقية التى أخذت تنسحب من أهم المدن الكردية: السليمانية - أربيل - دهوك التى أصبحت تحت السيطرة الكردية لتتمركز وراء خط ٣٦، واعتقد الأكراد أن الظروف الدولية والإقليمية والداخلية مهيأة للتفاوض مع صدام، وفعلاً توحدت الأحزاب الكردية فى جبهة واحدة وذهبت إلى بغداد للتفاوض ومعها مشروع كامل حول الحكم الذاتى وفق التصور الكردى ومستندًا إلى حد كبير على اتفاق آذار مارس ١٩٧٠، بعد إضافة المسائل التى جدت (إلغاء القوانين الاستثنائية حول التعريب - رجوع المهاجرين - رجوع المفقودين خاصة ٨٠٠٠ مفقود من عشيرة البرزانى - تحديد حدود كردستان بما فيها مدينتا كركوك وخانقين) ولكن المفاوضات فشلت بعد انتظار الوفد الكردى أكثر من ٤٠ يومًا فى بغداد. وفى أثناء ذلك كانت القضية الكردية تمر من جانبها وعلى المسرح الدولى بتطورات سريعة، فقوات التحالف كانت تتخذ مواقعها فى القواعد العسكرية خاصة فى تركيا (إنجرليك) وتوفر حماية جوية للمنطقة المنحصرة ضمن خط ٣٦ والتى تشمل دهوك - الموصل - أربيل إلى أطراف السليمانية، ومنعت القوات العراقية من الدخول إلى هذه المنطقة.

بعد فشل المفاوضات فى بغداد حسم صدام حسين الوضع بجرة قلم، فقد قرر فصل إقليم كردستان إداريًا عن باقى العراق وسحب جميع الإدارات من المدن الكردية تحت الحماية وتوقف عن دفع رواتب الموظفين الأكراد (حوالى ١٥٠ ألف موظف كردى) وأعلن حصارًا اقتصاديًا على كل المناطق الكردية التى كانت تعيش أيضًا الحصار الدولى على كل العراق.

الوضع الحالى فى إقليم كردستان:

سمح قرار مجلس الأمن ٦٨٨ بوجود «إقليم كردستان العراق» وهو يضم ٦٥٪ من مساحة كردستان ولم يعترف بهذا الكيان دوليًا بطريقة رسمية، لكن كثيرًا من القادة والمسئولين وبالذات من أمريكا وأوروبا تتعامل معه ككيان شبه مستقل. وحتى الدول المجاورة التى تتقاسم كردستان والمعادية لهذا الكيان تتعامل معه على المستوى الرسمى عن طريق مكاتب للحزبين لرئيسيين الكرديين، كما زارته وفود رسمية إيرانية وتركية. ويوجد ممثلون للحزبين فى أغلب العواصم بما فى ذلك القاهرة.

ولكن الأزمة الاقتصادية الطاحنة (تحت حصار مضاعف دولى وعراقى) والوضع غير المستقل للاقليم ومناورات الدول (غير الصديقة) المجاورة ومحاولة كل فريق توسيع نفوذه.. كل ذلك فجر اقتتالاً كرديًا كرديًا أدى إلى تقسيم إقليم كردستان إلى قسمين، فسيطر حزب «الاتحاد» على أربيل والسليمانية وضواحى كركوك وسيطر برزانى على محافظة دهوك وبعض مناطق أربيل.

وبضغط من أمريكا بدأت مفاوضات بين برزانى وطالبانى أدت إلى توقيع اتفاقية واشنطن فى ١٧/٩/١٩٩٨ بإشراف مادلين أولبرايت وزيرة خارجية أمريكا بين حزبى طالبانى وبرزانى لحل المشاكل المعلقة بينهما، وأهمها توحيد الحكومتين ووضع كل الإيرادات تحت تصرف حكومة موحدة وإجراء انتخابات جديدة واستعدادًا للحرب على العراق تم تشكيل قيادة موحدة بين الحزبين فى مارس ٢٠٠٣.

وقد عملت جبهة الأحزاب الكردية منذ الثمانينيات على الاتصال بالمعارضة العراقية وعقد مؤتمرات عديدة خاصة فى دمشق ثم فى ليبيا، وبعد اجتياح الكويت اجتمعت المعارضة فى بيروت فى مارس ١٩٩١، ثم فى صلاح الدين (كردستان) فى أكتوبر ١٩٩٢ ثم مؤتمر لندن فى ديسمبر ٢٠٠٢ الذى انبثقت منه لجنة تنسيق ومتابعة اجتمعت ثانية فى صلاح الدين أواخر فبراير ٢٠٠٣ حيث تم تشكيل الهيئة القيادية للمعارضة العراقية التى تضم «مسعود البرزانى وجلال الطالبانى عن الأكراد، أحمد الجلبى عن المؤتمر الوطنى العراقى، إياد علاوى عن حركة الوفاق الوطنى العراقى، عبد العزيز الحكيم عن الثورة الإسلامية - شيعة) كما دُعِىَ عدنان الباجه جى ولكنه لم يحضر ودعى فى لندن لمؤتمر للمستقلين.

وأعلنت الهيئة القيادية أنها ترفض أى احتلال أو غزو للعراق وترفض تنصيب حاكم عسكرى أمريكى وترى تشكيل حكومة انتقالية عراقية تعد لإجراء انتخابات بعد فترة مناسبة من أجل إقامة نظام ديمقراطى برلمانى تعددى فيدرالى فى عراق موحد، كما ترفض الهيئة القيادية أى تدخل إقليمى فى شئون العراق وخاصة فى كردستان العراق.

احتمالات المستقبل:

حتى كتابة هذه السطور لم تتضح بعد النوايا الأمريكية لمستقبل العراق. وقد أكدت لى شخصيات مطلعة فى المعارضة العراقية من أكراد وعرب وشيعة وسنة انهم ايضًا لا يعرفونها وأكدوا لى أنه حتى إنجلترا ليست على اطلاع كامل بكل التفاصيل. ويبدو حسب مؤشرات كثيرة أن الجناح اليمينى المسيحى - الصهيونى فى الإدارة الأمريكية هو فقط الذى يعلم بخطوات السيناريو الأمريكى.

وأول دليل على ما نقول هو حالة

الفوضى والنهب والقتل التى سادت المدن العراقية «المحررة» والتى فاجأت الجميع وخاصة جبهة المعارضة التى كانت تعتقد أن وجود الجنود الأمريكيين سيمنع مثل هذه الفوضى التى كان يخشاها الجميع على نحو ما كان يحدث بعد كل انقلاب منذ النظام الملكى ثم نظام عبد الكريم قاسم ثم عبد السلام عارف وبعده عبد الرحمن عارف.

مع ذلك سنحاول أن نقدم السيناريوهات المحتملة للقضية الكردية فى إطار الوضع الكردى فى العراق وأيضًا فى دول الجوار (تركيا - إيران - سوريا).

السيناريو الأول: (وهو الأكثر احتمالاً)

** أن يُثبِّت الأكراد الحكم الذاتى الذى فرض عليهم منذ ١٩٩١ مع إضافة المناطق المحررة مؤخرًا من باقى الأراضى الكردية مثل خانقين وعدد من المدن التابعة لمحافظتى كركوك والموصل ماعدا مدينة كركوك داخل عراق ديمقراطى فيدرالى موحد، ونذكر هنا أن مدينة الموصل مدينة عربية لا يطالب بها الأكراد.

** إعادة الأكراد الذين هجروا فى إطار التعريب من كركوك على مدى ثلاثين عامًا وعددهم ٣٠٠ ألف نسمة وإدارتها من قبل أغلبية كردية بالاشتراك مع أقلية تركمانية عربية وآشورية عقب تحرير كركوك يوم ١٠/٤/٢٠٠٣ وأكد القادة الأكراد أنهم سوف يجعلون من كركوك نموذجًا للإخاء بين أكراد وعرب وتركمان وآشوريين. وهم يصفون كركوك بأنها مدينة كردستانية (وليست كردية) أى أنها تشمل عناصر غير كردية.

** أما آبار النفط فسوف تخضع لسيطرة المارينز الأمريكى، ولم يكن فى نية الأحزاب الكردية التى تعتبر نفسها من جبهة المعارضة العراقية، احتلال الآبار البترولية فى كركوك، لأن النظرة المستقبلية هى أن آبار البترول فى الشمال وكذلك الآبار فى الفاو فى الجنوب (وهى الأغزر ولم تستهلك مثل آبار كركوك التى تستغل منذ قرن تقريبًا) هى ملك للشعب العراقى ككل، ومن مطلب الأكراد أن يحصلوا على نسبة من كل بترول العراق حسب تعدادهم لإعمار الإقليم الذى سيكون داخل الحدود العراقية.

إن أهم المشاكل التى كانت تتحطم عليها محاولات التفاهم بين الحركة الكردية والأنظمة العراقية المتتالية كما رأينا فيما سبق هى: الاعتراف بوجود شعب كردى على أرضه شريك مع الشعب العربى فى عراق موحد، تحديد حدود كردستان، تقسيم ميزانية العراق حسب تعداد السكان، عودة المهجرين إلى كركوك، والأكراد الشيعة (الفيلية) إلى خانقين.

السيناريو الآخر: أن تتعقد المشكلة الكردية

وذلك إذا أصرت تركيا التى صرحت أكثر من مرة بأنها لا تقبل حكمًا فيدراليًا ولا حكمًا ذاتيًا لأكراد العراق «كى لا يطالب أكراد تركيا بالشىء نفسه». كما لا تقبل أن يدخل البيشمركه كركوك والموصل. وقد أعربت كل من إيران وسوريا عن قلقهما من الدور الكردى المتصاعد وبدءوا يتشاورون.

وقد حاولت أنقرة فى ضوء هذه الأزمة أن تسترد ولو جزءًا من ولاية الموصل التى انسلخت عنها عام ١٩٢٥ وانضمت إلى العراق. ولذلك حاولت إدخال أكثر من ٦٠ ألف جندى تركى «لمنع وصول البيشمركة إلى كركوك!! «ونزع سلاحهم والمشاركة فى حكم العراق، وهى تحاول بكل الوسائل تهميش الدور الكردى وتقليص حدوده. ونحن نعتقد أنه أصبح من الصعب جدًا أن تحقق ذلك، فتركيا ليس لها أى سيطرة على أكراد العراق، كما أصبح من الصعب أيضًا عليها أن تستمر فى عدم تلبية مطالب حوالى ٢٠ مليون كردى فى تركيا، فالوضع متفجر بعد أن نفد صبر الأحزاب الكردية وخاصة (حزب العمال الكردستانى) Pkk الذى اختطف رئيسه «عبد الله أوجلان» ويقبع فى سجن انفرادى فى جزيرة وسط بحر إيجه منذ ٤ سنوات. لقد تنازل هذا الحزب الذى أصبح اسمه «المؤتمر الوطنى الديمقراطى الكردستانى» (كادك) عن طلبه فى الانفصال ونبذ الكفاح المسلح فى مقابل حصوله على حقوق سياسية وثقافية داخل تركيا، ولكن تركيا لم تستجب.

المشكلة الكردية حسب أكثر السيناريوهات احتمالاً سوف تجد حلاً فى داخل العراق ولكنها ربما تتفجر فى تركيا أو سوريا أو إيران، إذا لم تسرع هذه الدول بإعطاء الحد الأدنى لأكرادها أى نوع من الحكم الذاتى أو - على الأقل - اللامركزية.

كتاب الزاوية



فى الصمت

كان أعرابى يجالس الشعبى فيطيل الصَّمت، فسئل عن طول صمته فقال: «أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم».

وقالوا: «لو كان الكلام من فِضَّة لكان السكوت مِن ذَهب».

وقالوا: مَقتل الرَّجُل بين لَحييه وفَكَّيه».

وأخذ أبو بكر الصديق، رحمه الله، بطرف لسانه وقال: «هذا الذى أوردنى المَوَارد».

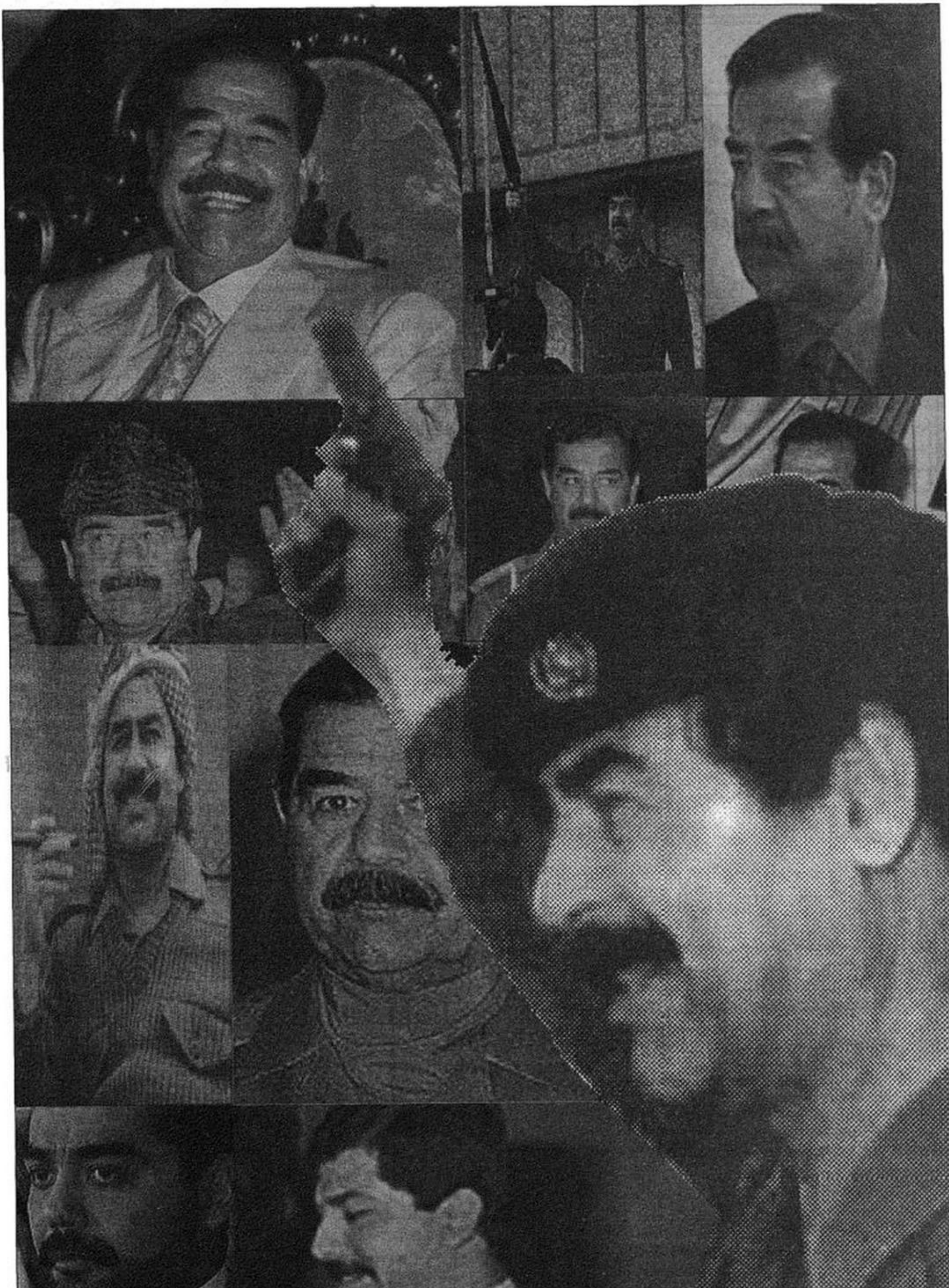
وقالوا: ليس شىء أحق بطول سجن من لسان.

وقالوا: اللسان سَبع عَقُور.

وقال النبى عليه الصلاة والسلام: «وهل يكُبُّ الناس على مناخرهم فى نار جهنَّم إلا حصائد ألسنتهم».

وقال ابن الأعرابى، عن بعض أشياخه: تكلم رجل عند النبى عليه الصلاة والسلام فخطَل فى كلامه، فقال النبى ﷺ: ما أعطى العبدُ شرًا من طلاقة اللسان».

وقال العائشى، وخالد بن خِداش: حدثنا مَهدى بن ميمون، عن غيلان بن جرير، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، عن أبيه قال: قدِمنا على رسول الله ﷺ فى وفد فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطولنا علينا طولاً (فضلاً)، وأنت الجفنة الغراء. فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستفزنكم الشيطان، فإنما أنا عبد الله ورسوله».



صدام حسين فى قصر النهاية!

فى فترات الشباب والمراهقة قيل عن صدام أنه شاب صموت وكتوم لا يميل إلى المزاح، يبتعد عن الآخرين. يؤمن أن الحياة ما هى إلا معركة مستمرة بلا نهاية. وأن الخصم الذى على قيد الحياة يشكل خطراً على الإنسان

يوسف القعيد

أين صدام حسين؟! هل قتله جنرال عراقى ينتظر مكافأته الآن؟ هل ضربت قوات التحالف المكان الذى كانت توجد فيه القيادة العراقية وقتلوا جميعاً مرة واحدة وحملوا أسرارهم معهم؟ أم هل صفوا بعضهم بعضاً على الطريقة العراقية؟ هل تمكنوا من الهروب جميعاً؟ هل هم موجودون فى روسيا خاصة أن كونداليزا رايس تركت واشنطن بشكل غريب وذهبت إلى موسكو فى مهمة لا نعرف عما جرى فيها الكثير؟ وهناك قابلت أحد أبناء عمومة صدام حسين. حيث أبرمت الصفقة. أم أنهم الآن فى أقبية ومخابئ تحت أرض تكريت المدفون فيها التكريتى الأول: صلاح الدين الأيوبى؟ هل يوجد صدام فى أحد مساجد بغداد؟ أم ينتظره مصير أسامة بن لادن حيث يتبخر فى الهواء ولا يعثر عليه أحد. وتحاول أمريكا أن تبدو وقد أهملت أمره. وتركت قضيته معلقة.

لكن جرح العراق يبدو أكبر من الجسد العربى نفسه، من أجل مستقبل شعب العراق، نكتب عن صدام الرجل الذى لخص الدولة فى شخصه. أكتب وفى خيالى. أن الذين سيكونون هنا بعد نصف قرن من الزمان. سيطلون فى صفحات التاريخ وهم يسألوننا: ماذا فعلتم من أجل أطفال العراق؟!

الهروب من الطفولة

فى قرية «العوجة» التابعة لتكريت كان ميلاد صدام حسين. وإن كان مكان الميلاد معروفاً فإن هناك تاريخين محتملين للميلاد: ٢٧ أو ٢٨ أبريل من عام ١٩٣٧. عانى من اليتم المبكر. ووالدته صبحة ـ والتى يكتب اسمها خطأ صابحة. تزوجت وأنجبت له أربعة إخوة غير أشقاء. برزان ووطفان وسبعاوى وأخت واحدة. ظلت علاقته بهم غير مستقيمة. لكن هذا اليتم المبكر جعل خاله خير الله طلفاح يتولى تربيته. بدأ تعليمه متأخراً عن موعده. بالتحديد بدأ فى العاشرة. حصل على الابتدائية من تكريت سنة ١٩٥٥. وحاول دخول الأكاديمية العسكرية ولكن أبوابها أغلقت دونه. ولم يحاول الاقتراب منها. حصل من مدرسة قصر النيل بالقاهرة على شهادة إتمام الدراسة الثانوية خلال إقامته فى مصر. ثم انتسب فى الحقوق. هذا ما كان يقال. أما الحصول على شهادة من هذا الانتساب. فليست هناك إجابة شافية عنها. الأمر المؤكد أنه لم يتحقق له الاستمرار والانتظام فى الدراسة. والرئيس البكر أنهى هذه الحكاية فى حياة صدام عندما منحه رتبة جنرال رغم أنه لم يكن حتى جندياً فى يوم من الأيام. أما خير الله طلفاح فهو والد عدنان الذى سبق صدام إلى صفوف حزب البعث. وإن كان صدام قد خلفه وراءه بعد ذلك. وعندما أصبح صدام الرئيس والقائد أصبح عدنان وزير دفاع. ثم سرعان ما جاءت وفاته بطريقة غامضة. مازالت لغزاً حتى الآن فى حادث سقوط طائرة. بعد أن بدأت صورته الإعلامية فى البروز. وكتب عنه البعض ـ بعد الحرب مع إيران ـ غزال شط العرب.

تزوج صدام من ساجدة ابنة خير الله. وشقيقة عدنان. ولدت قبله بعام واحد. أو عامين. ورغم بعض المغامرات التى قيلت عن صدام حسين من قبل خصومه. الخاصة بسميرة شاهبندر التى يقال أنه تزوجها وأنجب منها ابنة واحدة. وقصة الفاتنة اليونانية كريستين نيكوس كازنزاكيس ليس هناك خطأ فى اسم الوالد. فهو يحمل نفس اسم الروائى المعروف. هذه المرأة الجميلة لحد الوجع والتى استخدمتها المخابرات الأمريكية قبل الحرب الأخيرة حيث حكت صحفياً وتليفزيونياً قصتها مع الشاب العراقى الغامض. أقول رغم هذه القصص والحكايات. فقد ظلت ساجدة هى الزوجة وأم البعث. بل عندما راجت هذه القصص جرى تكريمها بصورة علنية وحصلت على الأوسمة والنياشين والأنواط. لكن ذلك لم يؤد إلى أى دور لها فى الحياة العامة. ولم يتعد نفوذها أبعد من حماية أبنائها وإخوتها. وحتى هذا لم يتم بالصورة التى كانت تتمناها. فى فترات الشباب والمراهقة قيل عنه أنه شاب صموت وكتوم لا يميل إلى المزاح، يبتعد عن الآخرين. يؤمن أن الحياة ما هى إلا عبارة عن معركة مستمرة بلا نهاية. وأن الخصم الذى على قيد الحياة يشكل خطراً على الإنسان. لن أتوقف أمام القصص الشبيهة بالفلكلور التى تتحدث عن أن زوج أم صدام كان يدفعه للسرقة. وإن كان من المؤكد أن الحياة فى قرية طفولته كانت أكثر من صعبة. الحفاء منتشر والفرص معدومة. وفى شتاء ١٩٥٦ أقسم يمين الولاء الحزبى.. فى حزب البعث العربى الاشتراكى.

كانت العملية الكبرى فى شباب صدام حسين. هى محاولة فاشلة لاغتيال عبد الكريم قاسم. «١٧ أكتوبر ١٩٥٩» لم يكن مطلوباً من صدام حسين سوى تأمين حماية رفاقه الأربعة والانسحاب بعد أن يكون هؤلاء قد انسحبوا. لكن وبسبب شدة حماسه. وجد صدام حسين نفسه يسحب رشاشاً صغيراً من تحت سترة طويلة أخذها من خاله ويطلق النار على سيارة عبد الكريم قاسم.

كانت محاولة الاغتيال مجرد صراع على السلطة. لم يكن فى ذهن من قاموا بها دكتاتورية عبد الكريم قاسم أو تصرفاته الليلية الغريبة. والتى راجت عنها قصص كثيرة. كانت نتائج العملية مثيرة. الرئيس لم يقتل. اخترقت رصاصة واحدة كتفه وعندما كان فى المستشفى. وفى اللحظة التى كانوا يضمدون فيها جراحه. أمر بمداهمة جميع أوكار حزب البعث. وإلقاء الأعضاء فى السجن. إلى أن تتم محاكمتهم. أعلن فقط عن مقتل سائق الرئيس وأصحابه ومرافقيه بجراح خطيرة. أما صدام حسين فقد تلقى رصاصة. فى كتاب راجعه صدام حسين بنفسه وصف للحظة المعالجة. واستخراج الرصاصة من قدمه:

ـ جرى قص اللحم بالسكين. قبض صدام على الأرض الطين. أظافره انغرزت فى الأرض. حين جرى إدخال المقص فى الجرح للبحث عن الرصاصة وسط اللحم والدم. فقد صدام الوعى. وحين استعاد وعيه بعد عشرين دقيقة وجد الجرح مربوطاً فى القماش.

كان هذا ما جرى فى أرض الواقع.. فكيف جرى التعبير عنه فى فيلم سينمائى عن صدام حسين. لنقرأ ما كتبه المخرج السينمائى العراقى المتميز قاسم حول. من منفاه الأوروبى عن تنفيذ فيلم الأيام الطويلة. المأخوذ عن رواية عبد الأمير معلة. ومن إخراج واحد من أهم مخرجى السينما العربية توفيق صالح. قال قاسم أنه تم جمع كل من يحملون شبهاً من صدام حسين من كل أنحاء العراق. وصدام حسين نفسه هو الذى اختار من يقوم بالبطولة. كان صدام كامل. شقيق حسين كامل الذى صعد فجأة ليصبح وزيراً للتصنيع العسكرى. فيما بعد تزوج صدام كامل. وحسين كامل من كريمتى صدام حسين. وهما اللذان هربا إلى الأردن. وأعيدا وتم قتل صدام وحسين فى تصفية جسدية دموية أخذت منحى عائليا بعيداً عن الدولة العراقية. وأن صدام حسين شاهد بنفسه الفيلم ليلة عرضه فى دور العرض العراقية. كان معه أركان دولته ومخرج الفيلم. ولم يعلق صدام حسين إلا على المشهد الذى يتألم فيه لحظة استخراج رصاصة من جسمه بدون مخدر. قال صدام إنه لا يتألم. ولم يتألم عندما جرى استخراج هذه الرصاصة فعلاً من جسمه.



صدام حسين

وقف وزير الإعلام وقال إن الألم شعور إنساني. فأشار صدام بيده للوزير زاجراً إياه. ووصفه بكلمة نابية. وأنهى صدام اللقاء.

مخرج الفيلم ما لبث أن ترك العراق عائدا إلى مصر. وإن كان لم ينطق بكلمة واحدة عن تجربته مع صدام وأركان حكمه. أما عبد الأمير معلة الذي كان قد أصبح وكيلاً لوزارة الإعلام والثقافة. وكان مسئولاً حزبياً كبيراً. فقد لاحظ بعد عرض الفيلم بفترة. أن هناك سيارة تتبعه إلى أي مكان يذهب إليه. وعندما يدخل بيته تبقى هذه السيارة حتى يخرج منه. لم يكن عبد الأمير قد لاحظ أن ابنه الكبير قد بدأ يتردد على مساجد بغداد. ولم يكن قد أدرك أن ابنه كان مرصوداً. وهكذا كانت النهاية التي لا تختلف كثيراً عن نهاية الشاعر شفيق الكمالي الذي كتب النشيد القومي للعراق. بعد حكم البعثيين له. وعزيز السيد جاسم. الشقيق الأكبر للدكتور محسن جاسم الموسوي. الذي كان نائباً لوزير الثقافة ورئيساً لدار الشئون الثقافية. والنكبة التي جرت للعائلة. بعد أن كتب عزيز السيد جاسم كتاباً عن الفرق الدينية في الإسلام. ومن الطبيعي أن يتعرض فيه للسنة والشيعة وقد اعترض الرقيب على نشر الكتاب. إلى هنا والأمور طبيعية. ولكن غير الطبيعي كان صدور الكتاب في بيروت. اختفى عزيز السيد جاسم. وأصبح محسن الموسوي مغترباً أبدياً من صنعاء إلى تونس إلى الإمارات العربية المتحدة.

السيد النائب

حتى الرئيس أحمد حسن البكر لم يكن يقول عن صدام حسين سوى عبارة «السيد النائب» وعندما كان يذهب إليه أحد الرفاق القدامى شاكياً من تصرفات صدام حسين كان يخرج من وراء مكتبه ويتوسط الحجرة - خاصة في أيامه الأخيرة - ويقول للشاكي أنه - أي البكر - لا يستطيع حتى الاستقالة من منصبه.

تلك كانت صورة السيد النائب. الذي جمع مناصب رئيس أمن حزب البعث والأمين العام للحزب علاوة على أنه نائب البكر الوحيد بعد أن تخلص من النائبين الآخرين: حردان التكريتي وصالح مهدي عماش. وتلك هي صفات السيد النائب: وجه داكن. شارب قاتم. عظام بارزة من الكتفين والصدر. أما داخله فلا توجد في اللغة العربية كلمة واحدة قادرة على اختصاره رغم تراث هذه اللغة بالعديد من المفردات. صوت بارد ودود. صوت هادئ قادر على أن يكتم مشاعره مهما كان غيظه. كان يتكلم دون أن يرف له جفن. يؤمن أن الخصم لا يمكن أن يستسلم إلا بعد أن يصبح قتيلاً. كان صدام يحكم العراق بسلطات البكر النهائية. وكان يمكن أن يعصف به الآخرون. لو أن البكر رفع غطاءه من فوق رأسه. لكن الخيوط هي ما يجمع بين الرئيس ونائبه. الخيوط تتلاشى وتضيع من بين يدي الرئيس. لتتجمع بين يدي النائب. كان الرئيس البكر قد أصبح متعباً. والنائب عنده من الهمة والعافية ما لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل بهما.

كان العراق جزءاً من منطقة جرى اختراعها قبل عقود. رسم الإنجليز خرائطها مع حلفاء الحرب العالمية الأولى. حيث كانت تعرف بأرض العراق قبل خروج دولة العراق إلى الوجود. والعراق تعني الأرض المعرقة بالخير والنماء. عندما كان نائباً زار وفد من الأمم المتحدة العراق وذلك للبحث في أحوال السجون والقتلى. حضر البكر وصدام الاجتماع. البكر انصرف مبكراً. وصدام بقي طوال ثلاث ساعات لم ينطق بكلمة واحدة. ولكن عبد الخالق السامرائي قال للوفد أن كل دولة تحتاج إلى أمن يحميها. الفيلسوف هوبز قال أن العالم غابة. والدولة هي محاولة لفرض قوانين حياة هذه الغابة. قد يظلم الأبرياء لكن هذه هي طبيعة الدولة عموماً. لكن المشكلة أن الهاجس الأمني تعدى كل الحدود بعد هذا.

ظل هذا الوضع حتى السادس عشر من يوليو تموز سنة ١٩٧٩. وهي اللحظة التي أعلن فيها الرئيس أحمد حسن البكر - بنفسه - على التليفزيون. وعلى مشهد من الأمة كلها اعتزاله لأسباب صحية. كان صدام حسين يصغر البكر بـ ٢٥ عاماً كاملة. ومع هذا تمكن من خلعه بهدوء. وسلامة.

القائد الضرورة

لن أتحدث عن نظام حكم يقوم على شرعية الرجل الواحد. فكل الشرعيات هكذا في العالم الثالث والوطن العربي جزء منه. ولكن الكلام عن فكرة السلطة المطلقة التي تصبح - دائماً وأبداً - مفسدة مطلقة. دعك من الألقاب الخطيرة التي أطلقت على صدام حسين. فهي تحتاج لمجلد وحدها. ولكنه كان رئيس الجمهورية. ورئيس مجلس قيادة الثورة. ورئيس مجلس الوزراء. والأمين العام للقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي. والقائد الأعلى للقوات المسلحة العراقية. جرى هذا من لحظة استيلائه على السلطة. حتى لحظة اختفائه منها.

طبيعة العراق تتطلب التوقف أمامها. في كتابه حروب تلد أخرى: التاريخ السري لحرب الخليج. يكتب سعد البزاز:

- لا يوجد شعب على وجه الأرض يشعر أنه معرض للمخاطر ومحاط بالأعداء مثل شعب العراق. الذي تتشكل عند أبنائه مشاعر خوف جماعية من وجود من يعمل على إفنائهم. مع إحساسهم بوجود عدو قائم. وعدو محتمل. وهي مشاعر متأتية عن إرث تاريخي متراكم عمره ستة آلاف سنة. تعززه مشاعر أخرى تولدت في العصر الحديث الذي نشأ على أنقاض بغداد المدمرة سنة ١٢٥٨ للميلاد عندما استباحها المغول.

إلى أن يكتب:

- ويذهب العراقيون إلى أبعد من ذلك في التساؤل: هل يستطيع العراق أن يحيا في كنف السبات والركود والسكون؟ أم أنه يذوي ويضمحل وقد يتفتت عندئذ؟ إن للحرب وظيفة لا يمكن إنكارها بالنسبة للعراق بوصفها اختياراً لقدرة المجتمع على التكتل والتضامن وتجديد نفسه. إنه يكتب عن ظلم الجغرافيا للعراق. فالوضع الجغرافي ترك بصماته على التكوين النفسي للعراقيين. فالشعور بالعزلة والانغلاق وسط جيران منافسين وأعداء على البر يولد إحساساً بالضيق تحت ثقل طوق بري تتفاوت فيه درجتا الانحباس والانفتاح. وكثيراً ما جسدت حكاية السندباد روح العراقي المحروم من البحر. وينقل عن المؤرخ طه باقر قوله: إن حضارة وادي الرافدين تمتاز بالحدة وتوقع المفاجآت والفواجع.

ولهذا فإن العراق الذي امتاز بالأرض الخصبة والمياه الوفيرة والبترول والخطة الصناعية الكبرى. دخل من الحروب ما جعله دولة مديونة. كانت ديون العراق عند لحظة انتهاء الحرب مع إيران ٧٠ مليار دولار. يضاف إليها ما أنفقه العراق من الاحتياطي قبل بدء الحرب. وكان يزيد على ٥٠ مليار دولار. إن تحرير الفاو كبد العراق وحده ٥٢ ألف قتيل. العراق كشكول مفتوح. ليست مجرد بلد عادي. عند تسلم صدام حسين السلطة كانت تركيبة سكان العراق التقريبية هكذا: ٢٠٪ أكراد و٢٠٪ عرب سنة و٦٠٪ شيعة وذلك إضافة إلى أقليات لم تحص أبداً من كلدان وصابئة ويهود وآشوريين وسريان. لذلك كان من الصعب على سلطة البعث أن تحاول أن تستمد شرعيتها من الدين. إنه قنبلة موقوتة. إن هؤلاء السكان يمكن أن يجتمعوا حول: القومية العربية. وهي أيضاً قد تمكن العراق يوماً من قيادة الوطن العربي. لذلك كان يقال القطر العراقي وليس الدولة العراقية. إن الهاجس الأمني الذي تضخم عند صدام حسين جعله يغير أمكنة إقامته بصورة مستمرة. مع تضييق دائرة من يعرفون مكانه. كان مجرد السؤال عن مكان تواجده يساوي قضية تجسس للأعداء. حتى الوزراء ومن هم أكبر منهم لم يكونوا يعرفون مكانه. وعند الذهاب لمقابلته. لم يكن الذاهب يعرف أنه سيقابل صدام حسين أبداً. وكان يذهب إلى أكثر من مكان. وقبل الوصول إلى مكانه كان يستقل سيارة عليها ستائر سوداء. وعندما يصل إلى المكان يمشي في طرق طويلة. إما أن حيطانها وأرضيتها وسقفها عبارة عن مرايا. أو أن يمشي في طرقة ضيقة يقف على جانبيها مجموعات من المرافقين يصفقون ويهتفون لصدام بصوت عال في مكان ضيق. حتى يصل الضيف إليه وهو شبه ميت. بسبب كل هذا الهول الذي يمر به. كان صدام حسين يغير أماكن إقامته بصورة منتظمة. حتى أفراد أسرته لم

وجه داكن. شارب قاتم. عظام بارزة من الكتفين والصدر. أما داخله فلا توجد في اللغة العربية كلمة واحدة قادرة على اختصاره. صوت هادئ قادر على أن يكتم مشاعره مهما كان غيظه

يكونوا يعرفون مكانه. وكان يتولى أمور أمنه الشخصى بنفسه. وكانت له عيون فى كل مكان سواء داخل العراق أو خارجه. لدرجة أن المصريين الذين كانوا يعملون فى العراق. عندما كانوا يتكلمون عنه بينهم وبين أنفسهم كانوا يرمزون له بأسماء ممثلين مصريين. خوفاً من التنصت أو التجسس عليهم. وما أن تكتشف شفرة اسم الممثل حتى يتم تغييرها واستبدالها بشفرة أخرى.

صناعة الطغاة

هناك مسئولية تقع على المثقفين. فى صناعة الظاهرة. سواء مثقفو الداخل العراقى. أم الخارج من أبناء الوطن العربى الذين تخصصوا فى كتابة الكتب الأولى عن صدام حسين. «القائد الضرورة». وهذا أحد التعبيرات التى أطلقت عليه مبكراً جداً. فى كتب صدرت عنه فى الخمس سنوات الأولى فى حكمه. كتبها مؤلفون عرب سواء من الذين عاشوا فى العراق. أو الذين كانوا خارجه. وإن كان البعض يصف حربه مع إيران ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ على أنها مغامرة غير مفهومة الهدف والتوجه. فقد صدر فى هذه الفترة ١٧٤ مؤلفاً منها ٧٤ رواية و٩٧ مجموعة قصص قصيرة. والباقى كتابات أخرى خارج سياق النص الروائى والقصصى. علاوة على ٤٠٠ قصة قصيرة نشرت فى الصحف والمجلات ولم يتم جمعها فى كتب. وذلك كما تؤكد بيبلوجرافيا أدب الحرب فى العراق. وإن كان سلام عبود يعلق فى كتابه المتميز والمبهر عن ثقافة العنف فى العراق. على هذا النتاج الأدبى:

ـ فى ظل ثقافة قائمة على تدمير الضمير يكون التعبير الفنى ضربا من بلاغة الأفاعى السامة. إن ما عبر عنه المعنيون بقصة الحرب. هو أن شجرة السم لا يمكن لها أن تثمر لوزاً. فى مثل هذه الحرب لا يوجد حيز للإبداع. لأنه لا توجد مساحة لمساءلة الواقع. ولا توجد مساحة للصدق فى التعبير عما يجرى. لقد كانت الحرب هى التى تتكلم بأقلام الكتاب. سلام عبود يتساءل: إذا كانت الحرب من مسئولية صدام حسين. فمن المسئول عن ثقافة جيلين من العراقيين؟! تلك مسئولية لا أحد يريد أن يتحمل أعباءها. لكنها مسئولية الجميع. جميعاً بدون استثناء، وأولنا من ساهموا فى كتابة نصوص عن الحرب. ومن صمتوا. ولم يقولوا للشعب أنه كان ضحية لهذه الحرب. إن ثقافة الموت، ثم ثقافة الخراب الجميل هى مسئولية المثقف العراقى وليست مسئولية السلطة، أى سلطة كانت.

أدب الحرب كان جزءاً من الثقافة العراقية التى سرعان ما تحولت إلى أدب الداخل وأدب الخارج. وفى الداخل وجد شاعر صدام وشاعر القادسية. وشاعرة أم المعارك. فى زمنه كان هناك ثلاثة شعراء كبار الجواهرى الذى مات ودفن فى دمشق والبياتى الذى دفن فى المنفى. ونازك الملائكة التى ما زالت تعالج فى القاهرة بمنحه شخصية من شاعر كويتى. هو عبد العزيز سعود البابطين. فى المقابل نجد عبد الرزاق عبد الواحد. شاعر الرئيس. الذى قال أنه كتب عن صدام ما لم يقله المتنبى عن سيف الدولة الحمدانى: فإن قلت يا صدام، ناديت أمة / لأن المنادى زهوها وفخارها. ويا حبذا صدام وصدام أمة / وتاريخ أرض يستعاد ازدهارها. فى المقابل نجد سعدى يوسف. المعارض المنفى الذى يستبدل منفى بمنفى: تحت الأسوار ولدنا/ وعلى الأسوار نموت/ لم نعرف فى بابل/ غير القتل لأجل القوت.

وإن كان هناك نموذج ثالث لمبدعين لم يتركوا العراق، وحافظوا على قدر معقول من الاستقلالية مثل محمد خضير قاص البصرة وحسب الشيخ جعفر الشاعر البغدادى. قد اختبأ كل واحد منهما وراء كلماته. وتسلح بالصمت فى مواجهة بعض المواقف العصيبة والصعبة. ورغم الانقسام الرهيب فى حالة المثقفين العراقيين الذين تحولوا إلى مثقفى الداخل ومثقفى الخارج. إلا أن من يذهب إلى العراق فى سنوات حكم صدام حسين سيكتشف أنه فى كل مكان من العراق تمثال أو جدارية له. حتى أصبح له أكثر من ٢٣٨٠ تمثالاً ونصباً فى العراق. وهكذا أصبح صدام حسين صاحب حسابات براجماتية منطقية. ولديه إحساس مبالغ فيه بالعظمة. وأنه قائد بارع ولكن حساباته ربما تكون خاطئة أحياناً. وأنه تطرق فى الاستغراق فى الذات. ولذلك لا يستوعب آلام ومعاناة الآخرين. متفائل أكثر مما ينبغى بشأن فرص النجاح. غير مستعد لأن يظهر أى تردد. لا يصيبه الإرهاق من استمراره فى العمل أكثر من أربع عشرة ساعة يومياً بصفة مستمرة. إن هدفه الجوهرى هو إحكام سيطرته الكاملة على هذا الجزء من العالم الذى يسميه: الوطن العربى. إن النتيجة الطبيعية لكل هذا. ما ذهب إليه صدام حسين. وكان يحدث لأول مرة فى تاريخ العراق. عندما جعل من الولاء الشخصى له عقيدة قتالية ثابتة للقوات المسلحة بدلاً من الولاء للوطن. كما يؤكد ذلك أحمد الزبيدى فى كتابه الأزمنة الضائعة. أيضاً فقد تحول الحرس الجمهورى إلى جيش موازٍ للجيش. بل إن تسليحه والإنفاق عليه أصبحت له الأولوية على القوات المسلحة نفسها. وفى السنوات الأخيرة خرجت إلى الوجود أشكال أخرى: فدائيى صدام، كتائب الموت. التى جعلت فكرة جيش البلاد تتراجع كثيراً. ومع هذا فإن حروبه كانت تلد حروباً أخرى. حرب فى الشرق. تلد حرباً فى الشمال. تلد حرباً فى الجنوب. تلد مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهى فى طريقها إلى عسكرة العولمة.

جدارية صدامية

من الحكايات الإنسانية التى تروى عن صدام حسين أنه عندما كان منفياً فى مصر تعرف على صاحب مقهى فى ميدان الدقى. وأن الرجل كان يراعى ظروف صدام المالية حيث يقدم له الطلبات مؤجلاً الدفع. إلى أن أصبح صدام رئيساً للعراق. وحدث أن جلس مثقف مصرى كان يعرف صلة صاحب المقهى بصدام على المقهى. وقال له أن زبونه القديم أصبح رئيساً للعراق. فقال الرجل: هل وجد الأستاذ صدام وظيفة؟! ألف مبروك. ما أن سمع صدام الحكاية حتى دعاه لزيارة بغداد حيث أغراه بافتتاح مقهى له فى العراق. المقهى أصبح أهم مطعم فى حى المنصور منذ عشرين عاماً. وأبو وليد جعل المطعم الذى يمتلكه فى العراق من طابقين. الأرضى يقدم بعض الأكلات المعروفة فى الوطن العربى. ولكن الدور الثانى كان مخصصاً لعلية القوم وأغنى الأغنياء. الوجبة فيه لشخص واحد تكلف خمسة عشر ألف دينار عراقى حوالى سبعة دولارات.

القصة القديمة. أصبحت جديدة وتحولت إلى جزء من القصف الذى تعرض له المطعم يوم الإثنين. السابع من أبريل الماضى. لقد جاء هذا القصف بعد ورود معلومات «دقيقة» تؤكد أن الرئيس العراقى موجود فى هذا المطعم مع نجليه عند صديقه المصرى. وهكذا جرى قصف المطعم وتم تدميره بالكامل وثلاثة بيوت حوله. لكن لم يتم التأكد بعد القصف إن كان صدام فعلاً ضمن القتلى. ويبدو أنهم لن يعرفوا أبداً. لكن الحفرة الناتجة عن القصف يبلغ عمقها عشرين متراً وقطرها نحو خمسة وعشرين متراً. ولم يتم حصر عدد شهداء هذه الضربة. وبعض الجيران أكدوا أنه غادر المكان قبل الضربة بدقائق. والبعض الآخر قال أن الضربة أخطات العمارة التى يوجد فيها المطعم ونزلت على عمارة مجاورة. الذين عملوا مع صدام عن قرب يقولون أنه كريم بلا حدود لمن يضمر له الولاء الشخصى بلا حدود أيضاً. وأنه ينفق بسخاء. لكن الذين عرفوه عن قرب أيضاً يقولون أنه لا يعتمد سوى على نفسه ونفسه فقط. ولا يثق بالآخرين مهما كانت صلاتهم الشخصية به. وجيرولد يوست مسئول برنامج علم النفس بجامعة واشنطن ومؤسس مركز تحليل السلوك الشخصى والسياسى التابع للمخابرات الأمريكية منذ عشرين عاماً. يقول عن صدام حسين أنه يعانى من هوس الارتياب. يعتقد أن خصومه يلاحقونه فى كل مكان. ويحمل أحلام المجد. وأن إساءة معاملة زوج أمه له فى طفولته. وبدء التعليم متأخراً. ثم استئنافه بعد ذلك بسنوات. كل هذه الأمور تركت آثاراً نفسية بارزة عليه. وأنه يعانى من ذات هشة. وربما كان هذا هو السبب فى كثرة تماثيله ومنحوتاته وصوره.

زرت أمين عز الدين بعد عودته النهائية من العراق. وأمين عز الدين مع سامى الليثى كانا مسئولين عن شئون صدام حسين. عندما كان لاجئاً سياسياً فى مصر. وبعدما أصبح صدام رئيساً. وتغيرت الأحوال فى مصر. لاقت أسرة أمين وهو شخصياً كل الرعاية والعناية من صدام. لم يقصر الرجل فى شىء أبداً. فى اليوم الذى ذهب فيه أمين عز الدين



تركيبة سكان العراق هكذا: ٢٠٪ أكراد و٢٠٪ عرب سنة و٦٠٪ شيعة وذلك إضافة إلى أقليات لم تحص أبداً من كلدان وصائبة ويهود وآشوريين وسريان



صدام حسين

إلى صدام حسين ليسلم عليه سلام الوداع وهنا تنبه صدام حسين إلى أهمية أن يقدم هدية لضيفه المسافر إلى القاهرة. مد يديه معاً، فك المسدس الذى كان يلفه حول وسطه. وقدمه له مع الجراب الخاص به. كان ذلك أعز ما يمكن أن يقدمه له. والذى حدث بعد ذلك أن سلطات مطار صدام الدولى، رفضت أن يسافر أمين عز الدين ومعه مسدس صدام الخاص. الذى أعيد إلى داخل بغداد مرة أخرى. وتقرر أن يتم إرسال المسدس عن طريق الحقيبة الدبلوماسية وتسلمه أمين عز الدين فى القاهرة.

وكان فتحى غانم قد حصل على جائزة صدام حسين. وكانت قيمتها مائة ألف دولار أمريكى. لفها فى جريدة وحملها بيده من القاهرة إلى بغداد. ليحصنها ضد السرقة. ثم جاء صدام حسين إلى مصر. وفوجئ فتحى غانم بدعوته لحضور حفل العشاء الرئاسى المقام على شرف صدام حسين. واعتذر فتحى غانم عن عدم الحضور. وكانت المفاجأة الثانية أن اتصل به وزير مهم فى الدولة المصرية. يسأله عن سبب اعتذاره. ويبلغه أن الرئيس صدام بنفسه هو الذى طلب حضوره العشاء. قال فتحى غانم إنه يعانى كثيراً من مسألة ركن سيارته. ولهذا اعتذر. فما كان من مسئولى المراسم فى الرئاسة إلا أن اتصلوا به وقرروا إرسال سيارة رئاسية لإحضاره. لحظة دخوله قاعة العشاء فوجئ بالرئيس حسنى مبارك يمسكه من يده ويقدمه لصدام حسين قائلاً هذا هو فتحى غانم.

لعنة العائلة

ينتمى صدام حسين إلى عائلة كبيرة ممتدة. سرعان ما تحولت إلى قبيلة. وبسبب الهاجس الأمنى الذى كان يتحكم فى تصرفاته فقد توسع صدام حسين فى الاعتماد على إخوته غير الأشقاء وأبناء عمومته. لقد شكلت هذه القبيلة درعاً واقياً للرئيس. لكن متاعبه الكثيرة جاءت من هذه العائلة. فعندما أشيع زواجه من سميرة الشاهبندر بعد تطليقها من زوجها نور الدين الصافى. وإنجابه منها ابنته عليا تم قتل الطباخ الخاص للرئيس كامل حنا ججو لأنه كان عراب هذه الزيجة. أيضاً عندما هرب حسين كامل زوج ابنة الرئيس إلى الأردن ٩٥ - ١٩٩٦. وقدم صهر الرئيس. المسئول السابق عن التطبيع العسكرى فى العراق كل ما يملكه من معلومات وهى ليست قليلة. مثلت هذه المعلومات أول اختراق حقيقى فى الجدار المنيع الذى أقامه صدام حول صناعاته العسكرية، وتحول الاختراق إلى ثغرة. والثغرة أصبحت عرياً كاملاً أمام أمريكا. مما دفع صدام إلى استعادة صهريه من الأردن وتصفيتهما بمعرفة العائلة والقبيلة كعقوبة لهما على إفشاء ما كان عندهما من الأسرار. بعد هذه التصفية الدموية. ظلت ابنة الرئيس الكبرى رغد مبتعدة عن الحياة العامة. وتمتلك وتدير شركة البادية للنقل البرى التى كان قد أسسها زوجها القتيل حسين

كان صدام حسين يغير أماكن إقامته بانتظام. حتى أفراد أسرته لم يكونوا يعرفون مكانه. وكان يتولى أمور أمنه الشخصى بنفسه. وكانت له عيون داخل العراق وخارجه

كامل سنة ١٩٩١. أما رنا أرملة صدام كامل الشقيق الأصغر لحسين كامل، فقد تزوجت فى عام ١٩٩٩ من الفريق الركن كمال مصطفى العمر أمين سر مقر قيادة الحرس الجمهورى، وهو شقيق جمال زوج حلا ٣١ عاماً الابنة الصغرى للرئيس صدام.

كانت فكرة صدام أن رابطة الدم والمصاهرة توفر له حالة من الإحساس بالأمان. إلا أن الوجه الآخر لهذه المسألة كان: الأهل والغنيمة. حيث تعاملوا مع كل ما فى العراق باعتباره ملكاً لهم جميعاً. لقد كشف السلب والنهب فى المدن العراقية أحزمة البؤس التى تحيط بهذه المدن. وتدنى مستوى الحياة اليومية. وغياب الخدمات. ولأن السلب والنهب شمل القصور فقد كانت المسافة بين القصر والحى الشعبى مثل المسافة بين السماء والأرض. حيث شاهد الناس الحنفيات المصنوعة من الذهب الخالص. والخيول العربية الأصيلة. وأدوات الرفاهية التى لا يوجد مثلها فى أى مكان آخر من العالم.

عقدة مصر

فى سنة ١٩٧٥ أقام العراق مؤتمراً ضخماً لنصرة العراق ضد تهديدات إيران التى كانت توزع كتباً تحدد مهمة الشاه فى أن والده قد حرر شرق الخليج. وأن على الشاه - ابنه - أن يحرر غرب الخليج الفارسى. كانت هناك أوصاف كثيرة تقال لإيران. مما يوحى أن العراق استبدلت العدو الصهيونى بالعدو الإيرانى «الفارسى المجوسى». مع أن إسرائيل كانت ما تزال مشروعاً استعمارياً يهدد المنطقة كلها بخطر الابتلاع.

يومها كانت الدعوات بلا حساب لحضور هذا المؤتمر. لدرجة أنه كانت فى مطار القاهرة الدولى طائرة ضخمة خاصة بضيوف هذا المؤتمر. وكان الرئيس أنور السادات قد قال لمن استأذنه فى السفر إلى بغداد، أنه مع الشاه وأعطى كلمة بذلك. ومع هذا لا مانع لديه من سفر ما يمكن أن يسمى بتمثيل رمزى محدود.

كنا خمسة فى طائرة تسع المئات. لطفى الخولى وفتحى خليل ومحامى السفارة العراقية فى القاهرة، وممثلة لأمانة المرأة فى الاتحاد الاشتراكى العربى. واستكمل الوفد المصرى من المصريين الذين كانوا يعملون فى العراق. وما كان أكثرهم فى ذلك الوقت. وكان صدام حسين قد دعا الوفد المصرى إلى غداء فى حديقة تقع فى قلب بغداد. وصلنا إلى قاعة الطعام قبله بوقت. وقبل حضوره ولم يكن رئيساً للدولة بعد. جاء من بدل الكرسى الذى سيجلس عليه. وعندما همست لمصرى مقيم هناك عن السبب فى ذلك. هل هو الهاجس الأمنى؟ قال لى أن عنده مرض الديسك فى العمود الفقرى. ولابد من مقاعد خاصة يجلس عليها. لكن بعد حضوره ورغم تبسطه مع القادمين من القاهرة. إلا أننى شاهدت حول قاعة الطعام أعداداً كبيرة من الحراسات. وكان التسليح أكبر من مجرد تأمين.

كان صدام حسين قد عاد من مصر بعد إقامته فيها مبهوراً بكاريزما عبد الناصر. وكان يتصور إمكانية تكرارها فى العراق. ولأنه لم تكن لديه إنجازات كثيرة. ولأن الشخصية العربية فى العراق تختلف عن الشخصية المصرية، ولأن صدام كان متعجلاً. فقد توصل إلى أن هذه الكاريزما إن لم تحدث بالحب فلابد أن تحدث حتى بالتخويف. كان يقول إذا لم يحبك الناس عليهم أن يخافوك. لابد أن يدرك الناس أنك الأقوى والأشرس. ذلك أن الخوف مسألة أساسية فى أعماق النفس الإنسانية. لقد عذبت مصر صدام حسين ثلاث مرات. الأولى بكاريزما عبد الناصر. وانجذاب الجماهير - حتى العراقيين نحوه - والثانية بعد كامب ديفيد حيث تصور صدام أن العراق هى الدولة العربية الوحيدة المهيأة لوراثة الدور المصرى. وهذا الهوس لم يحدث فى العراق فقط. ولكن الغياب المصرى أغرى العديد من الدول العربية. بأن يحاولوا وراثة الدور المصرى. والعذاب يأتى من اكتشاف أن أدوار البلدان لا تورث.

فى هذا السياق جرت أكثر من محاولة مع الدكتور جمال حمدان لقضاء فترة من الوقت فى العراق. من أجل كتابة كتاب ضخم عن شخصية العراق. دراسة فى عبقرية المكان. وقد رفض جمال حمدان حتى مناقشة هذه الفكرة سواء مع العراقيين. أو مع غيرهم من بعض الدول العربية الأخرى.

عذبته مصر ثالثاً عندما اكتشف أن مصر دولة محور. دولة قلب. وأن العراق دولة أطراف. وأن إمكانية أن تقوم دول الأطراف بأدوار قيادية مسألة صعبة لأن ذلك ضد حقائق الجغرافيا ودروس التاريخ المستفادة. وقد جرت محاولة لرسم خريطة للعراق وهو يتوسط الدول من حوله. ولكن اتضح أن الدول العربية التى قد تظهر فى مثل هذه الخريطة. ليست كثيرة. فصُرف النظر عنها.

مؤلفات الرئيس

عندما وصلت عمليات السلب والنهب إلى بيت عدى نجل صدام حسين. لاحظ مشاهدو الفضائيات كتاباً ضخماً ملقى على الأرض. على غلافه صورة ضخمة لصدام حسين. أما العنوان فهو: المؤلفات الكاملة لصدام حسين. والواقع أن حرص صدام حسين على أن تكون له مؤلفات يعود إلى ما هو أكثر من ربع قرن مضى.

فى ١٩٧٧ صدر عن منشورات دار الثورة فى بغداد كتاب جمع مقالات ومحاضرات ومقابلات نائب أمين عام حزب البعث الرفيق صدام حسين. عنوان الكتاب: الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع. وفى محاضرة للمعلمين. قال صدام حسين: علموا الطالب أن يعترض - بعيون أمينة وعقل ثابت - على أهله إذا سمعهم يناقشون أسراراً حزبية أو ينتقدون سياسة الدولة. علموا الطالب أن يحذر أهله ويقول لهم أن هذا خطأ. إن هذا

الاعتراض هو مفتاح الديمقراطية. علموا الطالب الحذر من الأجنبي. فهو عين دولة أجنبية وأذنها. وهكذا إن كانت الماركسية قد اعتبرت العمال هم الخلية الأولى في بناء المجتمع الشيوعي فإن صدام حسين - وهو ما يزال نائباً - اعتبر أن العائلة هي النواة الأولى لبناء المجتمع البعثي. وكان رهانه أساسياً على الطفل والصبي والشاب الذين هم كل مستقبل العراق. لقد كان الهاجس الأمني قد سبق الخيال السياسي في هذا التصور.

في عام ١٩٧٩ نشرت دار الحرية في بغداد كتاباً جمعت فيه محاضرات ألقاها صدام حسين في منتصف السبعينيات مع ملاحظات وهوامش عليها بأقلام ١٦ أكاديمياً عراقياً مختصاً في علم التاريخ يحملون الدكتوراه من جامعات أمريكية وأوروبية. عنوان الكتاب: حول كتابة التاريخ. يقول صدام:

- إن البعثي ليس محايداً في شئون الوطن والأمة مهددة بالخطر دائماً. البعثي عليه واجب مقدس. عليه الكلام عن العرب كأمة واحدة. معتبراً أن هذا حقيقة مطلقة. وكان يركز على أن القوة ولا شيء سوى القوة القادرة على تحقيق كل شيء.

عندما تحول صدام حسين لكتابة النص الروائي. واجتمع مع كتاب الرواية والقصة في العراق لكي يتكلم معهم عن فن كتابة الرواية. طلب منهم الإكثار من كتابة النص الروائي. لأن القدرة على الحكي قوة في حد ذاتها. وربما كانت كلمة القوة هي التي يمكن أن تصبح مفتاحاً لشخصيته. صدام حسين الذي تحول في سنواته الأخيرة إلى كتابة الرواية. خاصة أن العراق كان قد تعرض لهجرة مثقفيه ومبدعيه إلى المنافي البعيدة. الرواية الأولى كانت زبيبة والملك. التي كتب على غلافها رواية لكاتبها. وصدرت في بغداد عام ٢٠٠١ وزينت غلافها لوحة: سيدة من بغداد للفنان وليم كلارك ونتر. وتحت اللوحة رسم لملكة جميلة وفارس يرفع سيفاً. وتحت الاثنين حصان عربي أصيل. وكتب في الصفحة الأخيرة من الرواية: يخصص ريع هذا الكتاب للفقراء واليتامى والمساكين وبتاريخ ٢٥/٥/٢٠٠١ كتبت نيويورك تايمز:

- أثارت هذه الرواية عندما صدرت في بغداد ٢٠٠١ اهتماماً خاصاً لدى الإدارة الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية. فقد كانت كل الاحتمالات تشير إلى أن الرئيس العراقي صدام حسين هو كاتبها. رغم أن المؤلف لم يضع اسمه الصريح عليها. وقد انهمك رجال الإدارة في ترجمتها وتحليلها وتكرار قراءتها. حتى قال أحدهم «كل مرة أقرأ فيها الكتاب أحس بالتعاطف مع الملك». والرواية تدور حول قصة حب وخيانة ومؤامرات وحروب. وهي تدور حول قصة حب في بلاد الرافدين القديمة.

في مقدمة الرواية كلام عن العراق: ألا يمتد العراق بين الأرض والسماء وما بينهما منذ الصفحات الأولى من الأزل؟ ألم يقم له وليس في غيره بناء بارتفاع شاهق امتد بين الأرض والسماء؟ ألم تكن فيه وليس في غيره، واحدة من عجائب الدنيا السبع هي الجنائن المعلقة في بابل؟ ألم يهبط آدم وحواء إلى العراق بأمر الله؟ ويولد إبراهيم عليه السلام فيه؟ وتنتسب إليه النبوة والأنبياء لمرحلة ما بعد نبي الله إبراهيم وما بعد ذلك. إلى آخر رسول نبي هو محمد صلى الله عليه وسلم؟ أليس هو، أو جباله، أو هضبة «النجف» فيه، موطن نبوة نوح عليه السلام؟ هي المرحلة الثانية بعد نبي الله آدم عليه السلام. ألم تنهض رسالة الأمة من جديد في العراق معطرة بأريج النبوة وبركتها وبما يوصل الحي بما هو في ذمة الخلود قبل وأثناء أم المعارك الخالدة لترتفع راية الأمة العربية من جديد. بعد أن لطخها العملاء والضعفاء ممن نسبوا زوراً بهتاناً إلى الأمة بعارهم. بعد أن طغت الصهيونية وتجبرت هي وتحالفها البغيض مع أمريكا.

وبعد أن يكتب عن الاستحواذ على العالم وإذعان العالم كله لهذا الكابوس يكتب: أليس من العجب العجاب. بل وما يقرب من وصف معجزة. أن ينهض راكبا حصانه، ممتشقاً حسامه ليقول: ها أنذا العراق. وحدي على الأرض. أقول بصوت مسموع وجنان ثابت: قف مكانك. أو تراجع أيها الظلم والطغيان.. هنا أرض الرسالات والأنبياء. لن تركع إلا لله. وليخسأ كل جبان أو عميل. لا لن نستسلم. وليخسأ كل عربي نسي أنه يعربي. وأنه إلى الله وحده يسلم.

لولا العراق ما كانت الشمس لتخلق ولا وجد القمر سبيله في السماء، ولا استقام نبت على ساقه، ولما كان المطر. في العراق لا يفرخ الدجل ولا يوجد فيه هزال وليس فيه صفة الهزل فيه: كان يا ما كان.

والرواية تحكي عن ملك في بلاد الرافدين القديمة. يحاول الاقتراب من الشعب إلا أن البطانة الفاسدة حوله تمنعه حتى يلتقي بزبيبة التي تغير مسار حياته. وتبدأ المعركة الأخيرة حيث يكون الملك وأتباعه وزبيبة ضد الأعداء. وتستشهد زبيبة. ويهزم العدو. الذي كان في البداية بطانة الرئيس. ولكنه يصبح في النهاية العدو الأجنبي. إن زبيبة تستشهد من طعنة سهم وهي على جوادها الأبيض. وكانت قد تعرضت للاغتصاب بعد أن حاصرها الأعداء وإن كانت لا تنسى أن تكتب رسالة للملك تناديه فيها بكلمة حبيبي. لأنها لا تحب أن تناديه بجلالة الملك. فهي تعرف مدى امتعاضه من الكلمات التي تفتعل الألقاب. إنها تفضل مناداته باسمه: أبقاه الله عليه مهابة وعنوان محبة له ولشعبه لجيشه.

سأمر سريعاً على مستوى الرواية الفني. ولكن لابد من ملاحظة أنه لم ينشر مقال نقدي واحد يتكلم عن تدني مستواها. وكثرة الخطب فيها. وشوفونية الكلام عن العراق. ومن المؤكد أن الرئيس لم يستعن بأي روائي محترف في إلقاء نظرة عليها. حتى يخلصها من عيوب البدايات الأولى في كتابة النص الروائي. أو أنه لجأ إلى هذا الروائي وخاف أن يقول أن النص في حاجة إلى تنقيح أو إعادة صياغته. فور صدورها ترجمت إلى الصينية. وترجمها جيل مونيه الأمين العام لجمعية الصداقة الفرنسية العراقية إلى الفرنسية. وأعلن أنه سيتم تحويلها إلى فيلم ومسلسل تليفزيوني وعرض مسرحي. مونييه يترجم الآن رواية صدام حسين الثانية: «القلعة الحصينة». التي يوحي الرسم الموجود على غلافها بقرب موضوعها من الرواية الأولى ملكة جميلة وحولها الفرسان من كل جانب. الحصان كان الوحيد الذي ظهر في الغلافين.



الرواية الثالثة: مدينة ورجال. لم يرها أحد خارج العراق. نقلت وكالات الأنباء أن الرئيس العراقي خلال الأيام الأربعة الأولى لقصف بغداد الأخير «من ٢٠ إلى ٢٣ مارس الماضي» كان مشغولاً بمتابعة ردود فعل روايته الجديدة. التي كانت موجودة مع باعة الصحف والمكتبات لدى الجمهور. وإن كانت لم تخرج نسخة منها خارج العراق.

إن الدرس الكبير لحكاية صدام حسين يدور حول حلم تحويل دولة إقليمية إلى دولة عظمى. حتى لو أدى ذلك إلى التناطح رأساً برأس مع سقف العالم، وتحويل البلد من بلد يمكن أن يكون سويسرا الشرق الأوسط. إلى بلد فقير. أقول أن هناك حدوداً تحول دون ذلك. والإصرار عليه ربما كان قريباً من الانتحار. وقراءة ما كتبه سلام عبود تحت عنوان وطن يبحث عن منفى تلخص الموقف المأساوي الذي يعيشه الآن ٢٦ مليون عراقي:

- من يحتلون لفترة أقصر صدام أم الأمريكان؟ من يقتل منا أقل: صدام أم الأمريكان؟ من يعطينا حرية صحافة أكبر صدام أم الأمريكان؟ من يضربنا أقل بالكيماوي صدام أم الأمريكان؟

لم يبق أمام العراقيين سوى اختيار طريقة موتهم. هذا إن لم يفاجئوا بحالة من المقاومة تستعيد لهم حريتهم من صدام الذي لا وجود له. ومن الأمريكان الذين يملأون كل مكان في العراق الآن.

وفي بداية النهاية أكتب: ليت صدام حسين. عشق نفسه أقل. وأحب العراق أكثر. إذن لتغيرت الأحوال وتبدل مسار التاريخ. أصل المشكلة وجوهرها أن كلمة «يا ريت» لا تعمر بيتاً. فما بالك ببناء وطن له ظروف وتعقيدات العراق؟!■

في زمنه كان هناك ثلاثة شعراء كبار الجواهري الذي مات ودفن في دمشق والبياتي الذي دفن في المنفى. ونازك الملائكة التي ما زالت تعالج في القاهرة

هوامش:

* عالم صدام حسين: رواية، مهدي حيدر.
* زبيبة والملك: رواية لكاتبها.
* ثقافة العنف في العراق: سلام عبود.
* أوكار الهزيمة: تجربتي في حزب البعث العراقي: هاني الفكيكي.
* ثلاثة وجوه لبغداد: غالب هلسا.
* ذاكرة الغد: شهادات ورؤى وتجارب عن أدب الحرب القصصي في العراق.

سحر الاقتراب من الحاكم

المفكرون بين حب الحكمة وخدمة الطغاة

مارك ليلا

شحذ أساتذة بارزون وشعراء موهوبون وصحفيون ذوو نفوذ مواهبهم كى يقنعوا كل من يستمعون إليهم بأن الطغاة المحدثين محررون وبأن جرائمهم التى لا رادع لها تتسم بالنبل، إن نحن نظرنا إليها من منظور صحيح!

عندما أبحر أفلاطون من سيراكوزا سنة ٣٦٨ ق.م أو نحو ذلك، كان ذهنه - طبقاً لما قاله هو - مشوشاً. فقد سبق له زيارة تلك المدينة قبل ذلك، حينما كان لا يزال يحكمها لطاغية المخيف ديونيسيوس الأكبر، ولم ترق له حياة صقلية الحسية.

وتساءل أفلاطون: كيف يمكن للشباب تعلم الاعتدال والعدل فى مكان «تكمن فيه سعادة المرء فى إشباع نفسه مرتين يومياً وعدم النوم بمفرده ليلاً» إن مثل هذه المدينة لا أمل لها فى الخروج من دائرة لا آخر لها من الاستبداد والثورة.

فلماذا يعود إذن؟ ما حدث هو أن أفلاطون كان له تلميذ فى صقلية اسمه ديون، وهو شاب بات مخلصاً لأفلاطون وقضية الفلسفة، قد كتب له رسالة يبلغه فيها بوفاة ديونيسيوس الأكبر وبتولى ابنه ديونيسيوس الأصغر الحكم. وكان ديون صديقاً وصهراً لديونيسيوس الأصغر، وكان مقتنعاً بأن الحاكم الجديد منفتح على الفلسفة ولديه الرغبة فى أن يحكم بالعدل. وكان كل ما يحتاجه - فى رأى ديون - هو تلقى التوجيه الصحيح، الذى لا بد أن يخرج من بين شفتى أفلاطون ذاته. وألح ديون على أستاذه فى رجاء زيارته. وفى النهاية أبحر أفلاطون، بعد أن تغلب على لشكوك والظنون الخطيرة.

هذه حكاية قيمة عن أفلاطون تدل على أنه كان مؤيداً لمشروع مجنون لإقامة حكم «الملوك الفلاسفة» فى المدن اليونانية، وأن «المغامرة الصقلية» التى قام بها كانت الخطوة الأولى فى اتجاه تحقيق ما يطمح إليه. وعندما عاد مارتن هيدجر إلى التدريس سنة ١٩٣٤ بعد وظيفته المخزية كرئيس نازى لجامعة فرايبورج، سألوه بتهكم: «هل عدت من سيراكوزا؟» وهذه عبارة ليس هناك ما هو أفضل منها. إلا أن ما كان يبغيه أفلاطون لم يكن يختلف كثيراً عما كان يهدف إليه هيدجر. وكما يروى أفلاطون فى «الرسالة السابعة»، فقد كان يحلم بدخول الحياة لسياسية ولكن حكم الثلاثين الطاغى فى أثينا (٤٠٤-٤٠٣ ق.م) أثناه عما كان يحلم به. وبعد ذلك هجر لسياسة بالمرة، عندما أعدم النظام الديمقراطى الذى خلف الثلاثين صديقه ومعلمه سقراط. وانتهى أفلاطون، كما هو حال شخصية سقراط فى «جمهورية» أفلاطون، إلى أنه ما دام النظام لسياسى فاسداً فلا فرصة ضئيلة لاستعادة عافيته «بدون الأصدقاء والزملاء» - أى بدون من هم أصدقاء فلاسفة للعدل وأصدقاء صدوقين للمدينة. وفى غياب المعجزة، التى يصبح فيها الفلاسفة ملوكاً، أو يتجه فيها الملوك إلى الفلسفة، فإن أقصى ما يؤمل فى السياسة هو إقامة لحكومة المعتدلة فى ظل حكم القانون.

إلا أن ديون كان رجلاً يتمتع بقدر كبير من الحيوية بشأن توقع المعجزات. فقد قنع نفسه، ومن ثم سعى إلى إقناع أفلاطون، بأن ديونيسيوس يمكن أن يكون ذلك الشىء النادر الذى هو الحاكم الفيلسوف. وكانت لدى أفلاطون شكوكه؛ فمع أنه كان يثق فى شخصية ديون، فقد كان يعلم كذلك أن «الشباب غالباً ما يكونون عرضة للوقوع فريسة للنوازع المفاجئة لتى كثيراً ما تكون متقلبة». إلا أنه ظن كذلك - أو ربما برر الأمر لنفسه - أنه ما لم يقتنص هذه الفرصة النادرة، ويبذل الجهد للدفع بطاغية ناحية العدل، فإنه قد يتهم بالجبن وعدم الولاء للفلسفة. وبذلك وافق على الذهاب.

ولكن نهاية هذه الزيارة الثانية لم تكن سعيدة. فقد كان جلياً أن ديونيسيوس يهفو إلى الحصول على شارة التعلم، ولكنه كان يفتقر إلى النظام والالتزام اللذين يقتضيهما الخضوع للجدل الديالكتيكى ويجعل حياته متسقة مع نتائجه. (ويقارنه أفلاطون برجل يريد أن يقف تحت الشمس بشرط ألا تحرقه.) كان أشبه إلى حد كبير بالطبيب الذى لا يمكنه علاج مريضه ضد إرادته. ولذلك ثبت أنه من المستحيل الوصول بديونيسيوس العنيد إلى الفلسفة والعدل. بل إن أفلاطون وديون فى محاوراتهما كانا يخاطبان طموحات الطاغية السياسية، قائلين له إنه كفيلسوف سوف يتعلم كيف يقدم قوانين طيبة للمدن التى يفتحها، وبذلك يكسب صداقتها، الأمر الذى يمكنه حينئذ استغلاله فى توسيع مملكته أكثر وأكثر.

ولكن ديونيسيوس، الذى كان يعطى أذنيه للشائعات، أخذ يشك فى أن ديون يمهد لطموحاته هو السياسية، فطرده على الفور من سيراكوزا. وعندما فشل أفلاطون فى الصلح بين صديقيه السابقين، قرر الرحيل.

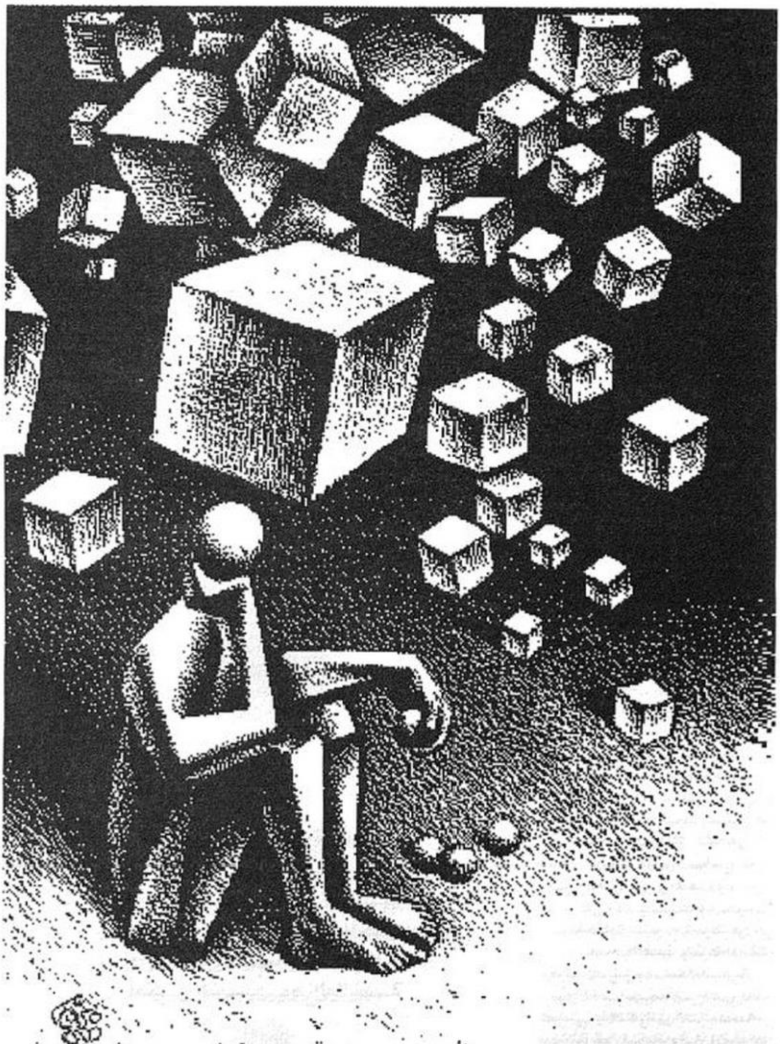
إلا أنه عاد مرة أخرى بعد ست أو سبع سنوات، بناء على طلب من ديون كذلك. فمع أن ديون كان لا يزال فى المنفى، فقد سمع أن ديونيسيوس عاد إلى دراسة الفلسفة وأبلغ أفلاطون بذلك. فى البداية لم يحرك أفلاطون ساكناً، حيث كان يعلم أن «الفلسفة غالباً ما يكون لها ذلك الأثر على الشباب»، وكان يشك فى أنه لا رغبة لديونيسيوس إلا فى إثارة القيل والقال بشأن رفض أفلاطون له باعتبار أنه لا قيمة له. واتباعاً من أفلاطون لنفس المنطق الذى جعله يقوم بزيارته الثانية، فقد قرر القيام برحلته الثالثة، والأخيرة. لكن من وجده حين وصوله كان رجلاً أكثر صلفاً وغروراً يعتبر نفسه فيلسوفاً وقيل إنه ألف كتاباً، وضاعت تلك القضية ولكن أفلاطون لم يلم إلا نفسه، حيث قال: «لم يكن لدى من سبب لأن أغضب من ديونيسيوس أكثر من غضبى من نفسى ومن هؤلاء الذين أجبرونى على المجىء». ولم يكن ديون شديد التفاؤل. وبعد ثلاث سنوات من سفر أفلاطون الأخير، هاجم سيراكوزا بالمرتزقة وحرر المدينة وطرد ديونيسيوس، إلا أنه كان هناك من خانه واغتاله بعد ثلاث سنوات. وبعد سلسلة من الانقلابات العنيفة استعاد ديونيسيوس العرش لكى يخلعه منه جيش كورنيث المدينة الأم لسيراكوزا. وامتد العمر بديونيسيوس وعاد إلى كورنيث، حيث يقال إنه أنهى حياته مديراً لمدرسة يعلم فيها مبادئه.

إن ديونيسيوس معاصر لنا. وقد اتخذ على مدار القرن الماضى أسماء عدة مثل: لينين وستالين، وهتلر وموسولينى، وماو وهو، وكاسترو وتروهيو، وأمين وبوكاسا، وصدام وخمينى، وتشاوشيسكو وميلوسيفتش - والقائمة تطول. وفى القرن التاسع عشر كان المتفائلون يعتقدون أن

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة أحمد محمود

الطغيان أمر من أمور الماضى. وعلى أية حال، كانت أوروبا قد دخلت العصر الحديث وكان لكل يعرف أن المجتمعات الحديثة المعقدة، ذات الصلة بالقيم الديمقراطية الدنيوية، لايمكن حكمها بالوسائل الاستبدادية العتيقة. قد تكون المجتمعات الحديثة سلطوية، وتتسم بيروقراطيتها بالبرود وتتصف أماكن العمل فيها بالقسوة، إلا أنها ليست أنظمة طاغية بالصورة التى كانت عليها سيراكوزا. لقد كان من المعتقد أن التحديث كفيل بإحالة مفهوم الطغيان التقليدى إلى أمر لا وجود له. وأنه مع دخول أمم أخرى من خارج أوروبا مسيرة التحديث، فإنها ستدخل هى الأخرى المستقبل مابعد الاستبدادى. ونحن الآن نعرف مدى خطأ ذلك. صحيح أن الحريم ومتذوقى الطعام فى العصور القديمة اختفوا، إلا أن أماكنهم شغلها وزراء الدعاية والحرس الثورى وبارونات المخدرات والبنوك السويسرية. فمازال الطاغية يحيا.

ومشكلة ديونيسيوس قديمة قدم الخلق. إلا أن مشكلة أنصاره المفكرين جديدة. وبينما أخرجت القارة الأوروبية فى القرن العشرين نظامين مستبدين كبيرين، هما الشيوعية والفاشية، فقد أخرجت كذلك نمطاً اجتماعياً جديداً نحتاج اسماً جديداً له: إنه المفكر الفيلسوف الطاغية. إذ جرؤ عدد قليل من كبار مفكرى تلك الفترة - الذين لاتزال أعمالهم مهمة لنا حتى الوقت الحالى - على خدمة ديونيسيوس الحديث صراحة بالقول والفعل، وحالاتهم يعرفها الجميع ومنهم مارتن هيديجر وكارل شميت فى ألمانيا النازية، وجورج لوكاش فى المجر، وربما آخرون غيرهم. وانضم كثيرون إلى الأحزاب الفاشية والشيوعية على جانبى الستار الحديدى، سواء بدافع من الانجذاب الاختيارى أو الطموح المهنى، دون مخاطرات كثيرة؛ وقليلون من قاموا بدور الجنود لبعض الوقت فى غابات العالم الثالث وصحاريها. وقام عدد يدعو للدهشة بالحج إلى السيراكوزات الجديدة التى تشيد فى موسكو وبرلين وهانوى وهافانا. وهؤلاء هم العيون السياسية التى قامت برحلات خُطِّطت بدقة على أراضى الطغاة وفى أيديها تذاكر العودة، حيث كانوا يبدون إعجابهم بالمزارع الجماعية ومصانع الجرارات ومزارع قصب السكر والمدارس. إلا أنهم لسبب أو لآخر لم يزوروا السجون.



لكن معظم المفكرين الأوروبيين بقوا على مكاتبهم، حيث زاروا سيراكوزا فى خيالهم وحسب، وأنتجوا أفكاراً لافتة للانتباه ورائعة فى بعض الأحيان لتوضيح معاناة الشعوب التى ما كان لعيونهم أن تلتقى بها أبداً. فقد شحذ أساتذة بارزون وشعراء موهوبون وصحفيون ذوو نفوذ مواهبهم كى يقنعوا كل من يستمعون إليهم بأن الطغاة المحدثين محررون وبأن جرائمهم التى لا رادع لها تتسم بالنبل، إن نحن نظرنا إليها من منظور صحيح. ولا بد لكل من يأخذ على عاتقه كتابة تاريخ فكرى صادق لأوروبا القرن العشرين أن يتمتع بقدر كبير من الشجاعة، إلا أنه سيحتاج كذلك إلى شيء آخر. إذ سيكون عليه التغلب على كراهيته بالقدر الذى يتيح له تدبر جذور هذه الظاهرة الغريبة والمحيرة. فما هو ذلك الشيء الموجود فى العقل البشرى الذى يجعل الدفاع الفكرى عن الطغيان ممكناً فى القرن العشرين؟ كيف بلغ الأمر بالتراث الغربى الخاص بالفكر السياسى، الذى يبدأ بانتقاد أفلاطون للطغيان فى «الجمهورية» ورحلاته غير الموفقة إلى سيراكوزا، بحيث يصل إلى النقطة التى يصبح عندها من صحة القول أن الطغيان طيب، بل جميل؟ سيكون علينا طرح هذه الأسئلة الكبيرة، ذلك أنه سنجد أنفسنا نتعامل مع ظاهرة عامة، وليس مع حالات منفصلة من السلوك الذى يتعدى الحدود المعقولة. وما حالة هيديجر إلا أوضح أمثلة القرن العشرين لانحدار الفلسفة، التى هى حب الحكمة، إلى حب الطغيان، خلال الذاكرة الحية.

ولكن من أين نبدأ؟ قد يكون أول ما يرد على الخاطر هو الاتجاه إلى تاريخ الأفكار، على افتراض أن حب الطغيان الفكرى والممارسات الاستبدادية الحديثة تشترك فى جذورها الفكرية. وهو سيجد الكثير من التحقيقات العلمية بشأن مصادر الفكر السياسى الحديث الذى يشترك فى هذا الافتراض، كما يشترك فى منهج يقسم التراث الفكرى الأوروبى إلى اتجاهات متضاربة، ومن ثم يسم أحدها بأنه محب للطغيان. والهدف المفضل لمثل هذه الدراسة هو عصر التنوير، الذى شاع تصويره اعتباراً من القرن التاسع عشر على أنه انتزاع الجذور الأوروبية المعقدة من تربة الديانة والتراث المسيحيين، وتشجيع التجارب المتعجرفة لإعادة تشكيل المجتمع تبعاً لأفكار النظام العقلانى البسيطة.

وطبقاً لهذه الصورة، فإن عصر التنوير لم يأت بالطغاة وحسب، بل إنه كان مستبداً فى أساليبه الفكرية ذاتها، التى كانت تتسم بأحكامها المطلقة وبعدم المرونة وعدم التسامح والقسوة والعجرفة والعمى. وهذه المجموعة من الصفات مأخوذة من كتابات إيساى برلين، الذى عرض، فى سلسلة من المقالات شديدة الأهمية فى التاريخ الفكرى كتبها فى عقود ما بعد الحرب، أعقد قضية بإلقائه اللوم فيما يخص نظرية الطغيان الحديث

وممارساته على «الفلاسفة». وكان هم برلين الأساسي هو معاداة لتنوع والتعددية لتي لاحظها في تيار رئيسي في التراث الغربي بدأ بأفلاطون وبلغ ذروته لفكرية في عصر التنوير، قبل أن يؤتي ثماره لسياسية في شمولية لقرن لعشرين. وكانت افتراضات هذا لتيار لفكري الرئيسية هي ن كل المسائل الأخلاقية والسياسية لها إجابة صحيحة واحدة، ون هذه الإجابة يمكن لتوصل إليها من خلال العقل، ون كل هذه الحقائق تتوافق بلضرورة مع بعضها لبعض. وبناء على هذه الافتراضات، أقاموا معسكرات الكولاك ومعسكرات الموت ودافعوا عنها. وكان عصر التنوير هو لذي قدم النموذج المثلي «الذي ضحت في عصرنا من أجله كائنات بشرية بنفسها وبغيرها، ربما أكثر من أية قضية أخرى في التاريخ الإنساني»، كما يقول برلين.

تبدو هذه قصة مقنعة. ولكن مشكلتها، هي نها تتضارب مع قصة أخرى تبدو مقنعة يرويها مؤرخو الفكر تتوصل إلى حكم مختلف بعض لشيء بشأن المسئولية لفكرية بلنسبة للطغيان الحديث. وتركز هذه القصة الثانية على الدوافع الدينية أكثر من تركيزها على المفاهيم الفلسفية، وعلى قوة اللاعقلاني في الحياة الإنسانية، وليس على ادعاءات العقل: وقد نقول إنها تقدم التاريخ الفكري بالطريقة التي ربما كتبه بها دوستيوفسكي، وليس روسو. وفي العقود التي تلت الحرب العالمية مباشرة حظيت النزعة اللاعقلانية الدينية بقدر كبير من اهتمام المؤرخين لغربيين الذين قدموا حلقة تربط بين نظرية لطغيان الحديث وممارسته والظواهر الدينية، مثل التصوف واليسوعية والعقيدة الألفية والقبالانية ولفكر الغيبي بصورة أكثر عمومية. وما كانوا يرونه أثناء العمل في عقول الثوار والمفوضين هو نزعة لاعقلانية قديمة لتعجيل المجيء إلى مملكة الرب في علم دنيوي. وفي كتاب The Pursuit of the Millennium (1957) وضع نورمان كون أسساً تاريخية راسخة لهذا المنهج. فقد عرض مدى أهمية انتشار النزعة الألفية الثورية والنزعة الفوضوية لصوفية في أوروبا فيما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر، كما أوجد تشابهاً بين لخيالات الأخروية الخاصة بتلك لفترة وخيالات لقرن العشرين.

وفي دراستيه بعنوان The Origins of Totalitarian Democracy (1952) و Political Messianism (1960) قرَّب المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون هذا المنهج من الحاضر بقوله إن أهم ملامح الفكر السياسي الأوروبي في القرنين الثامن عشر ولتاسع عشر لم يكن نزعته العقلانية، لتي ربما كانت ستقوده إلى اتجاه ليبرلي، بل هو حماسه الديني والآمال اليسوعية لتي باتت الأفكار الديمقراطية الحديثة مشربة بها. على خلاف ما قاله برلين. وفي عنفوان الثورة لفرنسية، لم يعد العقل عقلانياً وأصبحت الديمقراطية ديانة زائفة بلنسبة للرجال المحدثين المحرومين من الإيمان لتقليدي بالآخرة. وكان تالمون يعتقد أنه في هذا السياق لديني فقط يمكننا فهم كيف أن النموذج المثالي الديمقراطي الحديث صار حلماً استبدادياً دموياً في لقرن لعشرين.

إنها قصة أخرى تبدو مقنعة. ولكن أياً من هاتين لقصتين سنختارها لنرويها؟ إذ إن هذا سيعتمد اعتماداً كبيراً على أي جوانب الطغيان الحديث الفكرية ولسياسية يشعر هو نها تستحق اهتمامنا. وإن كان الأمر على سبيل الحصر فهناك «التخطيط» السوفيتي، وبرنامج النازيين شديد لفاعلية للقضاء على اليهود، وتدمير كمبوديا الذاتي المنظم، وبرامج التلقين الأيديولوجي، وشبكات المخبرين للصابة بجنون الارتياب، والشرطة السرية، أما إذا كانت المسألة تفسير الطريقة التي تكونت بها هذه الممارسات الاستبدادية وكيفية الدفاع عنها، فإن هناك ما يغري لإلقاء اللوم على لنزعة العقلانية الفكرية القاسية التي سحقت كل من وقف في طريقها. ومن ناحية أخرى، فإنه إذا خطر على البال الدور الذي يقوم به في الطغيان الحديث كل من تقديس الدم ولتراب، والانشغال لهستيري بلفئات لعرقية، وتمجيد العنف الثوري باعتباره قوة من قوى التطهير، وعبادة الفرد، والاجتماعات الجماهيرية التي تتسم بالعربدة، فسيكون هناك ما يغري على القول بأن العقل انهار أمام العواطف اللاعقلانية لتي هاجرت من الدين إلى السياسة. ولكن ماذا لو كنا أكثر طموحاً ورغبة في تفسير كلتا الفئتين من الظواهر؟ في هذه الحالة سيكون علينا الابتعاد عن تاريخ الأفكار.

هناك طريقة أخرى لبحث حب الطغيان الفكري، وهي فحص لتاريخ الاجتماعي للمفكرين في لحياة لسياسية الأوروبية، وليس تاريخ الأفكار التي كانوا يؤمنون بها. وهناك كذلك بعض الروايات التي تقدم تفسيرات يعتد بها لحب الطغيان في لقرن لعشرين. وأكثر القصص شيوعاً قصة مأخوذة من التجربة الفرنسية. وهي تبدأ بقضية دريفوس، التي يصورها الجميع على أنها أخرجت المفكرين لفرنسيين من مستنقعات «الفن للفن» l'art pour l'art ونبهتهم إلى مهمتهم الأسمى باعتبارهم المراقبين الأخلاقيين على الدولة الحديثة. ولفصول لتالية يمكن أن يتلوها غيباً أي تلميذ فرنسي: الاشتباكات بين الدريفوسيين الجمهوريين وخصومهم الوطنيين الكاثوليك؛ والاختلاف بشأن الثورة الروسية والجبهة لشعبية بعد الحرب العالمية الأولى؛ وتسويات فيشي الفكرية ولسياسية؛ وسيطرة ماركسية سارتر الوجودية بعد الحرب؛ والانقسامات الحادة بين للمفكرين بشأن الجزائر؛ وبعث الراديكالية ليسارية بعد مايو ١٩٦٨؛ وأزمة الضمير crise de conscience بعد نشر كتاب سولجنتسين Gulag Archipelago في السبعينيات؛ وظهور إجماع جمهوري ليبرالي في عهد ميتران.



بينما أخرجت القارة الأوروبية في القرن العشرين نظامين مستبدين كبيرين، هما الشيوعية والفاشية، فقد أخرجت كذلك نمطاً اجتماعياً جديداً نحتاج اسماً جديداً له: إنه المفكر الفيلسوف الطاغية

إلا ن الدروس الأخلاقية المستفادة من هذه لقصة تختلف تبعاً لما تلقاه الراوي من تعليم سياسي. فقد أصبحت حسب رواية جان بول سارتر أسطورة بطولية عن ظهور المفكر المنعزل «الملتزم» لذي أكد «ذاته المفردة» في مقابل يديولوجيا المجتمع البورجوازي والأنظمة لطاغية التي أفرزها في أوروبا (الفاشية) وفي الخارج (الاستعمار). وفي كتابه المهم Plaidoyer pour les intellectuals الذي يضم نصوص محاضرات لقاها سنة ١٩٦٥، وصف سارتر المفكر على أنه جان دارك يساري يمثل ما هو في المقام الأول إنساني في مواجهة قوى «السلطة» الاقتصادية والسياسية اللاإنسانية، وكذلك في مواجهة تلك القوى الثقافية لرجعية، بمن في ذلك لزملاء الكُتَّاب الخونة لذين تدعم أعمالهم الطاغية الحديث «بموضوعية».

وكان الأمر بالنسبة لخصمه ريمون آرون هو على وجه لتحديد أن هذه المقابلة الساذجة بين «الإنسانية» و«السلطة» كانت تصور عجز المفكرين الفرنسيين، منذ قضية دريفوس، عن فهم لتحديات الحقيقية للسياسة الأوروبية في القرن لعشرين. ويرى آرون أنه لم يكن من قبيل المصادفة - بل كان بالفعل أمراً متوقعاً إلى أقصى حد - أن نموذج سارتر المثلي للالتزام سوف يحوله إلى مدافع لا يلين عن لستالينية في لعقد لتالي للحرب لعالمية لثانية. وفي كتابه L'Opium des intellectuals (1955) أعاد ريمون رواية قصة ظهور المفكر الحديث، ولكن لا شك في أن ذلك كان وراءه قصد مضاد لما هو شائع، حيث أوضح مدى عجز للمفكرين وسذاجتهم كفئة، عندما كان الأمر يتعلق بالأمور السياسية الخطيرة. وكان يرى أن مسئولية المفكرين الأوروبيين الحقيقية بعد الحرب هي أن يجعلوا ما لديهم من خبرة متصلاً بلسياسة الديمقراطية الليبرالية، وأن يبقوا على الشعور بالقدر الأخلاقي في الحكم على المظالم النسبية الخاصة بالأنظمة السياسية المختلفة - وهو ما يعني باختصار أن يكونوا مشاهدين مستقلين لديهم إحساس معقول بأدوارهم كمواطنين وكصناع رأي. وهذه المسئوليات لم يتقبلها سارتر ولا أتباعه.

كان آرون محقاً. ففي فرنسا كان المفكرون لرومانسيون «الملتزمون» هم من خدم قضية لطغيان في القرن العشرين. إلا أن الصورة في ألمانيا، التي لم يكن آرون يعرفها حق المعرفة، كانت مختلفة تمام الاختلاف. فقد كانت المشكلة هناك هي على وجه التحديد الانفصال لسياسي. فلعدة أسباب يناقشها مؤرخو ألمانيا - وهي تراث اللامركزية لسياسية، وعدم وجود عاصمة ثقافية، ونموذج الجوهر الروحي innerlichkeit، والنزعة المحافظة الفطرية، واحترام السلطة العسكرية - لم تُكوِّن ألمانيا طبقة فكرية على لنمط الفرنسي، وبالتالي فإن الالتزام السياسي لم ينشأ نفس النشأة. وكان الافتراض

شرقى الراين فى لقرن لتاسع عشر وأوائل القرن لعشرين هو أن أساتذة الجامعات مشغولون بعلم Wissenschaft لا يتقطع فى لجامعة المعزولة، وأن الكُتّاب يسعون وراء ثقافة bildung الخاصة وهم يكتبون أعمالهم، وأن الصحفيين وحدهم هم الذين يجرؤون على لكتابة فى السياسة، وهم ليسوا جديرين بالثقة.

كانت تلك خرافة، ولكنها خرافة شديدة الجاذبية فى الثقافة الألمانية الحديثة. ولا يتضح هذا أكثر من وضوحه فى كتاب توماس مان «تاملات رجل لاسياسى» (١٩١٨)، وهو عمل شديد لشخصية، وهو كذلك أكثر أعمل مان لسياسية قسوة. فبينما كان مان يستهدف أخاه هاينريش، حاول توجيه ضربة إلى ادعاءات الأديب Zivilisztionsliterat الفرنسى بما لديه من ولع طفولى بالديمقراطية والتنوير لشعبى. ودافع مان عن تراث الجوهر الروحى Innerlichkeit الألمانى على أسس جمالية وسياسية. وقد كتب يقول: لتراث الألمانى ثقافة وروح وحرية وفن وليس حضارة ومجتمعا وحقوق تصويت وأدب.... فعلى العكس من العقل raison والروح esprit لفرنسيين، هناك الجوهر الروحى Innerlichkeit الألمانى الذى يضمن عدم إعلاء الألمان المشاكل الاجتماعية فوق المشاكل الأخلاقية وفوق لتجربة الروحية.

ومع ذلك فإنه كما كان هو نفسه يعلم ـ وهو وما أسف عليه فيما بعد ـ فقد كان موقفه «اللاسياسى» المبدئى يحمل قدراً كبيراً من المغزى لسياسى وكان بمثابة مبرر للأهداف الألمانية فى الحرب العالمية الأولى، وشجع الرأى الشائع القائل بأن صلح فرساى كان عملاً من أعمال الحرب لثقافية. وكتب يقول: «هذه الروح لسياسية المعادية ثقافياً لألمانيا هى بالضرورة المنطقية معادية لألمانيا من لناحية السياسية».

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يستهل فيها مفكر ألمانى «لاسياسى» حياته لسياسية استهلالاً مريعاً. فعند إنشاء الرايخ سنة ١٨٧١، وعند نشوب الحرب فى أغسطس ١٩١٤، ومرة أخرى فى ليلة أول مايو Walpurgisnacht 1933، قحم العشرات من كبار أساتذة وكُتّاب ألمانيا أنفسهم بحماقة وجهل فى لسياسة، سواء على أسس متناقضة للدفاع عن التراث الألمانى «للاسياسى»، أو بدافع من الاعتناق لسذج المفلجئ للسياسة التى لم يكونوا قد بدءوا فى فهم أسليبها (ومن أبرز هؤلاء هيديجر). وانتهى معظمهم إلى أن اقتحامهم المفاجئ للسياسة كان خطأ، وسرعان ما عادوا إلى دراساتهم ومعاملهم.

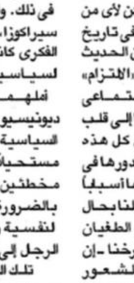
وقال الفيلسوف يورجن هابرماس فى عدد من الكتابات المهمة فى فترة ما بعد الحرب عن الموقف لسياسى ولثقافى الألمانى إن هنا كان على وجه لدقة الدرس الخطأ المستفاد من تلك الغلطات. فمنذ بداية لقرن لتاسع عشر صار لكُتّاب والمفكرون الألمان، بانسحابهم من السياسة الحديثة من حيث المبدأ، معتادين على لعيش فى علم فكرى خرافى تحكمه الخيالات بشأن بلاد اليونان أو الغابات لتيوتونية، وهى الخيالات التى جعلت الطغيان النازى يبدو لبعضهم على أنه بداية التجديد الروحى والثقافى. وفى رأى هابرماس أنه فقط بالنزول من على جبال العلم Wissenschaft والثقافة Bildung إلى سهول الخطاب السياسى الديمقراطى، كان يمكن تطعيم المفكرين الألمان ضد هذا الإغراء الاستبدادى.

وتبدو مقولة هابرماس مقنعة. ولكن إذا كان محقاً فى إلقائه باللوم على الفلسفة الألمانية بشأن الانفصال السياسى، وإذا كان آرون محقاً فى إلقائه باللوم على الالتزام السياسى الأعمى فى فرنسا، فأين يصل هذا الأمر بنا؟ من الواضح أن أياً من التفسيرين لا يعنى أوروبا القرن العشرين بصورة عامة. إذ يبدو أنه لا يمكن لأى من «العقلانية» ولا «اللاعقلانية» فى تاريخ الأفكار أن تفسر نظرية الطغيان الحديث وممارسته، كما يخفق كل من «الالتزام» و«الانفصال» فى التاريخ الاجتماعى للمفكرين فى الوصول بنا إلى قلب الموضوع. ومن الواضح أن كل هذه الاتجاهات والميول كان لها دورها فى التاريخ الأوروبى، سواء باعتبارها أسباباً وثيقة أو آثاراً، إلا أن أياً منها لا يدلنا بحال من الأحوال على سبب ظهور حب الطغيان الفكرى. وعند هذه النقطة فإن مؤرخنا ـ إن كان لا يزال معنا ـ قد يبدأ فى الشعور باليأس. ربما يبدأ فى التساؤل عما إذا كانت الإجابة عن هذا السؤال التاريخى موجودة فى التاريخ أم يجب البحث عنها فى مكان آخر. وكان هذا سيصبح تساؤلاً مفيداً، ذلك أنه ربما شجعه على إعادة بحث تاريخ أفلاطون وديون وديونيسيوس القديم من زاوية أخرى، سعياً وراء أدلة على القوى الأعمق التى تجتذب العقل إلى الطغيان.

أكثر ما يلفت النظر بشأن ديونيسيوس الشاب هو أنه كان مفكراً. ربما كان أول طاغية لديه مثل تلك الادعاءات، ولكن من المؤكد أنه لم يكن الأخير. فاليوم، وفى أركان مكتبات بيع الكتب الأوروبية ذات الميول اليسارية، مازال بإمكاننا أن نجد مجموعات غير مرغوب فيها من الأعمال الكاملة للينين وماو، بل وستالين، التى تولت ترجمتها مكاتب الدعاية فى العالم الشيوعى ونشرتها منظمات كانت واجهة لها فى الغرب. وقد يبدو مضحكاً لنا الآن أن هناك من كان يشعر بحاجة إلى الرجوع إلى مثل هذه الأعمال، أو حتى إلى كتابتها. إلا أننى أشك فى أن أفلاطون أو ديون كان قد فكر فى ذلك. واحتكاماً إلى أعمالهما فى سيراكوزا، فقد أدركا أن دافع ديونيسيوس الفكرى كانت له علاقة مهمة ما بطموحاته السياسية الاستبدادية ـ ومن ثم كان أملهما فى أنه بإحداث تحول فى ديونيسيوس يمكنهما الحد من طموحاته السياسية الاستبدادية. والواقع أن ذلك بدا مستحيلاً. ولكن إذا كان أفلاطون وديون مخطئين فى آمالهما، فهما لم يخطئا بالضرورة فى افتراضاتهما بشأن القوة النفسية والمنطقية التى تجتذب بعض الرجل إلى الطغيان.

تلك القوة هى الحب، إيروس. ويرى أفلاطون أنك لكى تكون إنساناً لا بد أن تكون مخلوقاً ساعياً، أى مخلوقاً لا يعيش فقط لكى يلبى حاجاته الأساسية، بل هو مدفوع بصورة أو بأخرى إلى توسيع تلك الحاجات والارتقاء بها فى بعض الأحيان، وحينئذ تصبح غايات جديدة للسعى. فلماذا «يبذل» البشر «قصارى جهودهم» على هذا النحو؟ يرى أفلاطون أن هذا سؤال نفسى عميق، وهو سؤال تجيب عنه الشخصيات فى محاوراته بطرق مختلفة. وربما كان أحب تلك الإجابات هو ما قدمته ديوميتا وأورده سقراط فى Symposium، وهو أن «كل الرجال مبدعون من الناحيتين الجسدية والروحية». فنحن ـ أو على الأقل نشعر أننا كذلك ـ مخلوقات ناقصة ولا يمكننا البقاء إلى أن يصبح احتمال ما نشعر به داخلنا واقعاً ملموساً، وإلى أن يمكننا «إنجاب الجميل» كما تقول هى. وهذا الشغف، وهذا الحب، موجود فى كل رغباتنا الطيبة والصحية، فى رغبات الجسد ورغبات الروح: وبعض الناس يشعرون فى المقام الأول برغبات الجسد ويلبونها، بينما يصبح أصحاب الأرواح المتلهفة فلاسفة أو شعراء، أو يشغلون أنفسهم بـ«التنظيم الصحيح للمدن والمنازل» ـ أى بالسياسة فى أسمى معانيها. وتقول ديوميتا لسقراط إنه حيثما رأينا النشاط الإنسانى الذى يستهدف الخير، فسوف نجد بعضاً من آثار الحب.

ولكن ما هو النشاط الموجه لما هو ضار لنا أو لغيرنا ـ هل هو السُكْر مثلاً أم القسوة؟ وهل هذان يدفع إليهما الحب كذلك؟ يقودنا أفلاطون فى Phaedrus إلى الظن بأن الأمر كذلك، عندما يجعل سقراط يقدم صورة شهيرة للروح تبينها على أنها فريق يضم حصانين مجنحين يقودهما سائق عربة. ويقال إن أحد الحصانين نبيل ومشدود إلى ما هو خالد وصادق، بينما يتسم الحصان الآخر بالوحشية ولا يمكنه التحكم فى نفسه ويعجز عن التمييز بين ما هو غث وما هو سمين: فهو يرغب فى كل شىء. ويرى سقراط أنه إذا كان الحصان الأدنى أشد قوة من الحصان الأعلى فإن الروح تظل قريبة من الأرض، أما إذا كان الحصان النبيل هو الأقوى، أو كان بإمكان سائق العربة مساعدته، فإن الروح ترتفع لتكون أقرب إلى الحقيقة الخالدة. ويمكن أن توجد كل الأرواح ـ وبالتالى كل الأنماط البشرية ـ فى مكان ما من هذا السبيل السماوى، حيث يكون بعضها أدنى للأرض والبعض الآخر أقرب للسماء، تبعاً لطريقة سير خيولهم التى تحركها الشهوة. ويصف سقراط تسعاً من تلك الأرواح، أعلاها هى روح الفلاسفة والشعراء، وأدناها روح الطاغية.



الرجل المستبد صورة عكسية للفيلسوف: فهو ليس متحكماً فى طموحاته ورغباته، وهو رجل يمتلكه جنون الحب، وهو عبد لطموحاته ورغباته وليس متحكماً فيها

ومن خلال قراءة تاريخ سقراط وأعمال أفلاطون خاصة كتابه «الجمهورية» يتضح لنا أن هناك صلة بين الطغيان الذى فى العقل والطغيان الذى فى الحياة السياسية. فبعض الأرواح المستبدة تصبح حاكمة للمدن والدول، وفى هذه الحالة تصبح شعوب بكاملها خاضعة

ســحر الاقتــراب مــن الحاكــم

لجنون الحكام الشهوانى. إلا أن مثل هؤلاء الحكام نادرون وقبضتهم على السلطة ضعيفة. وهناك فئة أخرى أكثر شيوعاً من الأرواح المستبدة التى يفكر فيها سقراط، وهى تلك التى تدخل الحياة العامة ليس فى صورة حكام، بل كمعلمين وخطباء وشعراء ـ وهم من نسميهم الآن مفكرين. وهؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا خطرين، لأن الأفكار «لوّحتهم». وكما هو حال ديونيسيوس، فإن هذا الصنف من المفكرين عاطفى بشأن حياة العقل، ولكنه على العكس من الفيلسوف لا يسعه التحكم فى عاطفته: فهو غارق حتى أذنيه فى النقاش السياسى، وكتابة الكتب، وإلقاء الخطب، وتقديم النصح بنشاط محموم لا يكاد يغطى عجزه وعدم تحمله للمسئولية. وهؤلاء الرجال يعتبرون أنفسهم عقولاً مستقلة، بينما الحقيقة هى أنهم قطيع تقودد شياطينهم الداخلية وتعطشهم إلى تقبل جمهور متقلب الأهواء لهم. ومن يستمعون إلى هؤلاء ـ وهم عادة من الشباب ـ قد يشعرون بتأجج المشاعر داخلهم: إذ يجعلهم ذلك الشعور موضع ثقة. ذلك أن التوجيه الصحيح قد يسبغ عليهم الشرف وينشر العدل فى مدنهم. إلا أنهم بحاجة إلى تعلم التحكم الفكرى فى النفس إن هم أرادوا تحويل تلك العاطفة تحولاً خالصاً إلى الانتفاع الطيب.

ويدرك سقراط ذلك. إلا أن هؤلاء المفكرين يفتقرون إلى تواضعه وحرصه التعليمى: فسمعتهم تعتمد على إثارة العواطف وليس توجيهها. ويرى سقراط أن هؤلاء المفكرين يقومون بدور مهم فى دفع الديمقراطيات ناحية الطغيان بدفعهم عقول الشباب إلى حالة من الإثارة والجنون، إلى أن ينتقل بعضهم ـ ربما أكثرهم ذكاء وشجاعة ـ من الفكر إلى العمل ويسعى إلى تحقيق طموحاته الاستبدادية فى السياسة. وبعد أن يشعر هؤلاء المفكرون بالرضا لتحقق أفكارهم فى الواقع، يصبحون مداهنين للحاكم خانعين له ويؤلفون «أناشيد الطغيان» عندما يتولى السلطة.

يقدم سقراط فكرة الملوك الفلاسفة المثيرة فى «الجمهورية» ليخرج محاوريه من رضاهم فى التفكير فى هذه العلاقة بين المفكرين والطغاة. وكان هذا الملك الفيلسوف ـ سواء أكانت تلك فطرته أو نشئ عليها ـ سيقضى على الفئتين معاً. فالملك الفيلسوف «نموذج مثالى»، ليس بالمعنى الحديث لهدف الفكر المشروع الذى يتطلب التحقيق، بل ما يسميه سقراط «حلماً» يساعد على تذكيرنا بكيف أنه من غير المحتمل الجمع فى يوم من الأيام بين الحياة الفلسفية ومطالب السياسة. فقد لا يكون فى قدرتنا إصلاح الطاغية، إلا أننا قادرون دوماً على ممارسة التحكم الفكرى فى الذات. وهذا هو السبب فى أن أولى مسئوليات الفيلسوف الذى يجد نفسه محاطاً بالفساد السياسى والفكرى قد تكون هى الانسحاب. وفى «الجمهورية» يشبّه سقراط قَدَر الفيلسوف الحق فى مدينة ناقصة بـ«كائن بشرى رافق وحوشاً برية، دون أن تكون لديه الرغبة فى الانضمام إليها فيما ترتكبه من ظلم، فى حين أنه لا يكفى كرجل وحيد لمقاومة كل الحيوانات المتوحشة». ولأنه يضع كل هذا فى حسبانه فإن يظل هادئاً ويفكر ويتدبر ما يخصه من أمور ـ كرجل فى عاصفة، يلجأ إلى جدار يعصمه، حين تثير الريح التراب والأمطار من حوله.

هل يعنى هذا أن أفلاطون تخيل الحياة الفلسفية حياة منفصلة انفصالاً تامّاً؟ لا. فبعد إلقاء شخصية سقراط كلمتها عن الفيلسوف فى العاصفة، تمضى فى القول بأن هذا الرجل لا يحيا الحياة الفضلى، ذلك أنه فى المدينة الطيبة وحدها «سوف يزداد نمواً ويصون الأشياء العامة إلى جانب الأشياء الخاصة». وكما نعرف فإن سقراط الحقيقى قُتل بسبب محاربته الطغيان، ليس بتجلياته السياسية الواضحة وإنما فى مصدره النفسى داخل العقل البشرى.

وهذا الوعى الذاتى هو ما يميز سلوك أفلاطون وديون فى سيراكوزا عن المفكرين المحبين للطغيان فى أوروبا القرن العشرين. ولأن أفلاطون وديون كانا قد اتبعا النموذج السقراطى وانتزعا كل طغيان من روحيهما، فقد كانا قادرين على فهم طبيعة حكم ديونيسيوس وكان هناك ما يبرر سعيهما لتحرير سيراكوزا من طغيانه. وكان كل منهما يأمل كمفكر تحويل ديونيسيوس إلى الفلسفة وجعله يرى ما فى أعماله من ظلم وما فى كتاباته من حمق. وكانا يأملان كذلك مكافحة الطغيان بالكلمة، وليس بالسيف. وفشلا، ورغم اتخاذ كل منهما سبيلاً منفصلاً فيما بعد، حيث عاد أفلاطون إلى أثينا ونزل ديون إلى ساحة الوغى، فقد دافع أفلاطون عما قام به ديون فى المجالين. فقد اعترف بأن ديون، بصفته مواطناً من سيراكوزا يحب وطنه، ربما ترك آماله تضلله بشأن فرص إقناع ديونيسيوس وبأنه شعر بضرورة رفع السلاح بعد فشل مساعيهما. إلا أن أفلاطون كان مقتنعاً بأن ديون فعل هذا كله دون أن يدع الطغيان الذى حاربه يدخل روحه. فليس من العار أن يفشل المرء أو يموت فى السياسة، مادام متحرراً من ذلك الطغيان. ولم يكن بإمكان ديونسيوس إدراك هذا المبدأ البسيط. فقد طالت حياته ولكنه عاش فى خزى، بينما مات ديون ميتة مجيدة، حيث بقى على وفائه للحق ولمدينته.

إن سحر سيراكوزا قوى بالنسبة لأى مفكر أو مفكرة، ولا بد أن يكون كذلك. فلا ينبغى للمرء أن يقبل خرافة سارتر النرجسية الخاصة بالمفكر كبطل كى يرى ما رآه أفلاطون منذ زمن بعيد. ذلك أن هناك صلة ما فى العقل البشرى بين النزوع إلى الحق والرغبة فى المساهمة فى «الترتيب الصحيح للمدن والأسر». ولكن لأن أفلاطون تعرف بالتحديد على هذه الرغبة الملحة باعتبارها حافزاً ـ أى كدافع يمكن أن ينقلب إلى عاطفة هوجاء ـ فقد كان واعياً بقدرته الهدامة ومشغولاً بتوجيهها لمصلحة الحياة الفكرية والسياسية الصحيحة. وهناك ما يغرى المرء على القول بأن هذا الوعى الذاتى السامى بشأن كيفية معالجة العقل للأفكار هو الذى يميز فى المقام الأول الفيلسوف بالمعنى الأفلاطونى عن كثيرين من المفكرين المحدثين. وهذا الوعى الذاتى نفسه هو ما ينبغى أن يكون بحوزتنا عند التفكير فى حب الطغيان فى القرن العشرين والتعلم منه.



قد لا يكون فى قدرتنا إصلاح الطاغية، إلا أننا قادرون دوماً على ممارسة التحكم الفكرى فى الذات. وهذا هو السبب فى أن أولى مسئوليات الفيلسوف الذى يجد نفسه محاطاً بالفساد السياسى والفكرى قد تكون هى الانسحاب

ومن الصعب الظن بأن أى قرن من قرون التاريخ الأوروبى قد رُتّب أفضل من القرن الماضى بحيث يثير عواطف العقل المفكر ويجره إلى كارثة سياسية. إن كثيراً من مبادئ الشيوعية والفاشية، والماركسية بأشكالها المختلفة، والنزعة القومية، والعلم الثلث، قد أوحت به كراهية الطغيان، وجميعها قادر على الإيحاء للطغاة البغيضين وعلى إغماض عيون المفكرين عن جرائمهم. ومن الممكن تصور هذه الاتجاهات باعتبارها جزءاً من سرد تاريخى رفيع المستوى يمكن أن نعزو إليه بعض القوى الخارجية لتى تحرك كلاً من الأحداث وتأويلاتها.

وعندما نقرأ الآن ما كتبوه ونبذل الجهد كى نفهم أفعالهم، فلا بد لنا أن نتعدى نفورنا لداخلى ونواجه القوى الفكرية الأعمق المؤثرة فى العقل المحب للطغيان ـ وربما أثرت فى عقلنا كذلك. ومع أن أيديولوجيات القرن العشرين تخاطب غرور بعض المفكرين وطموحهم لفج، فهى تخاطب كذلك ـ بخبث وغش ـ ما يبثه فينا لتفكير ذاته من إحساس بلعدل وكراهية للاستبداد، وهو ما يمكن ن يتملكنا بالمعنى الحرفى للكلمة إن نحن لم نحكم السيطرة عليه. وسوف تبدو الدعوة إلى الاعتدال والشك ـ لمن تملَّكهم ـ ضرباً من الجبن ولضعف. وهذا هو سبب تعرض المفكرين الأوروبيين الذين أثاروا هذه الدعوة ـ ومنهم آرون ـ لهجمات بغيضة باعتبارهم خونة لمهنتهم.

لقد قر القضاة بأن القضايا الصعبة تخلق قوانين سيئة. وعليه فقد يكون علينا أن نغمض أعيننا عن الأخطاء السياسية التى ارتكبها الفلاسفة الأوروبيون، ونحاول فهمها فى ضوء ظروف لقرن العشرين غير العادية، ونأمل فى أيام أكثر هدوءاً فيما هو آت. إلا أننا نخطئ إن نحن استسلمنا لذلك. فلطغيان لم يمت، لا فى السياسة ولا فى أرواحنا بكل تأكيد. ربما يكون عصر الأيديولوجيات السائدة قد ولى، ولكن مادام الرجال والنساء يفكرون فى لسياسة ـ ومادام هناك مفكرون ومفكرات بأى حال من الأحوال ـ فسيكون هناك إغراء للخضوع لجاذبية فكرة ما، وللسماح للعاطفة بأن تعمينا عن قدرتها الاستبدادية، وللتخلى عن مسئوليتنا الأولى، وهى السيطرة على الطاغية الذى بداخلنا.

ولم تكن أحداث القرن الماضى سوى مناسبة لإظهار حب الطغيان الفكرى غير العادى الذى لن تختفى مصادره فى الظروف لسياسية الأقل تطرفاً، لأنها جزء من تكوين أرواحنا. وإذا كان مؤرخنا يريد حقاً فهم خيانة المثقفين، فإن عليه هو الآخر أن ينظر داخله. ■


مجموعة كاريير ٢٠٠٣
New N2
Platinium
Window (GR)
Mega II
Miraco
Carrier
لاشئ يفوق الخبرة لاشئ يفوق كاريير
المركز الرئيسى: ١٥ شارع مكة المكرمة - خلف نادى الصيد - المهندسين مصر الجديدة: ٢٠٤ شارع الحجاز مدينة نصر: ١٨ شارع عبدالله العربى. إمتداد شارع الطيران
شبرا: ٧٠ شارع شبرا المعادى: ٢/١١ شارع النصر - المعادى الجديدة الهرم: ٩٨أ شارع الملك فيصل - تقاطع الملك فيصل مع المريوطية
الإسكندرية: الفرع الرئيسى: ٥ شارع ألبرت الأول - بجوار كوبرى كليوباترا - سموحة ت: ٤٢٥٢٠٠٥(٠٣)
لمركز الخدمة فى الإسكندرية اتصل ب: ٥٤٤١٥٠٠ - ٠٣ (٥ خطوط)
الغردقة: شارع المحكمة ت: ٥٤٩١٥٥ (٠٦٥) الأقصر: شارع الروضة الشريفة - العوامية ت: ٣٧٢٩٤١ (٠٩٥)
لخدمة العملاء والمبيعات فى القاهرة الكبرى اتصل ب: ١٩١١١

النساء



هذا الكتاب «خرافات لغوية»، نُشر في مجموعة بنجوين ١٩٩٨. حرره «لوري بوير» مدرس علم اللغويات في جامعة فيكتوريا، في ويلنجتون. نيوزيلاندة، و«بيتر تروجل» أستاذ اللغة الإنجليزية وعلم اللغويات في جامعة لوزان في سويسرا.. وهو عبارة عن مجموعة من الدراسات كتبها عدد من علماء اللغويات، شرحاً ونقداً وتفسيراً لعدد من الشائعات اللغوية التي تنتشر في المجتمعات على شكل حكمة أو قول مأثور، كأنها حقائق علمية معترف بها.

في مقدمتهما للكتاب، ذكر المحرران أنهما فكرا في تحرير هذا الكتاب لأنهما يريان أن علماء اللغويات قد قصروا في تقديم هذا العلم إلى عامة الناس غير المتخصصين. ويرجعان ذلك التقصير إلى السرعة القياسية التي توسع بها هذا العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، حتى إن العلماء أنفسهم كانوا مشغولين بمتابعة تطوراته وملاحقة المعلومات والنتائج الكثيرة التي يُتَوَصَّل إليها. لذلك كانت أغلب كتاباتهم موجهة إلى بعضهم بعضاً وليس إلى عموم الناس.

ويلفتان النظر إلى أن أغلب من تصدى لهذا النوع من الكتابات اللغوية كانوا من الصحفيين والمحررين والشعراء، وعلماء النفس. وهم للأسف لا يصلحون أن يكونوا مراجع في هذا المجال لمجرد أنهم أكثر الناس احتياجاً إليه واستعمالاً له.. ثم يقرران أنهما يعتقدان أننا إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن الجهاز التنفسي، فإننا نسأل طبيباً أو أخصائياً في علم وظائف الأعضاء. ولا نلجأ إلى شخص رياضي مثلاً لمجرد أنه يجيد التنفس. إذا أردنا أن نعرف كيف تعمل قطارات الأنفاق، فإننا نسأل مهندساً ميكانيكياً وليس راكبا منتظماً لهذه القطارات. وكذلك إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن علم اللغويات، فإننا نسأل عالم لغويات متخصصاً وليس شخصاً يجيد استعمال اللغة.

ويقول المحرران إن للناس عادة بعض «الآراء اللغوية» التي تبدو مؤكدة ومستقرة تماماً كأنها جزء من تراثهم الثقافي.. وهما يطلقان على هذه الآراء اسم «خرافات لغوية»، لأنها سرت بين الناس مسرى الأساطير مع أنها قائمة على غير أساس علمي، فهي إما أن تكون خطأ محضاً، أو مشوشة يختلط فيها الصحيح بالخطأ، أو مبسطة تبسيطاً مخلاً، أو أنها قائمة على فرض خاطئ أصلاً، أو أغفلت جانباً مهماً من جوانب الموضوع.

وقد اختار المحرران بعض هذه «الخرافات اللغوية» الشائعة، وطلبا من عدد من العلماء أن يفسروها، ويبينوا ما تحتويه من تشويش وأغلاط، وأن يشرحوا حقيقتها، ومن أين جاءت الفكرة أصلاً، ثم جعلا عنوان كل دراسة عبارة عن جملة تلخص تلك الخرافة الشائعة.. لأنهما يعتقدان أن تفنيد هذه «الخرافات اللغوية» ليس أمراً سهلاً تكفي فيه عبارة موجزة مثل «هذا خطأ» أو «هذا صواب»، لكنه يحتاج جهداً علمياً حقيقياً، إذ ليس الموضوع موضوع «صواب» و«خطأ» فقط، وإنما «للموضوع دائما جوانب أخرى» كما يقول المحرران.

وسوف نلاحظ في النهاية أن هذه الأفكار المبسطة لا تعجب العلماء بأية حال من الأحوال، حتى لو وافقوا على بعض جوانبها.

و يتضمن الكتاب واحداً وعشرين بحثاً عن إحدى وعشرين خرافة شائعة، مثل القول بأن بعض اللغات أسهل من غيرها. أو أن إحدى اللغات أجمل من الأخرى. أو أن بعض اللغات ليس لها قواعد نحو. أو أن وسائل الإعلام هي السبب في إفساد اللغة. أو أن بعض الشعوب أقل قدرة على التعبير من غيرهم. أو أن اللغة الفلانية بدائية، لا يمكنها استيعاب مفردات الحضارة المستجدة. أو أن اللغة العلانية لا تستحق الاستمرار، لأنها جامدة وغير قابلة للتطور.

ويقرر المحرران أن كثيراً من هذه الخرافات الشائعة قائم على عوامل عنصرية أو على ذوق خاص أو انطباع شخصي، أو جهل شديد بالموضوع نفسه أو بحقيقة تطور اللغات أصلاً.. مثل الآراء التي تشير إلى رفعة بعض اللغات وانحطاط بعضها، أو أن لغة معينة جميلة وأخرى قبيحة، أو أن قواعد إحدى اللغات منطقية وأخرى غير ذلك.. بينما الحقيقة أن لكل لغة خصائصها الدقيقة وجمالياتها الخاصة التي هي نتاج العقل البشري متفاعلاً مع ظروف المعيشة واحتياجات مستعمليها. لذلك لابد من دراسة اللغات دراسة موضوعية محايدة، بعيدة عن الأهواء والأذواق.

«النساء يتكلمن أكثر من اللازم» إحدى دراسات هذا الكتاب، وكاتبتها هي «جانيت هولمز» أستاذة علم اللغويات في جامعة فيكتوريا في ويلنجتون، نيوزيلندة.. وهي تُدَرِّس علم اللغويات، وعلم اللغويات الاجتماعي، وقد نُشرت لها عدة كتب، منفردة، أو بالاشتراك مع غيرها، وآخر كتبها: «مفردات المجاملة عند الرجال والنساء»، لونجمان: ١٩٩٥ وفيما يلي تعريب لهذه الدراسة.

أماني العشماوي



هل صحيح أن النساء يتكلمن أكثر من الرجال؟..

الأمثال والأقوال الشائعة في كثير من اللغات تؤكد ذلك، وتشير إلى أن النساء لا يتوقفن عن الكلام أبداً.

١- لسان المرأة مثل ذيل الشاة: لا يتوقف عن الحركة أبداً.. مثل إنجليزي.

٢- بحر لشمل، قد تنقصه المياه.. أما المرأة فلا تنقصها الكلمات أبداً.. مثل شمالي

٣- تزوج المرأة ذات اليدين والقدمين النشيطتين. أما المرأة ذات اللسان النشيط، فابتعد عنها.. مثل ماوري (شعب نيوزيلندة الأصلي)

وبعض الأقوال الشائعة تصور الرجل يستمع في صمت وبصبر، بينما المرأة تتكلم بلا انقطاع.

١- إذا ما ارتدى الزوجان الثياب نفسها، من السهل التفريق بينهما، فالرجل هو المستمع.. مثل أمريكي.

٢- ليس هناك أغرب من رجل متكلم، إلا امرأة صامتة.. مثل اسكتلندي.

وهناك أقوال كثيرة تشير إلى تفاهة حديث المرأة، وأنه مجرد ثرثرة مزعجة:

١- هناك ضجيج دائم، حيثما وجدت النساء والإوز.. مثل ياباني.

وإن كانت صورة المرأة في الأمثال اليابانية ترتبط بالضجيج، إلا أن المثل الصيني يربط حديثها بالقوة:

١- لسان المرأة هو سيفها، وهي لا تتركه يصدأ أبداً.

والآن، ماهي الحقيقة؟..

هل صحيح أن النساء يسيطرن على المجالس بالكلام طول الوقت، كما هو شائع؟..

هل صحيح أن الرجال يجاهدن طول الوقت لينالوا حصة من الحديث؟.. ولو كلمة واحدة؟..

بالرغم من هذا الاعتقاد الشائع، أن النساء يتكلمن أكثر من الرجال، فأغلب الدراسات التي أجريت على هذا الموضوع تشير إلى العكس من ذلك تماماً.. فكلما اجتمع الرجال والنساء، فالرجال هم الذين يتكلمون أغلب الوقت.

قامت الباحثتان الكنديتان «ديبورا جيمس» و«جانيس دراكيش» باستعراض ٦٣ دراسة تقيس مقدار الكلام الذي ساهم به الرجال والنساء الأمريكيون في سياقات مختلفة.. فاكتشفتا أن النساء تكلمن أكثر من الرجال في دراستين اثنتين فقط.

وفي نيوزيلندة، أثبتت الدراسات أن الرجال عادة يسيطرون على أغلب الوقت المتاح للكلام.

فقد قارنت «مارجريت فرانكن» بين مقدار الكلام الذي يتكلمه رجل وامرأة متخصصان، يعملان مساعدين لمقدمة برنامج تلفازي تستضيف شخصيات معروفة. وكانت في كل مرة، تقسم مدة الحديث المخصصة للمضيفين الثلاثة، المقدمة ومساعدها الرجل ومساعدتها المرأة، وفي كل مرة كان الرجل يستولي وحده على نصف المدة المتاحة للثلاثة.

وقد وجدت، أنا، النتيجة نفسها عند تحليلي لعدد من الأسئلة التي سألتها لعدد من المشاركين في مائة ندوة عامة،

Language Myths

(خرافات لغوية)

Edited by: Laurie Bauer & Peter Trudgill

Penguin Books, 1998.

يتكلمن  أكثر!!

جانيت هولمز



فقد سيطر الرجال على الحديث فى ثلاث وتسعين ندوة تلك الندوات المائة.

وعندما كان عدد الرجال مساوياً لعدد النساء، كان الرجال يسألون ثلثى الأسئلة أثناء النقاش.. فمن الواضح إذن أن النساء لم يكن يتكلمن أكثر من الرجال، فى تلك الحالات على الأقل.

وأما فى المجالات التى كانت النساء فيها متحدثات من موقع القوة، فقد كن يجدن صعوبة فى المساهمة فى النقاشات بالقدر الذى يساهم به الرجال. فمثلا: عَيَّنَت شركة بريطانية أربع نساء وأربعة رجال فى أعلى ثمانية مناصب إدارية، أجراً ومركزاً.. وقد لاحظ المدير الإدارى أن الرجال يحرصون دائماً على السيطرة على جو الاجتماعات، وإلى توجيه حديث النساء.. فقد قال: «ذات مرة، اجتمعت بمديرة مبيعات واحدة وثلاثة مديرين من مساعدىَّ، واستغرق الاجتماع ساعتين، تحدثت فيها المديرة مرة واحدة.. وحتى فى تلك المرة قاطعها زميل رجل قائلاً لى: «إن «آن» تقصد كذا وكذا»!!..

وفى هذا تلخيص للموقف كله، فهو يرى أنه يعرف قصدها أكثر منها، ولهذا لم يتح لها الفرصة لتقول رأيها بنفسها».

لماذا إذن تختلف الحقيقة عن الشائعة كل هذا الاختلاف؟؟

للإجابة عن هذا السؤال، لابد أن نبتعد عن التعميمات الفضفاضة، ونتامل تلك الحالات السابقة بالتفصيل. فمثلا: يرى بعض المعلمين أن الصبيان أكثر نشاطا من البنات، وأقل انضباطا منهن.. لكن الحقيقة أنه ليس هناك دليل علمى يؤكد أن الذكور يتكلمون، بالفطرة، أكثر من الإناث.. فمن الراجح إذن أن الأسباب تعود لعوامل اجتماعية أخرى غير الفطرة.

إن الكلام يؤدى وظائف مختلفة، فى السياقات المختلفة. فالحديث الرسمى العلنى، مثل الخطب السياسية والمناظرات العامة والمحاضرات، أو اللقاءات الإذاعية المسموعة والمرئية، كلها تهدف عادة إلى التأثير على الناس وإقناعهم بوجهة نظر معينة. لذلك، فهذا النوع من الأحاديث يقوم به عادة أناس حريصون على تأكيد مكانتهم الاجتماعية، مثل رجل السياسة. لذلك، فإدارة الحديث والتنافس فى السيطرة على الكلمة فى المنتديات العامة من الأمور المرغوب فيها والمتعارف عليها.. وفى المقابل، فهو يتضمن مخاطر كثيرة، لأن الأداء السيئ يدمر مكانة الفرد أكثر مما ينفعه.

وقد لاحظنا فى الفصول الدراسية أن كثرة الكلام تتماشى مع ارتفاع مكانة المتحدث وزيادة سلطته. فقد أظهرت الدراسات أن المعلمين، رجالاً ونساء دون تفرقة، يقومون بالحديث فى ثلثى المدة المتاحة أصلا للكلام داخل الفصل. وأن الصبيان يستولون على الجزء الصغير الباقى من المدة المتاحة للطلبة. إذ يبدو أن صاحب المكانة الأعلى تكون له أولوية الحديث، كلما كان للكلام أهمية وتقدير. ربما لهذا السبب، يحاول الصبيان تاكيد ارتفاع مكانتهم عن البنات بالاستيلاء على أغلب الوقت الذى يتبقى للطلبة.

تصرفات الرجل والنساء فى الاجتماعات العامة والندوات الرسمية تعزز هذا التفسير.. فقد جمع الباحثون من أمريكا وبريطانيا ونيوزيلندة مزيداً من الأدلة التى تؤكد سيطرة الرجال على الوقت المحدد للكلام فى اجتماعات أعضاء المجلس والندوات وجماعات اتخاذ القرارات.

وإذا كنتَ تشكّ فى هذه النتيجة، استعمل ساعة مؤقتة لتحديد الوقت الذى يتكلم فيه كل من الرجال والنساء فى أى اجتماع سياسى أو لجنة تكون حاضراً بها. ستكتشف أن الرجال يتكلمون أكثر من النساء فى المجالات العلنية والرسمية، لأنهم يعتبرون مساهمتهم الكلامية تدعم مكانتهم.. ومن الواضح أن الرجال أكثر اهتماماً بتاكيد مكانتهم وإثبات سلطتهم من النساء.

وعلى سبيل المقارنة، فإنه فى المجالات الأكثر خصوصية، حيث يؤدى الكلام غير الرسمى، أو الحميمى، إلى تحقيق تواصل إنسانى بين الأطراف أو يساعد على توطيد العلاقات الاجتماعية وينمى الصداقة. فإن الأبحاث القليلة التى درست الكلام فى تلك المجالات الاجتماعية غير الرسمية، أظهرت فروقا أقل بين مساهمات الرجال والنساء.

فقد تكلم الرجال أكثر من



النساء فى ثلث الدراسات فقط، التى أجرتها «ديبورا جيمس» و«جانيس دراكيش» فى المجالات غير الرسمية. إذ يبدو أن النساء يفضلن الكلام فى جو اجتماعى مسترخٍ، خصوصا إذا كانت موضوعات الكلام تدعم العلاقات الاجتماعية. وهناك دليل آخر على هذا التفسير، وهو نوع الكلام الذى يساهم به كل من الرجال والنساء فى المناقشات والحوارات المختلفة. فقد حلل الباحثون وظيفة الكلام، فوجدوا أن الرجال يكثرون من الإدلاء بمعلومات أو آراء، أما النساء فتكون أغلب مساهمتهن الكلامية دعماً لآراء غيرهن أو موافقةً عليها أو تشجيعاً للآخرين على الكلام.

على العموم، يبدو أن لنساء يستعملن لكلام لتوثيق لصلات لعائلية ولصداقات أكثر مما يتكلمن لتأكيد مكانتهن أو لتأثير المباشر على الآخرين. هناك بلطبع استثناءات، كما هو الحال مع «مارجريت تاتشر» مثلا أو بى نظير بوتو وجينى شيبلى.. ولكن حتى وقت قريب لم يكن كثير من لنساء يرين أنفسهن مؤثرات فى الأحاديث الرسمية والعامة.

وقد لاحظنا فى نيوزيلندة مجالاً آخر تساهم فيه النساء بالكلام أكثر من الرجال.. فعندما كنا نلتقى بالناس هناك لنجمع عينات من أحاديثهم لدراستها وتحليلها لغوياً، كنا نجد أن النساء أكثر استجابة من الرجال عموما ومن الشباب خاصة. فقد كن متعاونات جدا وتحدثن إلينا باستفاضة.

مثلا: طلبت «ميريام ماينهوف» من مجموعة من الشباب أن يصفوا لرجل ولامرأة من المشتركين فى الدراسة صورة معينة أطلعتهم عليها. وأكدت للمتحدثين أن المطلوب أن يتكلموا عن تلك الصورة باستفاضة قدر استطاعتهم.

فى ذلك الموقف، ساهمت النساء بنصيب أكثر كثيراً من الرجال، فقد تحدثن باستفاضة إلى كل من الرجل والمرأة عن الصورة التى كن يصفنها. ففى ذلك المجال شبه الرسمى، لا يعتبر الحديث وسيلة لتعزيز مركز المتكلم، لأن الذين كانوا يجرون اللقاءات، مثل الرجل والمرأة فى المثال السابق كانوا شبابا صغارا ليس لهم نفوذ على المتكلمين. لذلك كانت النساء، من كل الأعمار، متعاونات أكثر من الرجال بوجه عام، وكان الرجال أكثر تعاوناً من الشباب.

كلما زادت معرفة الإنسان بموضوع معين، زادت قدرته على الحديث عنه. فالمعرفة والخبرة تؤثران فى مساهمة الإنسان فى الحديث.

فى إحدى الدراسات المثيرة، قدم الباحث القائم على الدراسة معلومات إضافية لبعض المساهمين، فأصبحوا كأنهم خبراء متخصصون فى موضوع الحوار. وبغض النظر عن كون المساهم رجلا أو امرأة، كان الخبراء المتخصصون، هؤلاء، يتحدثون فى تلك النقاشات أكثر من زملائهم غير الخبراء.. ولو أن الرجال الخبراء فى تلك الدراسة كانوا يتحدثون مع زميلاتهم النساء غير الخبيرات أكثر مما كانت النساء الخبيرات يتحدثن مع زملائهن غير الخبراء من الرجال.

إذن، فإسهام الناس فى النقاش أثناء الندوات والمؤتمرات يتأثر بدرجة ملحوظة بمقدار خبرة الشخص أو مدى علمه بموضوع الحوار. وتميل النساء الملمات بالموضوع إلى المساهمة عن طريق إلقاء الأسئلة وإلى الاستفسارات والتعليقات.

وفى دراسة مقارنة عن نسبة الكلام بين الأزواج، لوحظ أنه فى الأسر التى تتبنى آراء تقليدية فى العلاقة بين الرجل والمرأة كان الرجال يسيطرون على الأحاديث التى تجرى بين كل الأزواج. أما النساء ذوات الصلة بحركات التحرر النسوية، فكن يتكلمن أكثر من أزواجهن.

فمن المحتمل إذن أن العاملَيْن معاً، حالة الخبرة والعلم، وحالةَ حركات التحرر، لهما أثر واضح على زيادة ثقة المرأة فى وضعها الاجتماعى.

وهذا التفسير يتفق أيضا مع كون المرأة تميل إلى الكلام فى جو الأصدقاء والأسرة، أو عندما تكون أغلبية المجلس من النساء، أو عندما يُطلَب منها صراحة أن تتحدث، كما حدث فى المقابلات المشار إليها آنفاً.

إذا كانت زيادة الثقة الاجتماعية تفسر زيادة مساهمة المرأة فى بعض المجالات، فلابد من التساؤل: لماذا تقل مساهمة بنات المدارس عن مساهمة الصبيان؟.. هل يشعرن بقلة الثقة فى الفصل؟.. ولماذا؟.

قدمت طالبة فى السادسة عشرة من عمرها الإجابة التالية:

«أود أحيانا أن أعلن عن معارضتى لرأى معين، أو أن أقول إن هناك وجهات نظر أخرى للموضوع.. ولكن، ما النتيجة؟.. سيعتبرنى معلمى استعراضية، ويضحك الصبيان سخرية. أما لو تظاهرت أننى لا أفهم، فسوف يختلف الحال تماما: يتعاطف معى المعلم ويساعدنى الصبيان.. لو حاولت إحدانا أن تثبت لهم تفوقها لن تنال إلا الهجوم القاسى».

في الأسر التي تتبنى آراء تقليدية في العلاقة بين الرجل والمرأة كان الرجال يسيطرون على الأحاديث التي تجري بين كل الأزواج. أما النساء ذوات الصلة بحركات التحرر النسوية، فكن يتكلمن أكثر من أزواجهن

فالحديث في الفصل يعتبر استعراضا للقدرات، خاصة إذا كانت المتحدثة فتاة.. ومازالت الفتيات يفضلن أن يَظْهَرن أقل من مستواهن الحقيقي حتى لا يلفتن الأنظار ويكتسبن عداء الصبيان. والمعلمون عادة لا ينتبهون إلى هذا الوضع القائم في الفصول، بل إنهم يتصورون دائما أنهم يولون مقدارا متساويا من الاهتمام ومن فرص الحديث للبنات والصبيان.. ولم يكتشفوا أو يصدقوا أن الصبيان يسيطرون على أغلب الوقت المقرر للطلبة في الفصل إلا بعد أن استمعوا إلى تسجيلات صوتية للدروس.

«ديل سبندر»، أسترلية من مناصرات حركات التحرر النسوية، ومن أشهر المدافعات عن حقوق المرأة؛ لاحظت أن المعلمين والمعلمات يحرصون على تحقيق المساواة في الفرص بين البنات والبنين في الفصل، وذلك بإعطاء البنات فرصة أكبر للمساهمة في الكلام، ومع ذلك فوجئوا بأنهم، بالرغم من محاولاتهم، مازالوا يعطون البنين فرصا أكثر ووقتا أطول.

في إحدى الدراسات، قسم معلم مادة العلوم، الوقت المحدد لكلام الطلاب في الفصل إلى قسمين متساويين بين البنين والبنات. وبعد ذلك أعلن المعلم أنه شعر أن البنات قد نلن ٩٠٪ من اهتمامه ووقته. وكذلك احتج الطلبة البنون واشتكوا أن البنات قد سيطرن على أغلب الوقت المخصص للحديث.مع أن الوقت كان مقسما حسابياً، ومسجلا بساعة مؤقتة.

وكذلك في المجالات العامة الأخرى مثل الندوات والمناظرات، كلما أعطي كل من الرجال والنساء مددا متساوية من الوقت المحدد للحديث، سواء عن عمد أو عن غير عمد، كان الحاضرون يعتبرون أن النساء قد حصلن على أكثر من نصيبهن من الوقت.

وقد وضحت «ديل سبندر» السبب في ذلك قائلة:

«إنهم يقيسون مقدار حديث المرأة، ليس مقارناً بحديث الرجل، وإنما مقارناً بالصمت، فالمرأة المتحدثة تتكلم أكثر من المرأة الصامتة.. بمعنى آخر، سواء تكلمت المرأة كثيراً أو قليلاً، فهي تتكلم أكثر من اللازم. فالمفروض فيها أن تظل صامتة، مجرد زينة في الإطار العام للمجالس والأحداث الاجتماعية.. قد يبدو ذلك بشعاً، لكن، إذا أردت أن تفهمه، فتصور رد فعلك، إذا رأيت مجموعة من الأطفال يتدخلون بحذر وتردد في أحاديث الكبار حتى يسيطروا عليها تماماً.. فالنساء قد اقتحمن حديثاً كثيراً من الميادين التي كانت مقصورة قبل ذلك على الرجال، مثل إدارة الأعمال وبعض المجالات المهنية الأخرى، فلا عجب أن مساهمتهن لا تستقبل دائما بالرضا والإعجاب، ولا تقدر بالعدل والدقة».

والآن، لنصل إلى إجابة محددة للسؤال: هل النساء يتكلمن أكثر من الرجال؟

الإجابة ليست فقط «لا» أو «نعم».. وإنما «حسب الموقف».

فالأمر يعتمد على عوامل كثيرة ومتنوعة، فهي تختلف حسب السياق الاجتماعي الذي يجري فيه الحديث، ونوع الحديث، ومقدار الثقة الاجتماعية التي يتمتع بها المتحدث، وهي قد تتأثر بالدور الاجتماعي، مثل حالة المعلم في الفصل، أو مضيف البرنامج، أو مدير اللقاء.. وكذلك بمقدار معرفة المتحدث وخبرته بموضوع الحديث.

نستنتج من ذلك أن الرجال يتكلمون أكثر من النساء في المجالات الرسمية العامة، حيث يكون الإدلاء بالمعلومات والقدرة على الإقناع هما المطلوبان. وكذلك عندما يكون التحدث دليلاً على امتياز معين، وعندما يكون الحديث فرصة لزيادة المكانة الاجتماعية للفرد.

أما النساء، فأغلب مساهمتهن في الأحاديث الخاصة وغير الرسمية، حيث يكون الحديث وسيلة للتواصل الإنساني، وفي المواقف الأخرى التي يشعرن فيها بالثقة الاجتماعية.

يقول المثل: السكوت من ذهب.. فهل الحديث دائما مدعاة للفخر والمباهاة؟

يعتبر الصمت أبلغ من الكلام في أغلب الثقافات، وقد يكون أنسب من الكلام في بعض المواقف، كأن يكون الكلام أداة قاصرة عن التعبير عن العواطف، أو عندما يكون الصمت معبراً عن الامتنان أو الاحترام. وهناك حالات يكون نموذج «الرجل الصامت» مثار الإعجاب.

ومهما كان الأمر، فلابد من الاعتراف أن للكلام مكانة محترمة وتقديراً خاصاً في الثقافة المعاصرة.. مادام يستعمل للسيطرة على المجالس المختلفة، وبالتالي فهو مرتبط بالمال والسلطان. لذلك سيظل الجدل قائما: من يتحدث أكثر؟.. النساء أم الرجال؟. ■

كتاب الزاوية



من كلام الناس

قال بعض الناس: «من التوقي ترك الإفراط في التوقي».

وقال بعضهم: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

وقال الشاعر:

قَــدَر اللــه واردٌ ... حين يُقضى ورودُه

فأرد ما يكون إن ... لم يكن ما تريدُه

وقيل لأعرابي في شكاته: كيف تجدُك؟ قال: «أجدُني أجد ما لا أشتهي وأشتهي ما لا أجد، وأنا في زمانٍ من جاد لم يَجِد، ومن وَجَدَ لم يَجُدْ».

وقيل لابن المقفع: ألا تقول الشعر؟ قال: الذي يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني.

وقال بعضهم: «أعجَبُ من العجَب، ترك التعجّب من العَجَب».

قال عمرُ بنُ عبد العزيز لعَبد بني مَخزوم: «إني أخاف الله فيما تقلدتُ». قال: لستُ أخاف عليك أن تخاف، وإنما أخاف عليك ألا تخاف.

وقال الأحنف لمعاوية: أخافك إن صدَقْتُكَ، وأخاف الله إن كذَبْتُك.

وقال رجل من النُّساك لصاحبٍ له وهو يَكيدُ بنفسه: أما ذنوبي فإني أرجو لها مغفرة الله، ولكني أخاف على بناتي الضيعة. فقال له صاحبه: فالذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجُه لحفظ بناتك.

ثقافة استباحة حقوق الملكية الفكرية

محـمـد عـدنان سـالم

إن القانون يؤكد الحقوق ولا ينشئها، فما جدوى صدور قانون لحماية الحق الفكرى فى مجتمع يستبيح هذا الحق من فرقه إلى قدمه، يستوى فى استباحته له المنتج والمستهلك والشرطى والقاضى



إن احترام حقوق الملكية الفكرية مسألة أخلاقية قبل أن تكون قانونية. فحق الملكية الفكرية حق طبيعى من حقوق الإنسان يترتب له نظير جهده الذى يبذله، ولئن كان استثماره لجهده العضلى حقاً تعترف به كل الشرائع والقوانين والأعراف، فإن اعترافها بحقه فى استثمار جهده الفكرى يكون من باب أولى.. ذلك أن الجهد الفكرى أسمى وأرقى من الجهد العضلى، ولئن كان عمل اليد يجلب للإنسان التعب والعرق، فإن عمل الفكر يسبب له السهر والأرق، ولئن كانت السخرة تتصور فى الجهد العضلى يساق إليها الإنسان بالإكراه، فإنها لا تتصور فى الجهد الفكرى، إذ لا يمكن تسخير الإنسان للتفكير بالإكراه، ومن المتعذر الدخول إلى تلافيف دماغه لاجتناء ثمرات أفكاره.

وفى هذا المنعطف الحاد، الذى تجتاز فيه البشرية اليوم عصر اقتصاد الصناعة إلى عصر اقتصاد المعرفة. وتتبدل فيه معايير تقدم الأمم، فغداً يقاس بمقدار ما تملكه من ثروة المعلومات، أكثر مما يقاس بمقدار ما تملكه من ثروة المال، تعاظم دور العمالة الفكرية واشتد الطلب عليها، وتقلص دور العمالة اليدوية وتراجع سوقها، وأصبحت قضية حماية الحق الفكرى ضرورة من ضرورات التقدم.

إن حماية الحق الفكرى مسألة أخلاقية لا يمكن لأكثر القوانين تشدداً أن يفرضها على مجتمع لا يؤمن بها، ولم تترسخ فى ضميره وتستقر فى وجدانه بوصفها حقاً طبيعياً من حقوق الإنسان يعد تجاهله افتئاتًا على هذه الحقوق وعدواناً عليها وعملاً غير مشروع يدرجها فى عداد السرقة وأكل المال الحرام، ويجعل المتجاهل لهذه الحقوق يشعر بالإثم والذنب والخزى وعار الجريمة، عندما تمتد يده إلى عمل فكرى مقلد، مثلما يخامره هذا الشعور عندما تمتد يده لسرقة سلعة أو حلى أو متاعٍ لا يملكه سواءً بسواءٍ. عند ذلك يصبح للقانون معنى، ويصبح قابلاً للتطبيق. ذلك أن القانون يؤكد الحقوق ولا ينشئها، فما جدوى صدور قانون لحماية الحق الفكرى فى مجتمع يستبيح هذا الحق من فرقه إلى قدمه، يستوى فى استباحته له المنتج والمستهلك والشرطى والقاضى الذى يرى كل منهم فى الجهد الفكرى واجباً لا يستحق بذله الأجر، ويرى فى ثمرات الأفكار ملكًا مشاعًا كالكلأ والماء، من حقه أن يمد يده إليه دون أن تطرف له عين؟!

إيجابيات مزعومة:

إن المجتمع الذى يعتنق ثقافة استباحة الحق الفكرى، ويمارسها من دون أن يكون لهذا الحق فى ضميره أى حرمة أو احترام - وهو حال المجتمع العربى والإسلامى برمته - لن يرى فى استباحته لهذه الحقوق أى سلبيات

تذكر، بل هو يرى فيها محض إيجابيات تيسر العلم لطلابه، والمعرفة لعشاقها، وأنا ألتمس لديكم العذر كى أبدأ بالحديث عن هذه الإيجابيات المزعومة لسرقة الأفكار، قبل التحدث عن سلبياتها، فبضدها تتميز الأشياء.

وأبادر سلفًا إلى التنويه بأننى لا أعترف بأى من هذه الإيجابيات المزعومة، وأعدها ذرائع واهية لا تقوم بها حجة، ولسوف أفندها واحدة واحدة، قبل أن يدور فى خلد أحد شبهة قبول لها:

أولا: توفير المعرفة لطلابها بسعر أرخص

وهو ما يصفِّق له المجتمع، ويعده خدمة اقتصادية واجتماعية وثقافية جليلة، تُخلِّصه من جشع المنتجين الأصليين وفرضهم السعر الأعلى، على الرغم مما يعرفونه من تدنى مستوى الدخل لدى الفرد، وتعقد سبل المعيشة واحتياجاتها، وإذا كانت نسبة تخفيض السعر على الأوعية الورقية (الكتاب) لا تتجاوز ٣٠٪ فإنها على الأوعية الأخرى السمعية والسمعبصرية والإلكترونية (الأشرطة والأقراص الممغنطة والكتاب الإلكترونى) قد تبلغ ٩٠٪، بمعنى أن المستهلك يستطيع أن يحصل على الشريط أو القرص المنسوخ (CD) بعُشر ثمنه الأصلى، فلا يعقل أن يطالب بالتضحية بهذه الفرصة المتاحة مهما تكن الأسباب الداعية لها. وفى تفنيد هذه الذريعة الواهية هناك ما يلى:

١ - هل يسوِّغ السعر الأرخص لأحد أن يشترى حلية أو متاعًا مسروقًا؟ ولئن فعل فإنه لن يستطيع أن يدارى وخز ضميره وشعوره بالإثم، ولسوف يتستر من الناس مخافة أن تزدريه أعينهم وتلوكه ألسنتهم، كما أنه لن ينجو من سطوة القانون الذى يُعد حيازة المسروق جريمة يعاقب عليها.

فهل تكون ثمرات الأفكار والحقوق المترتبة عليها أدنى مرتبة من الحقوق المادية والعينية؟! وهل يقبل ذلك فى عصر المعلومات الذى يتركز الإنتاج فيه على الأفكار؟!

٢ - المستهلك هنا، إنما يقوِّم المادة الفكرية بقيمة وعائها المستوعب لها، ورقيًا كان أم رقميًا، على قرص ممغنط (CD) أو على الإنترنت، ويتجاهل أو لا يفطن إلى قيمة مضمونها العلمى الذى بذل فيه مؤلفه وناشره الكثير من الوقت والجهد والمال.

إن إنتاج برنامج حاسوبى واحد يتطلب حشد عدد كبير من الفنيين: مبرمجين ومصممين ومدخلين، وجلب الكثير من المراجع والمصادر، وتوفير الكثير من الأجهزة، ومن الأموال، ومن العمل الدءوب شهورًا وسنين.. بينما لا يتطلب نسخُه غير ثانية واحدة من الزمن، تُدخل فيها القرص الذى غالبًا ما يكون من نوع ردىء لتحقيق المنافسة، عبر جهاز بسيط ليس له قيمة تذكر.

إن القرصان لا يتعامل مع الإبداع فى أى مرحلة من مراحله، من تأليف وتحرير وتنقيح وإعداد وتصحيح وتدقيق وفهرسة وتصميم وإخراج، إنما يسطو على العمل بعد أن يستوى على سوقه؛ يصوره، ينسخه، يمسخه، ويسوِّقه وليس له فيه إلا الوعاء الذى ملأه سحتًا ومالاً حرامًا

وأستبعد أن يكون المستهلك على درجة من الجهل لا يفرق فيها بين الوعاء المملوك ومضمونه المسروق، وخاصة أن استخدامه له يشى بأنه مثقف متحضر ينتمى إلى جيل الكمبيوتر وعصر المعلومات.

٣ - وما أظن المستهلك يجهل أن فرق السعر بين المنتج الأصلى والمنسوخ أو المقلد، إنما يمثل حق المؤلف ونفقات الإعداد والتحضير والإخراج، التى يبيح لنفسه سرقتها.

٤ - ليس من مصلحة الناشر أو المنتج الأصلى رفع قيمة الكتاب أو المادة الفكرية فى مجتمع عازف عن القراءة، سوف يزيد السعر العالى من إعراضه عنه

ثانيًا: كسر احتكار المعرفة

وهو الذريعة التى يتشبث بها المستهلك فى مواجهة براءات الاختراع التى تُمنح للمبدعين، فتحمى منتجاتهم زمنًا تمنع فيه مزاحمتهم أو منافستهم، وتطلق يدهم فى تحديد سعرها للمستهلك، وقد تكون من ضرورات حياته كالدواء، أو قد تشمل أحيانًا احتياجاته الثقافية كما فى مصحف التجويد الذى أقحم فى مجال براءات الاختراع كسلعة صناعية من غير وجه حق. أو فى مواجهة المجتمعات المتقدمة التى يتركز فيها الإبداع ويتضخم حجم المعارف والعلوم، فتحجبها عن المجتمعات الآخذة بالنمو، مطالبة للإذن بترجمتها بشروط قاسية مجحفة لا تراعى واقعها المتخلف وضعف اقتصادها، وهبوط مستويات الدخل فيها مع شدة احتياجها.

أو يطلقها الطلبة فى وجه أساتذتهم الذين يربطون نجاحهم بالمقررات التى يؤلفونها لهم، ثم يستغلون حاجتهم إليها فيغالون فى أسعارها فى وضع احتكارى مزعج لطلبة لم يبدءوا حياتهم العملية بعد.

إننى أتعاطف كثيرًا مع هذه الذريعة، وأكره الاحتكار والتعسف، لكننى أتساءل بحرقة: أليست لدينا وسيلة غير القرصنة لمعالجة هذه المشكلات؟! وهل استنفدنا كل الوسائل المشروعة قبل أن نعمد إلى إهدار الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل؟!

إن الحصر الذى تمنحه براءة الاختراع للمنتج، لا يعفى أجهزة الرقابة على الأسعار فى الدولة من واجب حماية المستهلك، ولا بد من تحقيق المعادلة بين حق الابتكار وحق المستهلك فى منع التعسف فى استعماله.

وإن تعدد المصادر والمراجع بين يدى الطلبة وخاصة فى مراحل التعليم العالى يخلصهم من ربقة احتكار المقرر الواحد، فضلاً عن تنمية روح البحث لديهم، وتوسيع آفاق المعرفة أمامهم.

أما نقل المعرفة من مظان توافرها، بلغاتها الأصلية، أو بترجمتها، فإن التفاوض والمناقشات الثنائية والاتفاقات الدولية.. كل ذلك كفيل بالحد من نزعة الاحتكار والمغالاة بالأسعار.

لقد استطاعت الهند الحصول على أذون بطبعات خاصة محدودة النطاق الجغرافى للتسويق، من كبريات دور النشر العالمية المتخصصة بالكتب العلمية، وباعتها بأسعار رخيصة جدًا بالمقارنة مع الأسعار الأصلية. كما حصل الأفارقة عن طريق التفاوض، والاستفادة من الاتفاقيات والمنظمات الدولية، على مساعدات كبيرة فى مجالات نقل المعرفة والثقافة. وإن فى أنظمة المؤسسات الدولية من الاستثناءات فى هذا المجال ما يغنى عن القرصنة، كمفهوم النشر الإجبارى والترجمة الإجبارية بالسعر العادل.

سلبيات الاستباحة

١ - عوز الإبداع:

إن حرمان المبدع من استثمار إبداعه، يثبطه ويجعله عاجزًا عن متابعة إبداعه، فعلام يبحث ويحلل ويورى زناد فكره، ويستقرئ ويستنتج ويبذل ماله ووقته وأعصابه لاستيلاد أفكار جديدة، إذا كان يعرف أن القراصنة يقفون له بالمرصاد، ما إن يطرح إبداعه حتى يتلقفوه ليتولوا استثماره نيابة عنه.

إن القرصان لا يتعامل مع الإبداع فى أى مرحلة من مراحله، من تأليف وتحرير وتنقيح وإعداد وتصحيح وتدقيق وفهرسة وتصميم وإخراج، إنما يسطو على العمل بعد أن يستوى على سوقه؛ يصوره، ينسخه، يمسخه، ويسوِّقه وليس له فيه إلا الوعاء الذى ملأه سحتًا ومالاً حرامًا، يستأثر بالغُنم ويترك الغُرم للمبدع خلافًا للقاعدة الشرعية المعروفة (الغنم بالغرم)، فأنى للمبدع المأكول حقه بالباطل أن يبدع؟! وما مستقبل ثقافة مجتمع يخذل مفكريه، ويغضى عن سرقة جهودهم، ويكتفى بما يقدمه له القراصنة فيها؟! أغلب ظنى أنه سيسقط فى حمأة التخلف والجهل؛ ذلك أن القراصنة كالعلق يتشبث بجسد الإبداع يمتص دمه الزكى حتى إذا بلغ منه الثمالة سقطا صريعين جميعًا..

٢ - هجرة الأدمغة

فالمواهب والكفاءات والقدرات الفكرية رأس مال هو الأرقى والأسمى والأكثر تقديرًا وتقويمًا فى عالم اليوم، الذى يتحول بسرعة مذهلة إلى عصر المعلومات.. سرعة لم يشهدها فى أى من التحولات البشرية السابقة التى كانت تتم فى آماد أطول على الرغم من النعوت الثورية التى أطلقت عليها، فسميت ثورة زراعية، ثم ثورة صناعية، تعايشتا طويلاً، وما تزال شعوب تعيش عصر الزراعة لم تبلغ عصر الصناعة بعد.. ولديها الفرصة الآن أن تتجاوزه إلى عصر المعلومات، إن هى أعملت فكرها، ووفرت المناخ الملائم لازدهار الأفكار وإعلاء شأنها وتقديرها قدرها، وفى طليعة ذلك صونها من العبث بها وحمايتها من العدوان وتحريرها من الخوف والقيود.

وما لم يتوفر لها هذا المناخ الملائم، فإنها مثل كل طاقة ورأس مال آخر سوف تهاجر باحثة عن متنفس لها فى جو تستمتع فيه بعبق الحرية والحماية والاحترام.. ولسوف تجد على الطرف الآخر من ينتظرها ويتسابق إليها ويتودد لها ويغريها، بل إنها غالبًا ما تجد من يبحث عنها، ويرصد تفتحها منذ أن تبرعمت، فيعرض عليها خدماته: منحًا دراسية، وفرصًا نادرة، ويستدرجها ليستأثر بمواهبها وتفوقها من دون أهلها وأوطانها.

فإن هى تأبَّت وتمنعت، احتال لها بكل الحيل، حتى إنه ليستثمر جهدها الفكرى وهى فى مكانها، وقد تكفلت العولمة وثورة الاتصالات له باختزال الأبعاد والآماد وتجاوز كل الحدود والقيود، فأصبحت المعلومات والبرمجيات تنتقل من أقصى المعمورة إلى أقصاها عبر الإنترنت من دون جواز مرور، ولا كيان منظور يخضع لرقابة أو رسوم جمركية أو ضرائب مالية.

٣ - المورد التجارى الأهم

تشكل تجارة البرمجيات أرقامًا مذهلة فى ميزانيات الأمم التى أسرعت فى التحول إلى اقتصاد المعرفة: تتضاءل إزاءها الأرقام الصناعية، بله الزراعية.. ولئن كان رأس

المال في الاقتصاد الزراعي يعتمد على خصب التربة وملاءمة المناخ، ويعتمد في الاقتصاد الصناعي على توافر المواد الأولية - وذلك كله متفاوت بين الأمم - فإن المادة الأولية في اقتصاد المعرفة هي الفكر، والفكر مشاع بين الشعوب، موزع بينها بالسوية، مما يضع الجميع على عتبة سباق واحدة، أمام فرص متكافئة، يحوز قصب السبق فيها كل من كان الأسرع لاغتنامها.

يقول بيل جيتس صاحب شركة مايكروسوفت، الذي ارتقى مرتبة الرجل الأغنى في العالم: «لست أخشى منافسة أي شركة نظيرة في العالم، إنما أخاف أن تنقدح فكرة في ذهن ميكانيكي في مرآب في زاوية مهملة من العالم؛ تتجاوز أفكاري وتتفوق عليها».

لقد قررت إيرلندا التحول إلى اقتصاد المعرفة، وأعدت عدتها لذلك، فدخلت إلى عصر المعلومات من بوابة التعليم، واستطاعت خلال عقدين من الزمان فقط أن تحصد في ميزانها التجاري لعام ٢٠٠٠، ستين مليار دولار منافسة بذلك كبريات الدول. وكان احترام الملكية الفكرية بطبيعة الحال مستقرًا في ضمير شعبها، لا يسمح فرد منه لنفسه أن يمد يده إلى عمل فكري انتهكت حرماته، ولا يطيق أن تقع عينه على انتهاك لها، فإن وقعت ونادرًا ما تقع، فسرعان ما يتطوع بإحالته إلى القانون.. فيتساند الوعي الاجتماعي الرافض لانتهاك الحقوق مع القانون الذي يقف له بالمرصاد لينزل به أشد العقوبات.

٤ - دعم القرصنة رسميًا

تطرح المؤسسات الثقافية الرسمية (وزارات وجامعات ومراكز ثقافية) مناقصاتها مشروطة بتقديم السعر الأرخص، من دون أي التفات لحق المؤلف، فهي بذلك تقرر سلفًا إخراج المؤلف والناشر الأصلي من خطاب المناقصة.. فالقراصنة وحدهم المستهدفون فيها، لأنهم الأقدر على المنافسة وتقديم السعر الأرخص لأسباب عديدة، أولها: تخلصهم من عبء حق المؤلف الذي يسقط نسبة ١٠٪ على الأقل من السعر، وثانيها: تحررهم من تكاليف إعداد الكتاب أو البرامج وتصميمها وإخراجها، مما يضيف لصالحهم نسبة أخرى لا تقل عن ١٠٪، وثالثها: عبثهم بالمواصفات المادية للكتاب لتخفيف تكاليف إنتاجه من ورق وطباعة وتجليد.

هكذا أسهمت المؤسسات الثقافية الرسمية في الوطن العربي في تكوين شبكات القرصنة الثقافية وتنميتها وازدهارها..

فقد أثارت هذه الفرصة الثمينة التي أتاحتها المناقصات الرسمية شهية الكثيرين من الطفيليين والدخلاء ممن لا يمتون بصلة لصناعة الثقافة والنشر للدخول في الحلبة، وتضخم عددهم، وبعد أن كانوا معدودين على أصابع اليد يستخفون بقرصنتهم خزايا في الأقبية ومن وراء الكواليس أيام كان سوق الكتاب يقتصر على القارئ المحدود، أصبحوا يُعدون بالعشرات وبالمئات، مستغلين بفعلتهم الشنيعة، أيام سوق المناقصات، يحضرون ممارساتها مختالين مفاخرين؛ بياقاتهم البيضاء وحقائبهم (السمسونايت) حتى بلغ بهم الاستخفاف بالثقافة حد انتحال الصفات العلمية (فتدكتر) بعضهم وهو لا يكاد يبين، وحق له ذلك فهو المنافس الأوفى حظًا، والمؤكد فوزه سلفًا، وسيُطلب منه المثول أمام الوزراء ومديري الجامعات لتوقيع العقود، وتلقي التهاني بالخدمات العظيمة التي سيؤديها لثقافة المجتمع.



ولم تنفع مع المؤسسات هذه، كل التحذيرات التي وجهت إليها، لتجنب الإساءة البالغة التي تقدمها لثقافة الأمة، بتشجيعها على أكل الحقوق ووأد الإبداع، مدعية أن مسألة الحقوق قضية قانونية مردها إلى القضاء، وأن أنظمتها تنص على تحري السعر الأرخص، ولا علاقة لها بحق المؤلف، متجاهلة أن القانون الذي ترد إليه يعدها شريكة في سرقة حق المؤلف، متواطئة مع اللصوص في تسهيل ارتكابهم الجريمة وتسترهم عليها، مرتكبًا أساسيًا لإثم وأد الإبداع وضمور ثقافة الأمة. كل القوانين تعاقب على حيازة المسروق والتصرف به، وتعد الحائز كالسارق سواءً بسواء.

٥ - إحباط الناشر الملتزم

يجتهد الناشر الملتزم في تحري ثغرات الثقافة ومستجدات العلوم؛ يبحث عنها، يتصيدها، ينشئ السلاسل والموسوعات والمشاريع، ينقّب عن مخطوطات التراث المتوارية في المكتبات العامة والخاصة، يرتاد آفاق المعرفة المتجددة في العالم، يُعدُّ فريقه للتأليف والتحرير والتحقيق والترجمة، وأجهزته للتدقيق والتنقيح والتصحيح والإخراج، يبذل ماله في الإنتاج، يفتح مخازنه لاستقبال ما أنتج، ريثما تلتهمه القرائح النهمة إلى المعرفة ومستجداتها.

كان كلما جاءه البشير بنبأ إصدار جديد له، يحتفي به مثل مولود جديد، يؤذّن في أذنه، يَعُقُّ له العقيقة، يقدمه لوسائل الإعلام، يهديه لذوي الاختصاص، يعلن عنه لقرائه، يحلم بأن يطورد ويتلافى مثالبه في طبعة قادمة وشيكة عندما يؤذِنه الخازن بنفاد طبعته الأولى.

لكن الخازن لا يؤذنه بغير ضيق المخزن وعجزه عن استقبال وافد جديد، بعد أن تكدست فيه المواليد.

يستنجد بمال قارون، وخزائن يوسف، وصبر أيوب، ويتمنى لو كان له عمر نوح وسفينته يحمل فيها بنات أفكاره إذا فار التنور، إلا من سبق عليه القول منهن.

وفي غمرة أحلامه وأوهامه، يأتيه النذير مهنئًا:

لقد رست المناقصة على فلان متضمنة ستين عنوانًا من إصداراته من كل عنوان ألف نسخة، سيطبعها الفائز المحظي، غير مبالٍ بأضعافها المكدسة في مخازنه.

وقبل أن يبتلع ريقه يأتيه نذير الشؤم بخبر مفاده أن المخطوطة التي جمعت أجزاءها من أنحاء المعمورة حتى اكتملت لك، واستنفرت لتحقيقها ثلاثة عشر محققًا، وقضيت في إنجازها ثلاث عشرة سنة، وأنفقت عليها ثلاثة عشر مليونًا لتصدرها في تسعة وعشرين مجلدًا، قد طبعت بكل أمانة، كما أصدرتها تمامًا، في إيران، وسوّقت في باكستان، ووزعت في المشارق، وانتقلت منها إلى المغارب، وسقط قسم منها في بلدان الشرق الأوسط.

وتتلاحق النذر:

أرأيت إلى كتاب يعكف محقق من وزن ثقيل على تحقيقه سبع سنين دأبًا، ليصدر في ثلاثة مجلدات، ثم نفاجأ جميعًا بطبعة جديدة، تحمل اسم محقق لم يسمع أحد باسمه بعد، ويكشف التحقيق عن أن مغامرًا أعطاه خمسة آلاف جنيه، ومعها سبعة كتب، لا يريد منه سوى أن يمسك ببعض المعاجم، يعبث من خلالها فيما بين يديه من الكتب، ببعض الهوامش والمعالم.. إنه مبلغ مغر لطالب ثانوية سيظهر اسمه إضافة إلى المبلغ الذي تسلّمه على سبعة كتب بوصفه المحقق الكبير، ولا يشعر بأي حرج إن هو احتفظ بكل بصمات المحقق الشهير على الكتاب، حتى بهفواته وأخطائه المطبعية.

ثم ما رأيك إن حاولت أن تواكب تقنيات العصر، وتمارس النشر الإلكتروني إلى جانب الورقي، ثم تجد السوق وقد أغرق بعشرات البرامج التي تعبت بإعدادها وإنتاجها، بأسعار تكاد لا تجاوز سعر القرص (CD) الخام إلا قليلاً.

يضرب الناشر الجاد المثالي المتشبث بقيم الحق والثقافة يدًا بيد، هل تصدق فيه القاعدة المالية الشهيرة (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول)، فيهجرُ الكتاب وصناعة النشر؟

هل يجاري مثل غزية إن غوت غوى وإن ترشد يرشد؟!

هل ينسحب؟ هل يأوي إلى جبل يعصمه من الماء يفر بدينه من الفتن؟

٦ - إضعاف الوازع الأخلاقي

ما أظن أحدًا ممن يسوغ لنفسه شراء كتاب مقلّد أو برنامج منسوخ، أو حتى مجرد استخدامه، يجهل أنه يمارس اعتداءً على حق، ويقترف إثمًا، ويرتكب ذنبًا، ويستحل حرامًا، ويأكل سحتًا يستوجب منه مخافة الله ووخز الضمير.

غير أن إغضاء المجتمع، وعجز القانون، وصمت أولي النهى، وتشجيع المؤسسات المعنية. كل أولئك يشكل ثقافة تساعد الفرد على إسكات ضميره كلما استيقظ فاستنكر، وعلى انتحال الأعذار الشرعية واستخدام الحيل الفقهية، ولي أعناقها لتناسب الحال: فالضرورات تبيح المحظورات، والمحظورات تباح عند عموم البلوى، فما مصير القيم إذا كان لدى المجتمع لكل محظور فتوى؟!

ولماذا تقشعر أبدان الناس في البلدان المتحضرة، إذا رأوا مثل هذه المشاهد؟ هل للالتزام بالقيم وأداء الحقوق، والوفاء بالعهود، واجتناب المحظورات صلة بمستوى التحضر؟!

لا أشك في ذلك، وقد كان لنا هذا الالتزام قبل الآخرين عندما كنا نتسنم صهوة الحضارة.

٧ ـ زعزعة ثقة العالم بنا:

لم يعد العالم جزرًا منعزلة.. لم يعد بوسع أمة أو شعب أن يضرب حوله ستارًا حديديًا ويعيش منغلقًا على نفسه.. وإذا كان الاكتفاء الذاتي يمكن تصوره في السلع المادية ـ على الرغم من أن هذا التصور قد تجاوزه الزمن ـ فإنه لا يمكن أن يتصور في مجال الفكر والثقافة والمعرفة.

إن لدى كل أمة ثقافة وفكرًا ومعارف، تحتاج إليها الأمم الأخرى لتثرى بها معارفها وتنمى أفكارها.. لا تنمو الأفكار إلا بالتعدد، والتعدد والاختلاف آية من آيات الله تعالى امتن بها على عباده ﴿ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ [الروم ٣٠/٢٢]، وجعلها وسيلة لتعارفهم وتكاملهم ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾ [الحجرات ٤٩/١٣] هكذا أرسى الوحى الإلهى قواعد التبادل الثقافى وحوار الحضارات بين الأمم والشعوب على أسس التعارف والتكامل والحوار، مثلما وضع للصراع والتدافع قواعد أخرى تقوم على مبادئ الحق والعدل والمساواة بين البشر لدحض الباطل والظلم والتمييز العنصرى عندما تطل برؤوسها بعيدًا عن إطار الحوار والتعاون.

فما الصورة التى سترتسم لنا فى أذهان الأمم الأخرى؟!

عندما يعمد مؤلف غربى على التأليف فى نصرة قضيتنا الكبرى فلسطين وفضح أحابيل اليهود المعتدين معرِّضًا نفسه لمكرهم ونقمتهم، ثم يتعاقد مع ناشر عربى على ترجمته ونشره باللغة العربية، فلا يلبث أن يرى مؤسسة رسمية مرموقة فى الوطن العربى قد ترجمته وطبعته على خمسين ألف نسخة من غير إذن ولا مجرد إخبار، وزعتها فى أرجاء الوطن العربى قبل أن تصدر الطبعة الشرعية المأذونة، فيما أسمح لنفسى أن أسميه (قرصنة الكبار)، يزدهون بقرصنتهم ويمنون على الناس أنهم يرتادون لهم آفاق المعرفة؛ يقدمونها لهم بثمن بخس، ويكافئون الأجنبى الذى انتصر لقضيتهم بأكل حقوقه.. فبئست المكافأة.

وعندما يتسابق (صغار الناشرين) على إصدار عشرين ترجمة لنعوم تشومسكى وتيرى ماسان (مؤلف الخديعة الكبرى) وباولو كولو وسبوزيتو وكارين أرمسترونج وفاطمة المرنيسى وروجيه جارودى وماركيز، ثم يكتبون فى صفحة المعلومات فى الكتاب أن حقوق الطبع محفوظة لهم (أى إنها محفوظة لمن سبق للسطو عليها، شأن إحياء الموات).

وعندما يضطر الناشر العربى فى عقوده مع الناشر الأمريكى بأن يشترط عليه تزويده بالمخطوط قبل نشره لتتم ترجمته وإصداره فى آن واحد؛ بالعربية هنا وبالإنجليزية هناك، لتفويت الفرصة على القراصنة ـ ما أمكن ـ أو لتحقيق سبق عليهم ربما يثنيهم عن عزمهم.

أليس لدينا من الإبداع ما نخاف عليه، إذا خطر فى بال أحد أن يعاملنا بالمثل؟!

وإذا كنا نعانى من فقر مدقع فى الإبداع ـ ونحن كذلك بالفعل ـ فهل استطعنا بالتسوُّل وقرصنة الأفكار أن نتحول إلى مبدعين، أم تُرانا ازددنا بهما فقرًا على فقر؟!

٨ ـ الهبوط بمستوى الإنتاج

حتى عندما يحاول القرصان تقليد كتاب، فلن يستطيع أن يحاكيه بنسبة تفوق ٨٥٪ منه من الوجهة الفنية. أما على صعيد المواد المستخدمة فى الإنتاج، فإن الغرض الربحى لديه وحرصه على تحقيق أرباح سريعة يملأ بها جيوبه على حساب الجودة، سيدفعه إلى استخدام الأردأ والأدنى والأقل جودة، لتحقيق ما يستطيع من وفر فى تكاليف الإنتاج من حيث نوع الورق والتجليد والتغليف.

فإذا كان المنتج الكترونيًا على قرص ممغنط (CD) فستكون الطامَّة الكبرى التى ستعود على المستخدم بأوخم العواقب: أقراص رديئة بأسعار متدنية تحقق المنافسة، ونُسخ مستعجل لا يعتمد أيًا من قواعد الحماية من (الفيروسات) التى غالبًا ما تأتى على جهاز المستخدم وتخرِّب برامجه، فضلاً عن حرمانه من الحصول على الإصدارات التالية المحسنة التى يصدرها المنتج الأصلى والخدمات التى يقدمها للمتعاملين معه.

أرجو أن يكون ما قدمت من سلبيات ثقافة استباحة حقوق التأليف ما يلقى الضوء على مخاطرها، وضرورة التحرك لاجتثاثها وإحلال ثقافة وأخلاق الاحترام لهذه الحقوق محلها، وهو ما يتطلب تضافر جهود تربوية واجتماعية وإعلامية وقانونية كبيرة، تتنوع أساليبها وتستمر لمدة طويلة، نظرًا لأن التغيير الاجتماعى لا يتم بين عشية وضحاها ■

كتاب الزاوية

فى خطأ العلماء

قال أبو الحسن: قال الشَّعْبى: سايرت أبا سَلَمةَ بن عبد الرحمن بن عوف فكان بينى وبين أبى الزِّناد، فقال: بينكما عالم أهل المدينة. فسألته امرأة عن مسألة فأخطأ فيها.

الفَلُوشكى قال: قلتُ لأعرابى: أى شىء تقرأ فى صلاتك؟ قال: أم الكتاب، ونسبة الرَّبِّ، وهِجاء أبى لهب.

قال الهيثم: ومن النُّوكى (الحمقى): عُبيد الله بن الحُر وكنيته أبو الأشوس.

قال الهيثم: خطب قبيصة، وهو خليفة أبيه على خراسان وأتاه كتابُه، فقال: هذا كتابُ الأمير، وهو الله أهلٌ لأن أطيعه، وهو أبى وأكبر منى.

وكان فيما زعموا ابنٌ لسعيد الجوهرى يقول: صلى الله تبارك وتعالى على محمد ﷺ.

قال أبو الحسن: صعِد عدىُّ بن أرطاةَ على المنبر، فلما رأى جماعة الناس حَصِر فقال: الحمد لله الذى يُطعم هؤلاء ويسقيهم!

وصعد رَوح بن حاتم المنبر، فلما رآهم قد شَفَنوا أبصارهم، وفتحوا أسماعهم نحوه، قال: «نكسوا رءوسكم، وغُضوا أبصاركم؛ فإن المنبر مركَبٌ صعب، وإذا يسَّر الله فتح قُفل تيسَّر».

دراما التمثال

الوجه الأمريكى

«انتهت اللعبة».. قالها بين دموعه الصادقة الدبلوماسى المهذب محمد الدورى، السفير العراقى فى الأمم المتحدة (لا أعرف إن كانت كلمة «السابق» هنا دقيقة من الناحية القانونية أم لا).

انتهت لعبة (الشطرنج) الدولية، والتى دامت ستة أشهر تحت سقف مجلس الأمن، وأمام الملايين من المشاهدين. انتهت بعد أن قرر اللاعب الرئيسى ذو العضلات المفتولة أن ليس من الحكمة ألا يلعب بعضلاته تلك. ولأن رقعة الشطرنج «ذات المربعات المتساوية» ليست الميدان الأنسب لأدواته، قرر ببساطة - وعلى الملأ - أن يقلب الطاولة.

ولم يكن المشهد - رغم ما بدا فيه من هرج ومرج - غريبًا عما تعودناه فى أفلام الغرب الأمريكى. فهذا «القادم من تكساس» نهض ليعتمر قبعته، ويتمنطق بمسدساته.. ويخرج ليلعب المباراة بطريقته.

انتهت لعبة الشطرنج إذن، لتبدأ - بعد أن تبخرت رائحة البارود - لعبة «البوكر». ولعلها الأنسب فعلاً لمرحلة تكثر فيها المراهنات.. ويجد فيها النصابون حتمًا مكانهم إلى الطاولة.

«انتهت اللعبة».. قالها الدورى على باب منزله فى نيويورك. وتذكر الكثيرون العبارة عندما رأوا فنسنت بروكس المتحدث الرسمى للحملة الأمريكية يخرج من جعبته - أو أكمامه.. لا فرق - مجموعة من «أوراق اللعب» تحمل - ولننس القانون الدولى - صور مسؤولين وعلماء عراقيين، مطلوبين «أحياء أو أموات». ولا أعرف - لجهلى بأصول اللعبة وقواعدها - ما هى المصادفة التى جعلت من عددهم مساويًا بالضبط لأوراق الكوتشينة(!)

«انتهت اللعبة». العبارة تذكرها أيضًا أولئك الذين يفترضون أن صدام كان - بصورة أو بأخرى - عميلاً للأمريكان. أو «لاعبًا فى فريقهم»، وإن لم يقصد. وأن رامسفيلد نفسه هو الذى اتفق معه يومًا على حرب إيران «الإسلامية» بعد عهد من الود مع إيران «الشاه»، وأن سيدة أمريكية أفهمته - أو فهم منها - ما دفعه يومًا آخر لأن يجتاح الكويت، مثيرًا «عاصفة فى الصحراء» هزت قواعد إقليمية كثيرة، وخلّفت كثيرًا من القذى فى العيون.

ويفترض أولئك أن الرجل كان - كلاعبين غيره - قد شاخ. كما أن طموحه - ومن ثم تسديداته - بدت متجاوزة حدود الملعب. فتقرر أن يذهب. وأن تحرز «جولة» اعتزاله، والذى يجب أن يكون قسرًا، «أهدافًا كثيرة».

انتهت اللعبة، بمعنى أو بآخر إذن.. ولكن تبقى النتائج النهائية غائبة وغير واضحة. تطمرها أكوام التراب التى أهيلت على قبور آلاف العراقيين. ويخفيها الغبار المتصاعد من مسيرة الملايين «الكربلائية» قبل أيام. ويربكها حتمًا نقص «الخبرة الاستعمارية» لمستعمر القرن الحادى والعشرين.

انتهت اللعبة.. ذهب صدام ونظامه وسقطت بغداد. ومعها سقطت ثوابت كثيرة. وطويت صفحات وطارت أوراق ولكن هل انتصرت أمريكا؟

ربما كان الوقت مبكرًا جدًا لإجابة قاطعة. نعرف أنها ترتبط - بحكم التعريف - بالأهداف على الورق من ناحية، وبالواقع على الأرض من ناحية أخرى.

قد يتصل بهذا، وقد يكون غريبًا - أو لا يكون - ولكنه يبقى لافتًا وينبغى رصده على أية حال، أن أول مظاهر المقاومة للغد الأمريكى «القسرى» جاء من حناجر، وعلى لافتات عراقيين عاديين، يُفترض أن جوعَ حصار الاثنى عشر عامًا أنهكهم. وسجن طاغية الثلاثين عامًا أذلهم. وانفجارات الثلاثين ألف قنبلة وقذيفة وصاروخ أخافتهم.

ولكن بعد أيام فقط مما أسماه جورج دبليو بوش «انتصار الأمريكيين العظيم». وفى الساحة نفسها التى شهدت العرض الهوليوودى لتغطية وجه الطاغية بالعلم الأمريكى قبل أن تسقطه الدبابة «الأمريكية»، خرج عشرون ألف متظاهر يرفعون لافتات تعددت، وهتافات تنوعت. ولكنها جميعًا تلخصت فى رأى واحد: «لا لاستبداد الطاغية.. ولا لاحتلال الغزاة» وبدا أن المشهد كله لخصته إحدى اللافتات فى كلمتين فقط: «بوش = صدام».

وبغض النظر عما يقصده العراقيون بتشبيه طاغيتهم الذاهب، بذلك «القادم من تكساس» ليوزع عليهم صناديق الحلوى.. و«وعود المستقبل»، فإن هناك من يلاحظ كيف يتصرف الإمبراطور العالمى الجديد؟ «لدينا قوة كاسحة.. وعلينا أن نجعل الجميع يدركون ذلك» كما يقول رامسفيلد، صقر الإمبراطورية الصريح.

استخفت الولايات المتحدة بالأمم المتحدة. ورأينا كيف لم تجد واشنطن حرجًا فى أن تُنَصِّب نفسها خصمًا وحكمًا وجلادًا فى الوقت ذاته. وهو تجسيد فج للديكتاتورية فى أبشع صورها.

هل تذكرون المشهد الذى تحاكى به الكثيرون لصدام حسين يختلف فى أحد الاجتماعات مع أحد «الرفاق»، فيبادر إلى محاكمته - فى ذهنه على الأقل - ومن ثم إدانته. ثم تنفيذ ما حكم به. فينزع إلى المسدس فى خاصرته حاسمًا وقاطعًا، ولسان حاله يقول ربما ما معناه بالإنجليزية: It's Over. وهى العبارة نفسها - ولا مفارقة - التى قالها جورج دبليو بوش معلنًا أن صبره قد نفد.. وأنه ليس بحاجة إلى مجلس الأمن (الحكم). وأن جيشه ذاهبٌ إلى هناك «ليحسم الأمر». هل ترون فرقًا..؟!

الفارق الوحيد - ربما - هو ما بين الدول والأفراد من فارق. وما بين طلقة من مسدس الخاصرة، وصاروخ ينطلق من حاملة للطائرات، أو من أراضى أبناء العمومة.. لا فارق.



ساحة الفردوس. التاسع من نيسان ٢٠٠٣

ماذا بعد..؟

لا أحد قطعًا وسط الهرج والمرج ودخان البارود يستطيع أن يعرف. ولكن يبقى لاعب البوكر القوى يحتفظ بمسدسه على الطاولة وبكثير من أوراق اللعب فى أكمامه.

ويبقى فى المشهد رامسفيلد «لسان القوة الأمريكية الطاغية» حريصًا أن تتجه أنظار الجمهور - ولو إلى حين - إلى حيث تتجه سبابته: «على السوريين أن يتعلموا من درس العراق».

هل تذكرون صور الحاويات التى عرضها كولين باول على مجلس الأمن فى تلك الأيام لتى صارت بعيدة بما تلاحق بعدها من أحداث. والتى حاول بها دون جدوى إقناع المجتمعين باعتبارها دليلا على امتلاك العراقيين أسلحة دمار شامل. ها قد خرج الأسترالى المشكوك فى ذمته وحياديته ريتشارد باتلر رئيس لجنة الأونسكوم السابقة، ليبحث له عن مكان فى «الجوقة» المدعوة للمسرح المفتوح، معلنًا أنه يؤيد الاتهامات الأمريكية لسوريا بامتلاك أسلحة دمار شامل. ودليله على هذا الاتهام، الذى قد يكون من شأنه أن يقذف بالمنطقة إلى أتون حرب أخرى مدمرة، هو - مرة أخرى - وحسب نص تصريحاته «صور جوية أظهرها لى الأمريكيون بين عامى ٩٧ - ٩٩ لحاويات مغلقة تتحرك من العراق إلى الحدود السورية»!!

يا له من «دليل»!! وعذرًا لكل القانونيين لما لحق «باللفظة» من ابتذال.

.. والرمز للطاغية

أيمن الصياد

وعذرًا للدبلوماسي الأول (دوليا) السيد كوفي عنان الذي لن يلتفت المفتونون بقوتهم بكل تأكيد لتصريحاته الهادئة، مهما ألح في تأكيده - حسب النص - إلى أنه «مقتنع بأن أي اتهام بتهديد السلم والأمن الدوليين، يجب التعاطي معه بموجب ميثاق الأمم المتحدة».

وفي حين ستقتصر تصريحات عنان، على الأغلب، على الاحتفاظ بمكانها - طبقًا للأصول البيروقراطية المرعية - ضمن حافظة مستندات رسمية على أحد أرفف المنظمة العريقة، يبدو أن تصريحات - أو بالأحرى اشتراطات - رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون الفجة هي التي ستجد طريقها إلى أرض الواقع، ليتم التعامل معها في نهاية المطاف «ضغطًا أو رفضًا» لتشكل مفرداتها مانشتات الصحف في مستقبل نرجو ألا نراه.

شارون حدد لصحيفة يديعوت أحرونوت قائمة بخمسة مطالب سلمها إلى واشنطن لتضطلع بها حال التعامل مع سوريا.

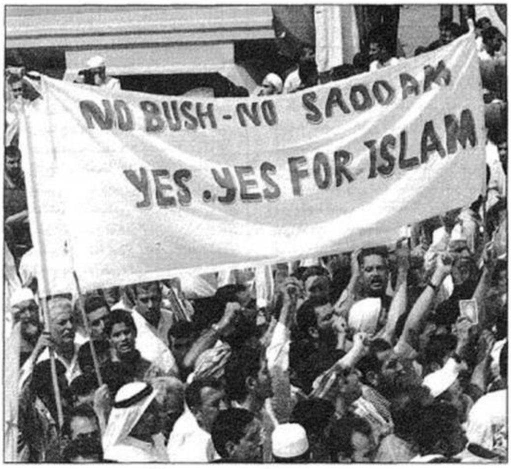
وتشمل القائمة طبعًا طرد حماس والجهاد الإسلامي من سوريا فضلاً عن طرد الحرس الثوري من سهل البقاع اللبناني.. وكذا وقف التعاون السوري مع إيران. وطرد حزب الله من جنوب لبنان، وتفكيك منظومة الصواريخ التي نصبها (في أرضه) على الحدود مع إسرائيل.. وفوق كل ذلك وقف التحريض الذي يستهدف الكيان العبري.

ولا تعليق.. فنتنياهو قال إن بغداد سقطت.. «وحان وقت قطف الثمار».

هل أخطأ جندي المارينز عندما وضع العلم «الأمريكي» على وجه صدام؟!

ربما.. فلعله كان من الأصدق أن يبحث في جيب سترته عن العلم ذي الخطين الزرقاوين والنجمة، مادامو أرادوا للمشهد أن يكون رمزيًا ودالاً على عنوان المرحلة.

رغم ذلك، وبعيدًا عن استقطابية بن لادن «بين فسطاطين» أو بوش «بين محورين»، يرى العقلاء أن ليس كل ما يأتي من أمريكا شر. ففي حين تقمع دول الجوار المظاهرات السلمية، صرخ المتظاهرون العراقيون «المقموعون لأكثر من ربع قرن» في وجه جنود المارينز المدججين بالسلاح، بعد أيام فقط من احتلالهم المدينة. ورفعوا لافتات تندد بالرئيس.. بوش.



من مظاهرات بغداد

وقد يكون هذا صحيحًا.. وهو كذلك. ولكن يبقى الأصح منه خطورةً أن تضيع وسط الصياح والغبار ورمال الصحراء الناعمة، علاماتُ الطريق. فننجرف - وأخص أهل الرأي والفكر.. والقيادة - إلى نهج استقطابي قد لا يختلف كثيرًا عما فعله بن لادن أو بوش. ونختزل القضية كلها في الاختيار بين الدكتاتور المستبد ذي الوجه الكالح الصدئ، أو المحتل الغاصب بعَلَمه ذي الألوان الزاهية. وأن تغشى عيونَ البعض إرهاقًا.. ويأسًا، فيخيرون بلاد ما بين النهرين.. ما بين النارين.

انتهت اللعبة.. ربما. بوجه من الوجوه.

هكذا أراد مخرجو مشهد ساحة الفردوس أن يقولوا وأن يروجوا: «As Seen on TV» كما اختارت الجارديان لأحد مانشتاتها.

وكان أن اختاروا تمثال الفردوس، دون مئات غيره من التماثيل، «لصورة» النهاية. ربما (لمصادفة) أنه يقع في ساحة الفنادق، حيث يقيم كل الصحافيين والتليفزيونيين الباحثين - بحكم المهنة - عن المشهد و«الصورة». وحيث كان طبيعيًا أن تتسمر الكاميرات لتسعين دقيقة كاملة على المشهد «الرمزي». حيث يفشل العراقيون بأدواتهم «البدائية» عن إسقاط الديكتاتور. فيطلبون عونًا من دبابة أمريكية «تصادف» أن بها رافعة هيدروليكية، وجنديًا يحتفظ في جيبه بعلم. فيتولى المهمة و«الترميز» بنجاح. مخيبًا رجاء مراسل «الجزيرة» الذي كان يصف المشهد، حين تمنى ألا يفشل العراقي في «عقد» الحبل حول عنق التمثال، حتى لا يضطر للاستعانة بمن يبدو أنهم سيصبحون «أهل الحل والعقد» في قادم الزمان.

كان عدد الصحافيين، وكاميرات التليفزيون أكثر من عدد البغداديين الذين قدموا إلى الساحة الواسعة. كما يلاحظ مصور وكالة «جاما» لوران فان دير ستوكت. والذي رافق فرقة من المارينز منذ بداية الحرب. ولفت انتباهه - كما ذكر للنيويورك تايمز - أن أحدًا من الأمريكيين لم يطلق النار، هذه المرة بالذات، على العراقيين القادمين نحوهم في ساحة الفردوس. رغم أنهم دأبوا على ذلك - خشية الهجمات الاستشهادية - طوال ثلاثة أسابيع رافقهم فيها، قبل أن يصل معهم إلى ساحة العرض ليسجل بعدسته: «الصورة».

ها قد تغير الوجه..

ديكتاتور «محلي» قديم (علا وجهه المعدني الصدأ) بحكم العوامل الطبيعية لمرور زمن لم يحسن صدام حسين قراءة آثاره، يختفي خلف علم من القماش زاهي اللون. كأنه خرج لتوه من حقيبة الـLaundry البلاستيكية. ويراه كثيرون رمزًا لديكتاتور «عولمي» جديد.

لم يختلف أحد العرب يومًا حول صدام حسين، وحول ما أحدثه من تخريب في العلاقات العربية، رغم ما نجح فيه الأمريكيون من دفع بعض الجماهير لحمل صوره في المظاهرات (كُرهًا فيهم.. لا حُبًا فيه).

كما أنه، ورغم ذهول اعترى الكثيرين في عالمنا العربي المبتلى بإعلام ينقصه الكثير من النضج، وبمحللين سقطوا للأسف في براثن «التوقع بالتمني»، إلا أنه - وباستقراء الواقع الصريح - لم يكن ثمة من مفاجأة. اللهم إلا في استمرار المقاومة عشرين يومًا كاملة. فالبلد أنهكه الجوع والحصار. والعقيدة التبست بفعل الطغيان والظلم. ثم ماذا كان يمكن أن تكون نتيجة حرب بين صاروخ وسيف؟! «لم تكن حربًا.. بل كانت مهزلة» كما قال أحد الجنرالات الروس.

كانت النتيجة إذن محسومة. وكان مشهد ساحة الفردوس متوقعًا.. أو مرتبًا.. وكانت «الصورة» في انتظار العدسات.

ورغم أن الكثيرين كان سيبهجهم حتمًا سقوط الديكتاتور «الرمز»، إلا أن المدققين في المشهد وما خلفه، كان صعبًا عليهم ولا شك ابتلاع غصة ما في تفصيلاته من «رمزية».. وأعلام. كما كان صعبًا عليهم ألا يروا أن ثمة ترتيبًا و«إخراجًا» هناك.

كما أنهم، مثل لاعبي الـPuzzel يعرفون أن الصورة لا تكتمل إلا بجمع أجزائها المبعثرة.

وكان لافتًا أنه حتى اللغة تبدو عصيةً - أو نابيةً - حين لا تجد في معاجمها ثمة فارقًا بين ما يقوله أصحاب العَلَم من «إعمار» العراق.. وبين «استعمار».

وحين يقول الجنرال الأمريكي المتقاعد «جاي جارنر» الذي عينوه لإدارة العراق، حين دخوله إلى مقره في «الموصل» أنه: «لن يحكم العراق». يتذكر قارئو التاريخ يوم سُئل اللورد كرومر في ذلك اليوم البعيد من القرن التاسع عشر: «هل ستحكم مصر؟» قال: «لا.. بل سأحكم من يحكم مصر».

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ألفاظ ومعانى التنمية الشاملة

إسماعيل صبرى عبد الله

القاهرة: العربى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ٢٣٠ صفحة



ثمة ترابط يؤكده المؤلف منذ السطور الأولى بين الديمقراطية والتنمية، فلا ديمقراطية بلا تنمية تصنع التقدم المستمر والشامل للمجتمع، ولا تنمية مطردة دون حياة ديمقراطية، والمؤلف يجزم بأنه ليس فى تاريخ مصر الطويل أى تجربة أو حتى نظرية فلسفية عن الديمقراطية، والعصر الليبرالى الذى عاشته مصر (١٩٢٣-١٩٥٢) يراه عصر استبداد الملك وصاحب اليد الحديدية (محمد محمود باشا) وإلغاء الدستور ليحل محله دستور إسماعيل صدقى (١٩٣٠) وحل البرلمان الذى لم يتم دورته إلا برلمان قاطع حزب الأغلبية انتخاباته.

كما أن مفهوم التنمية ذاته تطور بدرجة كبيرة منذ الخمسينيات وحتى اليوم مما يستلزم متابعة النظريات التى ارتبطت بها والأفكار التى صاحبتها، المؤلف يتحدث عن عشرات المصطلحات والألفاظ والظواهر الاقتصادية، مثل المستثمر والرأسمالية الطفيلية والدعم وتجارة الدم وأزمة النمور والرأسمالية الكوكبية والثروة الذكية وإدمان التسوق والركود الرأسمالى والطاقة والأمن الغذائى والتلوث والاقتصاد الحقيقية، بأسلوب مختصر ودال فى الوقت ذاته.

مفترق الطرق

حسين كامل بهاء الدين

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٢، ٢٦٠ صفحة



من قبل أصدر المؤلف - وهو وزير التعليم المصرى - مؤلفًا عن التحديات التى تواجه التعليم فى المستقبل وكيفية مواجهتها.

فى هذا الكتاب، يتناول قضايا عامة عديدة، بينها التعليم بالطبع، انطلاقًا من رغبته فى تجاوز الإحباط الذى يسيطر على جموع الناس فى التعاطى مع الواقع الدولى الذى تلاشت فيه القطبية، وسادته قوة عظمى وحيدة متغطرسة، جعلت دول العالم النامى تشعر بالانسحاق فى مواجهة هذا الواقع الظالم، والمؤلف يبدأ من التحديات التى تواجه هذه المجتمعات، وأولها وأهمها تحدى التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يتجاوز مجالات النشاط السلمى إلى الحروب، ويشير المؤلف بوجه خاص إلى ما يسميه مثلث الرعب G.N.R، أو التزاوج بين العقل البشرى والعقول الإلكترونية، وهو يرى أن هذا المثلث يضعنا أمام احتمالين أحلاهما مر، الأول أن يوكل إلى هذه التكنولوجيا فائقة الصغر والدقة إدارة وضبط معظم الأنشطة على الأرض وأن تكون هناك قلة من البشر محتكرة لهذه المعرفة، والاحتمال الثانى أن يوكل أمر البشرية بالكامل إلى هذه المنظومة المرعبة ويقع الإنسان تحت رحمتها.

وعليه، فليس أمام الدول النامية سوى محاولة اللحاق بهذه التكنولوجيا الفائقة التى يزداد تطورها يومًا بعد آخر.

وفى القسم الثانى من الكتاب يشير المؤلف إلى سقوط الشرعية الدولية خصوصًا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، كما يلقى أضواءً على التأثيرات السلبية للعولمة التى أزالت الحواجز الجغرافية والوطنية، وارتباطها بسيادة الاقتصاد الحر الذى تراجعت بشيوعه النوازع الأخلاقية لحساب قيم المكسب والخسارة.

ويركز القسم الثالث على توابع ونتائج زلزال الحادى عشر من سبتمبر.

وفى القسم الأخير وتحت عنوان العمل والأولويات يتناول قيم التقدم وكيف يمكن تبنيها لدينا ودور الدولة فى ظل المتغيرات العالمية المعاصرة، وكيف يمكن بناء قوتنا الذاتية وتنمية مواردنا، ويؤكد على أنه لم يعد لدينا سوى تبديل غليان الغضب إلى طاقة عمل، وأن تتحول السلبية إلى مشاركة فعالة، فنحن فى مفترق طرق، والخيارات محدودة.

العصر الذهبى للإسكندرية

جون مارلو

ترجمة: نسيم مجلى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ٣٥٠ صفحة



كانت الإسكندرية منذ أنشأها الإسكندر الأكبر عام ٣٣ ق. م حتى غزاها أوكتافيوس فى ٣٠ ق. م عاصمة لإمبراطورية عظيمة، كما كانت المركز الثقافى والاجتماعى للعالم الهيللينستى، ومركز الجاذبية الذى تأتيه الثروات من آسيا وأفريقيا وتنجذب إليه كل مصادر الثقافة والفكر من كل بلاد الإغريق، إذ كانت هى مصدر الطاقة المحركة التى تحول هذه الثروة إلى حضارة وتنشرها عبر المتوسط، وحتى بعد أن انتقل مركز الجاذبية غربًا إلى روما، فقد بقى للإسكندرية تفوقها وسيادتها الفكرية والثقافية، وظلت كما هى البوابة الرئيسية التى يمكن من خلالها أن تنتقل الثروة المادية والأفكار الروحية وتراث الشرق إلى ما كان يسمى آنذاك بالعالم الرومانى للبحر المتوسط.

ظلت الإسكندرية طيلة ألف عام أعظم مدن العالم، فكانت أعظم الموانى، ومركز التجارة العالمية، ومجتمع التسامح الذى لا يرقى إلى مستواه مجتمع آخر، واستحوذت مكتبتها على أعظم كنوز المعرفة الأكاديمية والبحث العلمى، وكانت مصدراً لإلهام الفنانين والأدباء فى العالم كله.

الوطن العربى.. النواة والامتدادات عبر التاريخ

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٢١٠ صفحات



يمثل الوطن العربى الذى نعيش على أرضه فى الوقت الحاضر، حصيلة تاريخ طويل من التفاعل بين الإنسان العربى وبيئته الجغرافية التى عاش فى كنفها منذ القدم، بحسب القرب أو البعد عن الوطن الأول الذى ظهر فيه العرب منذ آلاف السنين، وكان هذا الوطن بحسب ما ترجح الأبحاث العلمية هو شبه جزيرة العرب.

وهذا الكتاب الذى شارك فيه مجموعة من الباحثين المختصين، يضم ثلاثة عشر فصلاً، تركزت حول مختلف الموضوعات التى تعالج أصول وفروع القبائل والأقوام التى عاشت فى هذه المنطقة وتنقلت فيها، وهو حصيلة ندوة موسعة عقدتها دائرة التراث العربى والإسلامى فى المجمع العلمى العراقى، وبين أبحاث الكتاب «الأقوام الجزرية العربية فى بلاد الرافدين» و«الكنعانيون من الأقوام العربية القديمة» و«انتشار العرب فى مصر وشرق أفريقيا قبل الإسلام» و«انتشار قبيلة عبد القيس قبل الإسلام إلى نهاية القرن الأول الهجرى» و«الهلاليون فى المغرب» و«قبائل هلال وجشم والمعقل فى المغربين الأوسط والأقصى» و«بيوت العرب فى الأندلس ودورها فى التعريب».

وهو بذلك يلقى أضواء على الكثير من النقاط المهمة فى التاريخ العربى والهوية العربية التى كثيرًا ما تعرضت للطمس والتشويه.

فهرس المخطوطات الأصلية

الكويت: وزارة الأوقاف- قطاع الإفتاء والبحوث الشرعية، ٥٥٠ صفحة



يضم هذا الجزء مخطوطات القرآن وعلومه، ثم مخطوطات الحديث وعلومه ثم مخطوطات العقائد، ويرتبها فى كل موضوع بحسب حروف الهجاء متضمنًا العنوان وبيان الأجزاء والمؤلف وسنة التأليف والناسخ ووصف النسخة وأول المخطوط وآخره وعدد الأوراق وعدد الأسطر وقياس الورقة والإهداءات والمراجع ورقم المخطوط.

إشكالية الشرعية فى الأنظمة السياسية العربية

خميس حزام والى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٠٦ صفحات



ثمة إجماع بين الكُتّاب والباحثين العرب وبعض الأجانب على أن إشكالية المجتمعات العربية الحالية هى إشكالية الشرعية، أى ضعف العلاقة بين المجتمع وسلطته ونظامه السياسى، مما يترتب عليه رجحان كفة السلطة ونظامها وتوغلها فى ممارسة العنف والقهر حفاظًا على وجودها وبقائها فى الحكم.

وهذا الكتاب يوجه اهتمامه إلى إشكالية الشرعية فى الأنظمة السياسية

العربية، وكيفية مواجهتها مع التركيز على الجزائر كنموذج، وهو يضم فصولاً أربعة: الأول في الشرعية، والثاني عن مصادر شرعية الأنظمة العربية، والثالث عن إشكالية الصراع والشرعية في الجزائر، والرابع عن مستقبل الشرعية في الأنظمة السياسية العربية.

■

المنهج الراديكالي في إدارة المشروعات

جون سي. ريدنج

تعريب: أيمن الأرمنازي

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣، ٢٧٥صفحة



صارت المشروعات والعقبات التي تواجهها فرق العمل في إدارة المشروعات أكثر تعقيدًا مما كانت عليه، بالإضافة إلى الضغوط المتزايدة على أي فريق عمل مكلف بتنفيذ مشروعات معينة للخروج بحلول حقيقية، ويبقى السؤال المطروح هو: كيف تستطيع فرق العمل أن تنهض بمسئولياتها في المناخ التجاري الحالي الذي يتطلب التحرك لمواكبة التطورات المتسارعة.

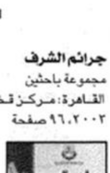
والمؤلف يرى أن فرق العمل اليوم أصبحت بحاجة إلى إعادة النظر في الأسلوب الذي تنتهجه لتحقيق أهدافها، ويقترح منهجًا جديدًا للعمل هو الأسلوب الراديكالي، القائم على التفكير الإبداعي وتشجيع المجازفة وتنمية الخبرة والمعرفة التي يحتاجها فريق العمل لتحقيق النتائج المرجوة، وهو يقدم مجموعات من التمارين والنماذج التطبيقية للراغبين في الاستفادة من هذا المنهج.

■

جرائم الشرف

مجموعة باحثين

القاهرة: مركز قضايا المرأة المصرية، ٢٠٠٢، ٩٦صفحة



بدعوى الشرف، تزهق أرواح عشرات النساء، ليس فقط لأنهن تجرأنَ وتجاوزن وهتكن أستار ما تعارف المجتمع على حمايته، وإنما - في كثير من الأحيان - لأنهن ارتكبن ما يظن الرجال أنه يمس الشرف.

هذا الكتيب يمثل إحدى محاولات رصد وتحليل مظاهر العنف ضد النساء في جرائم الشرف، بتجميع الأحكام القضائية التي صدرت خلال الفترة من ١٩٩٨ وحتى ٢٠٠١ في محافظات مصر كلها، كما يرصد كيفية التعامل مع المتهمين ودور المؤثرات الثقافية والاجتماعية في هذا الإطار، ويضم حصيلة جلسات مناقشات في الموضوع ذاته شارك فيها خبراء ومختصون.

ومن الجداول الإحصائية التي يتضمنها الكتيب تبين أن السبب الأساسي لارتكاب جرائم الشرف هو الشك في السلوك حيث تبلغ النسبة ٧٩٪، وأن نسبة قتل الزوجة للشك في سلوكها تبلغ ٤١٪، والابنة ٣٤٪، والأخت ١٨٪، وأن قتل الضحية عمدًا تبلغ نسبته ٩٠٪، أما الشروع في قتلها والذي قد لا يتم لسبب أو لآخر فهو ١٠٪.

■

شجرة الجميز

محمد سلماوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٥٨ صفحة



مجموعة قصصية جديدة لمؤلفها صاحب الإسهامات المسرحية البارزة «القاتل خارج السجن»، «فوت علينا بكره»، و«اللي بعده»، «سالومي»، «اثنين في البلاعة»، وهذه المجموعة عن أشجار الجميز وصوت المؤذن وعود الغاب وفار الحقل، ومفردات أخرى كثيرة تغيرت معانيها في حياتنا.

■

من أيام عبد الناصر والسادات

سهام ذهني

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ٢١٨صفحة



يضم الكتاب مجموعة من الحوارات أجرتها المؤلفة مع عدد من الشخصيات التي تكشف عن كثير من الأحداث المهمة والتي كانت قريبة منها بدرجة تمكنها من إضاءة غوامضها، منها حوار مع الدكتور الصاوي حبيب الطبيب الخاص للرئيس عبد الناصر والشاهد الوحيد على لحظة وفاته، وحديث مع الدكتور ميلاد حنا عن ذكرياته داخل السجن الذي قضى فيه فترة اعتقاله في أحداث سبتمبر ١٩٨٠، ولقاء مع الدكتور صوفي أبو طالب رئيس مجلس الشعب لحظة اغتيال السادات والذي كان رئيسًا لمصر بحكم الدستور لمدة ثمانية أيام حتى ولاية الرئيس مبارك، وذكريات من سجن النساء مع صافيناز كاظم ولطيفة الزيات وعواطف عبد الرحمن وأمينة رشيد وفريدة النقاش، وحوار مع السيدة جيهان السادات والمصور حسن دياب المصور الخاص للرئيس السادات، وآخرين ممن أسهموا بالمشاركة أو بالمراقبة في أحداث سياسية مهمة.

■

الحصاد.. عامان على الخلع

أحمد الصاوي

القاهرة: مركز قضايا المرأة المصرية، ٢٠٠٢، ١٠٤صفحات



اعتبر كثيرون من مناصري قضايا المرأة أن صدور قانون الخلع إنجاز في مسيرة تحرير المرأة المصرية ونيلها لحقوقها، وهذا الكتاب يرصد حصاد التجربة منذ صدور القانون قبل عامين، ويقدم إحصاءات ومقارنات تفصيلية عن قضايا الخلع وقضايا التطليق لأسباب مختلفة، وعدد النساء اللائي رفعن قضايا خلع في القاهرة ومحافظات مصر المختلفة، والكيفية التي تعامل بها القضاة مع هذه القضايا، وكيف تناولت الصحف قضايا الخلع رفضًا وقبولاً.

■

مصر في فكر العالم

مصطفى نبيل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٢٢٠ صفحة



هذا كتاب عن كتب يضم أبوابًا أربعة: الأول منه يحمل عنوان «مصر والمصريون» ويتناول كتبًا تدور حول مصر في الماضي والحاضر، ليس فقط من حيث العادات وحياة الناس وإنما أيضًا في العمارة والمكانة، ومن هذه الكتب كتاب «مصر والمصريون» للمستشرق السوفيتي إليكس فاسيلييفا، وكتاب الرحالة الألماني كريستان نيبور «رحلة إلى الشرق» وكتاب مسعود ضاهر «الهجرة اللبنانية إلى مصر» وغيرها.

ونطالع في الباب الذي يحمل عنوان «خفايا الشرق» دراسة صادرة عن جامعة واشنطن عنوانها «القهوة والمقهى في الشرق» وكتاب رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» والذي كتبه عقب عودته من فرنسا.

وفي باب «أمريكا وثقافة العالم» قراءة لكتاب «أمريكا والإسلام - صراع الحضارات أم صراع المصالح» للباحث فواز جرجس، وكتاب جارودي «أمريكا طليعة الانحطاط» ونعوم تشومسكي «ماذا يريد العم سام» وغيرها، وكتب أخرى يتضمنها باب «نحن والمستقبل».

■

أبرز قضايا السياسة الدولية المعاصرة من خلال المفاهيم والبنى

هادي خضراوي

بيروت: دار الكتب الحديثة، ٢٠٠٣، ١٧٥صفحة



يتناول الكتاب السياسة الدولية المعاصرة من خلال أوجه التقارب والتفاعل السلمي والتصادم والإشكاليات البنيوية والمضامين الإنسانية، مستعرضًا المفاهيم والقضايا الأكثر تداولاً في العلاقات الدولية، خصوصًا ما يتعلق بالعولمة وعبر القطرية والتبادل الحر ومنظومة المجتمع الدولي والهيئات الحكومية وغير الحكومية والرأي العام العالمي والأمن الجماعي والتفاوض والتقاضي، وكذلك مفاهيم حقوق الإنسان وتقرير المصير والجرائم الدولية والتدخل لأغراض إنسانية وحق اللجوء، والسيادة والحدود، وغيرها من المفاهيم وذلك في سبعة فصول.

■

ليالي الحصار

دبي: دار الصدى، ٢٠٠٣، ١٢٢صفحة



يضم الكتاب قصائد لنخبة من شعراء العراق الذين أبدعوها تحت الحصار المفروض عليهم منذ أكثر من اثني عشر عامًا، ومن ثم فإن هذه الإبداعات ابن شرعي لمناخ الحرب والحصار أبدعها نحو ٤٥ شاعرًا من أبناء وحفدة نازك الملائكة والسياب والبياتي والجواهري والنجفي والرصافي.

يقول الشاعر حمد محمود الدوحي في قصيدته «إيناس»:

إيناس.. أحزان أوتاري / وأغنيتي / وما تبقى من الأنفاس / في رئتي / من لوحة خرجت / لمت ضفائرها / سواقيا /

واستدارة نحو مزرعتى / كان المساء يجر الليل من يده / إلى السرير / لكى أنسل من لغتى / طارت ضفائرها للرقص / واشتعلت حولى / كثيرًا / وصار الليل مروحتى.

■

ثقب فى الهواء بطول قامتى

محمد أبو زيد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢، ٩٦ صفحة



يحمل هذا الديوان سمات جيل الشعرية الجديدة فى مصر وحساسيته، وهو يجمع بين جدة الخيال وطرافته، وواقعية الذات التى نستطيع أن نتلمس وجودها ونصدقها، كما بين اقتصاد الاستعارة وثرثرة الغنائية، والاحتفاء بالحياة وتفاصيلها اليومية.

من أجواء الديوان:

لا تموتى الآن / فأنا انتظرك منذ خريفين ووردة / حقيبتى فارغة / عيونى معلقة على البحر / من يمسح بيده فوق صدرى / فارتجف.

■

نماذج التنمية فى فكر القوى السياسية فى مصر

تقديم: مصطفى كامل السيد

القاهرة: مركز دراسات وبحوث الدول النامية ـ جامعة القاهرة، ٢٠٠٢، ٤٠٢ صفحة



يسعى الكتاب إلى تحليل رؤى القوى السياسية المصرية لنماذج التنمية التى يتبناها كل منها، وهو يبدأ بفصول تمهيدية تستعرض مفاهيم التنمية الاقتصادية والسياسية ورؤى المؤسسات الدولية المالية لها، وخاصة أن علاقة هذه المؤسسات بعملية التنمية وثيقة تمويلاً ومتابعة، وسنلاحظ اختلافات حول مفهوم التنمية السياسية من مرحلة زمنية إلى أخرى، كما سنلاحظ اختلافًا حول المفهوم بين المؤسسات الدولية والدول الراغبة فى السير فى طريق التنمية، والمحصلة أنه لا تحديد دقيقًا لمفهوم التنمية وإن كان ثمة إجماع على أنها مفهوم للتغير يشمل الإنسان والمجتمع والدولة ويتغلغل فى جميع مناحى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، لكن الاختلاف الأكبر سنجده بين رؤية الحكومة المصرية ورؤى القوى والتيارات السياسية المختلفة، ويزداد البون اتساعًا حين نصل للتطبيق، خصوصًا أن الخطاب السياسى للحكومة المصرية حول التنمية يشير إلى شموليتها وإلى أن الإنسان المصرى هو غايتها النهائية، وفى هذا لا خلاف بينه وبين تصورات القوى السياسية الأخرى للتنمية، لكننا سنلاحظ تباينًا فى الأولويات بين القوى الليبرالية والإسلامية واليسارية، فبعضها يمنح أولوية للتنمية السياسية ويراها سابقة على ما دونها، وبعضها يرى التنمية الاقتصادية أسبق، فيما يصر آخرون على الأهمية القصوى للتنمية الثقافية، الكتاب يقدم هذه الرؤى جميعها، ويعد بجزء ثان يناقش مفاهيم التنمية لدى القوى الاجتماعية المختلفة من عمال وفلاحين ومراكز فكرية وبحثية.

■

العولمة.. أفق مفتوح وإرث يثير المخاوف

صالح السنوسى

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٣، ١٩٢ صفحة



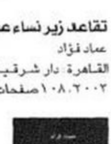
التجلى الأخير لثقافة الغرب وحضارته بحسب كثيرين هو العولمة، والمؤلف يبحث عن جذور العولمة فى ثلاث ركائز يرى أنها ميزت الفكر الغربى عبر العصور، وهى برغم ما يبدو من اختلاف ظاهر بينها، فإنها حضرت النزعة المركزية الغربية وحددت رؤية الثقافة الغربية إلى الآخر، وهذه المرتكزات هى: المنظور الشمولى، المنظور الإثنى والعرقى، المنظور القومى وإزاء ذلك الطرح يعود المؤلف بالبذور الأولى للعولمة إلى خمسة قرون خلت.

■

تقاعد زير نساء عجوز

عماد فؤاد

القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ١٠٨ صفحات



ديوان جديد لصوت شعرى، ينتمى إلى جيل التسعينيات من الشعراء المصريين، أصدر ديوانه الأول «أشباح جرحتها الإضاءة» عام ١٩٩٨.

يتضمن الديوان ٩ قصائد هى: رسالة لا تخص أحدًا سواها، مطرح دافئ على ضفة النهر، مريم، كامرأة تتكئ على رفة ندم، يوم فى حياة ملاك صغير، فى محاولة تعريف معنى غيابك، آخر محاولات التنكر، الوحيدة فى ركنها النائى، بدء تقاعد زير نساء عجوز.

من أجواء الديوان:

تردد / حين قال جملته الأخيرة

ندت عن جبينه العريض / رعشة مفاجئة / فيما قبضت أصابعه الصلبة / على حفنة من الهواء وانسدلت أعضاؤه / بين أيديهم.

■

الإمبراطورية الأمريكية

سمير مرقس

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ١٣٥ صفحة



ينطلق هذا الكتاب أيضًا ـ مثل عشرات الكتب التى واكبت الحدث ـ من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. لكنه يسعى فى الأساس إلى محاولة فهم السلوك الأمريكى وكشف محدداته فيما يتعلق بالعلاقة بالعالم، وهو يشير إلى نتيجة أوردها الكاتب الفرنسى «برتران بادى» فى أحد كتبه الصادرة بعد ١١ سبتمبر، وهى أن أهم استدعاءات هذا الحدث هو عودة المقدس إلى مسرح العلاقات الدولية، وهو ما يتجلى فى الخطاب السياسى الأمريكى الذى صار محملاً بمفردات ذات طابع دينى، وكذلك مشاركة قوى اليمين الدينى فى الحكم لأول مرة فى تاريخ أمريكا.

ينطلق المؤلف من حرب الثلاثين عامًا فى أوروبا (١٦١٨ ـ ١٦٤٨)، والتى شاركت فيها كل دول أوروبا تقريبًا باستثناء روسيا، وقد كانت فى الأصل حرب مصالح، لكنها اكتست غطاء دينيًا (كاثوليكيًا ـ بروتستانتيًا)، والتى انتهت بمعاهدة وستفاليا ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨، والتى رسخت عدة مبادئ أهمها إقرار حق السيادة والمساواة فى العلاقات بين الدول، واختفاء سيطرة الدين باعتباره أساسًا للعلاقات الخارجية.

وبدا الأمر فى أمريكا البازغة مغايرًا بظهور «البوريتانيين» الذين حاولوا تطبيق مبادئهم البروتستانتية فى إنجلترا لكنهم حوربوا واضطهدوا، فراحوا يأملون فى تسييدها فى الأرض الجديدة، وقد طورت عقيدتهم ذاتها لتستجيب إلى حاجة العالم الجديد لمرجعية تحكم حركته الناشئة. ولذا، لم يكن غريبًا أن يولد المجتمع والدين فى لحظة واحدة، وكان الكفاح من أجل الثروة والنجاح هو عنوان الإمبراطورية الجديدة، وتوطدت الصلة بين «البوريتانية» الجديدة وإحراز النجاحات الدنيوية، وصيغت الفكرة الأساسية لهذا المجتمع الناشئ على النحو التالى: «مادام المرء لا يستطيع أن يضمن بعمله الصالح موقعه فى الجنة، لأن هذا مكتوب سلفًا، فالثراء مقابل لأن يكون علامة الاصطفاء الإلهى».

وبدأت أمريكا تتسع داخليًا ـ لا خارجيًا كما أوروبا ـ فبعد أن انفصلت عن بريطانيا عام ١٧٨٣، شرعت فى قتل سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر، وانتهت منهم نهائيًا عام ١٨٩٠، وشرعت فى تحقيق توسعها وانتقاله من الداخل إلى الخارج بفعل قوتها الاقتصادية المتنامية، كانت انعكاسًا واضحًا للمصلحة القومية الأمريكية.

ويشير المؤلف إلى أن أمريكا دخلت الساحة الدولية بمنطق مغاير للحالة الأوروبية، حيث سلكت سلوكًا إمبراطوريًا، والإمبراطوريات ـ كما يقول كيسنجر ـ لا تهتم بأن تدير شئونها فى إطار نظام دولى، فهى تطمح لأن تكون هى ذاتها نظامًا دوليًا، وهكذا حكمت قواعد ثلاث: الدين والقوة والثروة، علاقة الإمبراطورية الجديدة بغيرها من الدول فى إطار المجتمع الدولى. المؤلف يتابع بعد ذلك توجهات السياسة الخارجية الأمريكية وتطبيقاتها على أرض الواقع من بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين، واستراتيجيتها خلال الحرب الباردة، ثم كيف استعادت أمريكا المشروع الإمبراطورى عبر اليمين الأمريكى الصاعد فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى وتداعى النظام الاشتراكى كله، مشيرًا بالذات! إلى وثيقة كونداليزا رايس حول السياسة الخارجية لأمريكا، ومطلاً فى النهاية على الرؤية التوسعية للإمبراطورية الأمريكية فى ثوبها الجديد.. تلك التى لا تحتاج إلى نظام دولى يقنن سلوكها مهما كان منفلتًا.. فلديها منظومة قيم مطلوب أن تفرضها على العالم بوصفها حاملة رسالة الرب.. لأنها كما يقول الرئيس بوش «قيم إلهية».

■

تعيين الكفاءات الأفضل فى الموقع المناسب

ديان روزنبرج

تعريب: مها حسن بحبوح

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢، ٢٨٨ صفحة



تعتبر عملية تعيين أفضل الموظفين فى سوق العمل المعاصرة التى تسيطر عليها روح التنافس، حاسمة، فالأخطاء فى الاختيار قد تكون باهظة الثمن

بالنسبة للشركات التى ترغب فى الحفاظ على ريادتها.

هذا الدليل يبين كيفية القيام بعملية التعيين على نحو دقيق والطرق الخاصة بإجراء مقابلات التوظيف، إنها استراتيجية عملية لإجراء المقابلات وصولاً لأفضل النتائج.

السيطرة على الإعلام

نعوم تشومسكى

تعريب: أميمة عبد اللطيف

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ٦٠ صفحة



تسعة مقالات للمؤلف الذى عرف بمواقفه السياسية المناهضة للاستعمار بأشكاله المختلفة والمؤيدة للديمقراطية والسلام العالميين، إضافة إلى كتاباته فى تخصصه الأصيل كأستاذ للغويات، وفى هذا الكتاب يكشف عن الدور بالغ التأثير للإعلام فى طمس الحقائق، والعمليات الدعائية التى تتجاوز الأثر العملى للوقائع على الأرض.

وعناوين دراساته هى: الإنجازات الهائلة للبروباجندا، ديمقراطية المشاهد، العلاقات العامة، إدارة الرأى العام، ثقافة الانشقاق، استعراض الأعداء، انتقاء التصور، حرب الخليج، الصحفى القادم من المريخ.

الحرب الكونية الثالثة

السيد ياسين

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٣، ٤١٠ صفحات



ثمة إجماع بين الباحثين فى العلاقات الدولية والمراقبين للتحولات العالمية الأخيرة، على أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تمثل قطيعة تاريخية فى مسار النظام العالمى الراهن، وأن عالم ما بعد ١١ سبتمبر ليس هو العالم قبلها، وقد أثبتت التداعيات التى أعقبت هذا الحدث الجلل، صحة ما ذهب إليه المراقبون.

المؤلف، وهو معروف ببحوثه السياسية والاجتماعية المعمقة، يرصد تلك التحولات ويحلل ظواهرها، بادئًا بمقدمة عن حركة النظام الدولى «من الفوضى الطليقة إلى الهيمنة المقننة»، ثم خمسة أقسام يتناول فيها الحدث ذاته (الحادى عشر من سبتمبر)، ويشرح ظاهرة العداء بين الإسلام والغرب، ويحلل كذلك خطاب المثقفين بين تبرير الحرب ومعارضتها، ويؤصل لحوار نقدى حول مشروع خطاب مصرى موجه للمثقفين الأمريكيين، وأخيرًا قسم يختص بأحداث سبتمبر وإرهاصات إمبراطورية أمريكية.

والمسألة الأساسية هنا أن التحولات والتغيرات الكبرى فى تاريخ الإنسانية لا تحدث فجأة، بل تسبقها مقدمات وخبرات متراكمة طويلة تقود فى النهاية إلى الذروة، غير أن ثمة حدثًا بارزًا - أو أحداثًا - تعجِّل ربما بهذا التحول، وهذا بالضبط ما جرى، فقد كانت عملية تفكك كبرى تجرى فى أعقاب انهيار النظم الاشتراكية وتداعى الاتحاد السوفيتى وسقوط نظام القطبية الثنائية الذى حكم العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، عملية التفكك تلك بدأت منذ عام ١٩٨٩، ودخل العالم فيما يسميه المؤلف حالة من الفوضى الطليقة، وشيئًا فشيئًا، وبتداعيات الأحداث وبتخطيط صانعيها، بدأت مرحلة الهيمنة المقننة، بانفراد الولايات المتحدة بزعامة العالم، وفجَّرت أحداث سبتمبر حملة كراهية غير مسبوقة ضد المسلمين والعرب، وبدا أن الفرصة مهيأة لتقنين الهيمنة، وتأكيد التحول الجديد وإبراز الوجه المستحدث لأمريكا التى انتقلت من دور الدولة العظمى الوحيدة إلى دور الإمبراطورية الكونية، وهكذا برز شعار المرحلة الجديدة «من ليس معنا فهو ضدنا»، وتحولت رغبات أمريكا وقراراتها إلى أوامر جاهزة للتنفيذ فورًا دونما حاجة إلى إجماع دولى أو موقف قانونى مدعوم بقرارات من مجلس الأمن والأمم المتحدة، وظواهر هذا التحول بادية للعيان فى حربها ضد العراق برغم كل الاعتراضات من دول كبرى وصديقة فى إطار هذه الفكرة الأساسية تدور أبحاث الكتاب ومقالاته.

من دفتر أحوال الاقتصاد المصرى

محمود عبد الفضيل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٣، ٢١٠ صفحات



قليلة هى الكتب التى تبسّط المعضلات الاقتصادية كى يفهمها القارئ العادى ويتحاور معها كونها ذات تأثير مباشر على حياته اليومية.

وقليلون هم المختصون القادرون على تحويل الأرقام وجداول الموازنات إلى صياغات أدبية راقية تحقق المتعة والفائدة معًا، بين هؤلاء الاقتصادى الراحل رمزى زكى والدكتور جلال أمين ومؤلف هذا الكتاب.

أجندة لويس فيها - أحيانا - ما يفيد!

أين الخطأ؟

برنارد لويس

ترجمة: محمد عنانى

تقديم: رءوف عباس

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٢٦٨ صفحة



منذ صدوره ملأ هذا الكتاب الدنيا وشغل الناس، فمؤلفه واحد من كبار المستشرقين الذين يصنفون فى الغرب بوصفهم «خبراء» فى شئون الإسلام والمسلمين. وهو واحد ممن يعتد بتصوراتهم وأفكارهم عن الإسلام لدى صناع القرار ومخططى الاستراتيجية الغربية، حتى أنه «استدعى» - كما يقول الدكتور رءوف عباس فى تقديمه - إلى واشنطن ٦ مرات منذ حادث البرجين للقاءات سرية مع كبار المسئولين بالبيت الأبيض والبنتاجون.

والكتاب الذى أقبل عليه الناس فى أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر فى محاولة للفهم، لا يتعرض للأحداث، لكنه قريب الصلة بها كونه يفتش فى النسق ويحلل الأفكار التى تقف وراءها.

واستنادًا إلى إحاطة شاملة بكتابات لويس وانتماءاته اليهودية العنصرية ومواقفه العملية إزاء العرب والمسلمين، يرفض الدكتور رءوف عباس - وهو أستاذ تاريخ مرموق - كثيرًا من أفكار لويس ويدحضها علميًا، وبينها أنه يتعامل مع الإسلام والمجتمعات الإسلامية ككتلة واحدة، فلا يرى فيها سوى تركيا والدولة العثمانية، غاضًا البصر عن تمايزات وفروقات مهمة فى المجتمعات الإسلامية على اتساع رقعتها الجغرافية، ومنها اعتبار الإسلام دينًا يرفض الآخرين ويعاديهم ولا يقبلهم إلا عبيدًا لا يستحقون المواطنة، وإجمالاً يرى لويس الإسلام والمسلمين محكومًا بمركزية أوروبية وصهيونية مقيتة تحكم رؤاه وتتحكم فى آرائه.

غير أن ما يلفت فى هذا الكتاب، أن أكثر انتقادات الدكتور عباس فى غير موضعها، وأظن أن معرفته بكتابات المؤلف السابقة طغت على قراءته للكتاب مستقلاً عن سوابقه، فاستنطقه بما ليس فيه.

مثلاً يرى الدكتور عباس أن لويس اختزل الإسلام فى الإمبراطورية العثمانية كى يقدمه للغرب بوصفه خطرًا يهدد وجوده، وأن الخطأ هو فى الإسلام ذاته الذى يرفض الآخرين ويمقتهم، فيما يرفض لويس هذه المقولة ويؤكد على أن أصحاب الديانات الأخرى عوملوا فى ديار المسلمين بأفضل مما عوملت به الأقليات الأخرى فى الغرب.

وفيما يؤكد الدكتور عباس أن لويس يحقِّر الإسلام كعقيدة ويعده سببًا فى تخلف المسلمين، نجد لويس يقر بأن ذلك لو كان صحيحًا ما حقق المسلمون فى الماضى إنجازات فى كافة المجالات وأقاموا إمبراطوريتهم التى أضاءت ظلام العصور الوسطى فى أوروبا. وبدلاً من السؤال: ماذا فعل الإسلام بالمسلمين؟ يطرح لويس السؤال بطريقة مغايرة: ماذا فعل المسلمون بالإسلام؟

وبشكل عام، فإن «الأجندة» التى يقدمها برنارد لويس فيها الكثير مما يردده عقلاؤنا، فالرجل يشير إلى جناية غياب الحرية، ويعدها سببًا لكثير من متاعبنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهل منَّا من يجادل فى أن غياب الحرية سبب ما آلت إليه أحوالنا؟

والرجل يدعونا إلى التوقف عن إلقاء تبعات تخلفنا على الغير، سواء كان هذا الغير استعمارًا غربيًا أو صهيونيًا أو أمريكيًا، وأظننى معه، فما جرى قد جرى ولن يفيد كثيرًا البحث عن الجانى، بقدر ما سيجدى اكتشاف طرائق لتصحيح الخطأ، وهو يحذرنا من الاستمرار فى هذا الطريق الذى تجرنا إليه الحكومات المستبدة، كونه يغض الطرف عن طغيانها وانعدام فعاليتها ويحيل النظر إلى الآخرين.

ينصحنا لويس نصًا: «إذا استطاعت هذه الشعوب أن تطرح إحساسها بالظلم وبأنها ضحية، وأن تسوى خلافاتها، وتعمل على تكاتف طاقاتها ومواهبها ومواردها لتحقيق أهداف إبداعية مشتركة، فسوف تعيد الشرق الأوسط إلى ما كان عليه، مركزًا رئيسيًا للحضارة».

هذا بعض ما يرد فى «روشتة» برنارد لويس، وفيه مكاشفة جارحة لكنها صحيحة ولا يجوز ردها.

يقول العزيز الحكيم «.. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

وجاء فى الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها».

عماد الغزالى

يغوص الدكتور عبد الفضيل في بحر الاقتصاد المصري ويجابه أمواجه المتلاطمة خصوصًا تلك الحقبة الممتدة منذ أواسط السبعينيات وحتى اليوم، والتي أفرزت ما اصطلح على تعريفه بمرحلة الانفتاح الاقتصادي، وفيها انتقلت مصر من نظام اقتصادي مغلق إلى نظام مفتوح يحاكي اقتصاديات السوق. وهو يبدأ بنقد التصور القائل بضرورة انسحاب الدولة نهائيًا من لعبة الاقتصاد، وتخليها عن ممارسة أي دور كي تفسح المجال لقوانين العرض والطلب دون تدخل منها، ويرى أن هذه أكذوبة لا تقيم اقتصاد سوق وإنما مافيات سوق، كما جرى في الاتحاد السوفيتي بعد تفككه. كما أن تطبيق اقتصاد السوق على هذا النحو تلزمه هياكل ومؤسسات اقتصادية ومالية راسخة، وتطور تاريخي يضع الأمور في نصابها الصحيح. أما في المراحل الأولى، التي تطمح فيها الدولة إلى تحقيق تنمية حقيقية، فإن دورها كمحفز أو مرشد استراتيجي لا غنى عنه، كي لا تتحول الأمور إلى فوضى.

وفي سياق آخر يشير المؤلف إلى خريطة توزيع الدخل بوصفها مؤشرًا دالًا على تنمية حقيقية، ويرى أن في مصر ثلاث فئات يتوزع بينها الدخل على النحو التالي: محظوظي الدخل وهؤلاء في القمة ويحصلون على نحو ٢٠٪ من الدخل القومي في مصر، ثم ٣٠٪ يعيشون على الكفاف ويلامسون خط الفقر وهؤلاء هم معدومو الدخل، ثم هناك ٥٠٪ يعيشون مستورين بالكاد، وهؤلاء ثم من يطلق عليهم محدودي الدخل.

وينبه إلى خطورة ما بات يعرف بالاقتصاد المغفل أو الموازي، وهو نمط لا يدخل في حسابات الأرقام الرسمية وموازنات الدولة، لكنه بالغ الأهمية والتأثير وكبير الحجم إلى درجة لا يجوز معها تجاهله، فضلًا عن أنه يكتسب في كل يوم أعدادًا جديدة من العاطلين عن العمل والباحثين عن فرص للرزق، وفي هذا الإطار ثمة أطياف من «اقتصاد رمادي»، يغطي أنشطة اقتصادية غير رسمية لكنها أيضًا غير مجرمة، ثم هناك الاقتصاد الأسود وهو يشمل الأنشطة غير المشروعة المجرمة قانونًا كالاتجار في المخدرات، ويمثل هذا النوع من الاقتصاد غير الرسمي بنوعيه بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من حجم النشاط الاقتصادي الكلي.

وثمة نظرة غير تقليدية يلفت إليها المؤلف تتصل بالمعايير المقترحة لقياس مستويات الدخول، لا تتوقف عند مايجمعه الفرد من نقود خلال مدى زمني معين، وإنما تمتد إلى مصادرة وقت الفراغ بوصفها تبديدًا للإحساس بالمتعة والترفيه، وافتئاتًا على حقوق الإنسان المعنوية والإنسانية.

وينتقد موقف الدولة التي سعت إلى تحقيق فوائض في موازناتها على حساب عجز متنامٍ في موازنات الأفراد، الذين أرهقوا بالضرائب المتلاحقة، وبفقر في الخدمات التي يفترض أنها مجانية، ففيما تقر الدولة نحو ١٥ مليار جنيه مصري للإنفاق على التعليم، ينفق المصريون من ١٢ إلى ١٥ مليار جنيه على الدروس الخصوصية للتعليم في كافة مراحله.

هذه عينة من الموضوعات التي يتناولها المؤلف، والتي يمتزج فيها السياسي بالاقتصادي بالاجتماعي في تكامل واتساق، كاشفة عن خريطة المجتمع المصري في السنوات العشر الأخيرة.

■

الإسلام وتطوير الخطاب الديني

إشراف: د. جعفر عبد السلام

القاهرة: رابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠٢، ٢٠٦ صفحات



يضم الكتاب أعمال ندوة عقدت بجامعة قناة السويس في عام ٢٠٠٢ في إطار سلسلة فكر المواجهة، والمخصصة لمواجهة الحملة الشرسة ضد الإسلام والمسلمين، وتتضمن الأوراق التي قدمت للندوة عناوين مهمة منها: لماذا الدعوة إلى خطاب إسلامي معاصر، وجهة نظر في تطوير الخطاب الديني، خصائص الإعلام الإسلامي في القرن الحادي والعشرين، الخطاب الإسلامي ودوره في تأكيد براءة الإسلام من الإرهاب، المستجدات في خطاب وأسلوب عمل الحركات الإسلامية المعاصرة.

شارك فيها عدد كبير من الباحثين والمختصين.

■

بدائل المضادات الحيوية

جو ماك كينًا

تعريب: د. ياسر العيتي

الرياض: العبيكان، ٢٠٠٢، ٢٧٠ صفحة



اعتبر اكتشاف المضادات الحيوية في الأربعينيات اختراقًا في علاج الإنتانات الجرثومية، مما أكسبها صفة الدواء المعجزة؛ فأصبحت منذ ذلك الوقت أكثر الأدوية التي توصف للمعالجة في العالم. لكن الدراسات تشير اليوم إلى أن الاستخدام الواسع للمضادات الحيوية يسبب المزيد من المشكلات مع نشوء جراثيم مقاومة أو «خارقة» كما يُشار إليها، وقد أعطت منظمة الصحة العالمية تحذيرًا شديد اللهجة من الأخطار الناجمة عن الإفراط في استخدام المضادات الحيوية. ومع ازدياد التنبه إلى هذه المسألة بدأ الناس يبحثون عن بدائل المضادات الحيوية لهم ولأبنائهم.

إن الدكتور ماك كينا غطى في كتابه هذه البدائل بلغة بسيطة بعيدة عن المصطلحات العلمية. لقد قارن بين العلاج التقليدي وبين البدائل وبين مساوئ كلٍ منهما ومحاسنه. وقد أظهر بوضوح، عن طريق البحث في العلاج بالأعشاب والعلاج المثلي والعلاج بالغذاء أن علاج الإنتانات دون مضادات حيوية ممكن، ولكنه بيَّن أيضًا متى يُحتاج إلى المضادات الحيوية.

■

السياسة أقوى من الحداثة

دلال البزري

القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ٢٩٨ صفحة



ما أن انتهيت من قراءة الحكايات الواردة بهذا الكتاب «١٨ حكاية»، حتى وجدتني أتساءل: ما علاقة هذا كله بالحداثة؟

لكن المؤلفة بددت حيرتي حين قالت في أول سطور خاتمتها: كانت الحداثة في هذه القصص وصراعها مع التقليد أضعف الديناميكيات، وأقواها كانت العائلة والسياسة.

فالعائلة هي مجال التقاء أصحاب القصص مع أقرانهم من الناس، ولا تنافسها سوى السياسة، وبين العينة أربعة أشخاص معنيون بالسياسة، أحدهم تنقل من الاتحاد الاشتراكي إلى الحزب الوطني الحاكم إلى حزب الوفد المعارض، وهو يقرر أنه لم يشعر بفروق كبيرة في تنقلاته تلك: «هنا ديكتاتورية في إدارة الحزب، وهناك ديكتاتورية في إدارة الحزب»، وهو في كل الأحوال يستكمل بانتمائه إلى أيٍ من هذه الأحزاب الوجاهة الاجتماعية التي يتطلبها صعوده في محيط قريته.

والآخر شاب ناصري يرى أن الأحزاب جميعها أنانية لا تخدم أهدافًا حقيقية، وثالث تنقل بين تيارات الإخوان المسلمين والناصري والماركسي، وانتهى إلى حزب العمل المعارض.. «انضممت إليه نتيجة ضغط أصدقائي ومجاملة لهم، كانوا يقولون إن الحزب فرصة لنكون مع بعض ومكان نتقابل فيه بدل ما نقعد على قهوة أو بار».

ورابعهم بدأ إخوانيًا ثم ناصريًا، وانتهى مشتغلًا بالشأن العام دون التزام سياسي، عبر مشاركاته في جمعيات أهلية من نوع الجمعية الخيرية، التي رأى أنها نوع من النشاط الذي يخدم فيه الغير دون أن يكون مضطرًا للالتزام بسياسة حزب معين.

وإلى جانب العائلة والأحزاب السياسية فإن ثمة تأثيرًا للعهود السياسية وتقلباتها، وهي في مصر حادة وانعطافية في آن معًا، وقد كان تأثيرها على الناس بالحدة ذاتها، وربما كانت حقبة الانفتاح والهجرة إلى النفط هي الأكثر تأثيرًا على الناس في العقود الثلاثة الأخيرة كما تبين من حكايات العينة الثماني عشرة، ولا يكاد بيت مصري واحد يخلو من آثارها سلبًا أو إيجابًا، فقد فتحت الهجرة إلى الخليج أبواب الأمل أمام كثيرين ممن أحرقوا بنار البطالة، وساهمت في تحقيق الخلاص على المستوى الفردي لكثير من المصريين، لكنها غرست قيمًا جديدة تركت انعكاساتها على حياة الناس على مستوى العائلة والمجتمع.

وتشير المؤلفة إلى أوجه من الحداثة تأثر بها أصحاب الحكايات كل حسب حالته وهي: حداثة موروثة، حداثة انقلابية، حداثة آتية من بلاد التقليد، حداثة متعايشة مع التقليد، حداثة جزئية، حداثة تعرض لها تقليد خارجي، حداثة يخدمها التقليد، حداثة تم تجاهلها، حداثة كملاذ من الأزمات أو تفسير لها.

الحداثة كما وردت في هذه الحكايات، والتي كان أبطالها مختلفين ومتمايزين، أحيانًا إلى حد التناقض، تخضع للمعطيات السياسية والاجتماعية التي توفرها العهود التي تسبح الحداثة في محيطها، لهذا بدت السياسة أقوى من الحداثة.

■

حمل بلا متاعب

ماجدة حلمي

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ١٥٧ صفحة



خمسون عامًا هي كل عمر علم متابعة الحمل، قبل هذا التاريخ كانت معدلات الوفيات في الحمل والولادة عالية جدًا، وما تقدمه المؤلفة هنا ليس بديلًا عن متابعة الحمل وإنما للمساعدة على استيعاب توصيات الطبيب المتابع، ومتابعة الحياة بصورة جيدة أثناء الحمل، وكي لا تصبح فترة الحمل شاقة مرهقة بالنسبة للمرأة وجنينها.

يضم الكتاب تسعة أبواب تبدأ من رعاية الأم لطفلها وهو في الرحم وحتى الولادة مرورًا بالمتاعب الصحية التي تواجهها المرأة أثناء الحمل ونمو الطفل أثناء الحمل ومتاعب الحمل الطبيعي والتغييرات الفسيولوجية التي تطرأ على الأم الحامل والتشوهات الجنينية والخلقية وكيفية تلافيها.

■

Egyptology at he Dawn of the twenty - first Century

(علم المصريات فى فجر القرن العشرين)

Edited by Zahi Hawass (3 vols)

Auc press, LE. 150 (Each Volume)



يتكون هذا الكتاب من ٣ أجزاء وهو يضم الأبحاث والأوراق المقدمة للمؤتمر الدولى الثامن لعلماء المصريات الذى انعقد فى القاهرة عام ٢٠٠٠ ويحتوى الكتاب الذى حرره الدكتور زاهى حواس أمين المجلس الأعلى للآثار فى مصر على مجموعة متنوعة لأبحاث علماء المصريات تتناول شتى نواحى علم المصريات الذى أصبح يدرس يتم تدريسه فى كل جامعات العالم تقريبًا ويحتوى الكتاب على مراجع عديدة ومتنوعة ويضم بين دفتيه صورًا وخرائط معظمها يتم نشره للمرة الأولى. وكل جزء من أجزاء هذا الكتاب يباع بشكل منفصل.

■

Music is the Weapon of the Future: Fifty Years of African Popular Music

(الموسيقى هى سلاح المستقبل)

Frank Tenaille

Translate: Hope Sandrine

Chicago Review Press, 2002, 320PP, $18.95



فى هذا الكتاب يقدم الصحفى الفرنسى فرانك تيناى المتخصص فى الموسيقى العالمية ثلاثين نجمًا من نجوم الموسيقى الشعبية الأفريقية، من غرب أفريقيا ووسطها إلى شرقها وجنوبها.. ويتناول فرانك تيناى كل نجم باستعراض حياته المهنية والشخصية، والخلفية السياسية والاجتماعية التى ظهرت فيها موسيقاه. بل ويبين الكتاب كيف أن الموسيقى فى كثير من الأحيان كانت عاملاً من عوامل التمرد السياسى والنقد الاجتماعى، وجزءًا من الحركات السياسية المعارضة للاستعمار أو العبودية أو الحكم الديكتاتورى.

يضم الكتاب النجوم الذين ظهروا فى الخمسين عامًا الماضية، ومنهم من أصبح له شهرة عالمية مثل يوسو دونور من السنغال، وفيلاكوتى من نيجيريا.. ويعد الأخير من أبرز المؤثرين فى الأجيال النيجيرية الشابة، وتعتبر موسيقاه مسيسة إلى حد كبير، وهو صاحب مقولة أن «الموسيقى هى سلاح المستقبل» قبل أن يموت عام ١٩٩٧ بسبب الإيدز.

الكتاب لا يهتم فقط بالتأثير السياسى والاجتماعى للموسيقى الأفريقية الجديدة وإنما يحلل شكل الموسيقى نفسها وتنوعها ومزجها بين القديم والحديث فى قوالب تغزو العالم كله مثل الجاز والفانك والصول والراب.

■

Not Quite one of us.. The Past and Future of Michael Portillo

(ليس واحدًا منا تمامًا.. ماضى ومستقبل مايكل بورتيللو)

Timothy O'sullivan

Quartet, 2003, £20.00

بطل هذا الكتاب هو مايكل بورتيللو أحد زعماء حزب المحافظين البريطانى المعارض ووزير الدفاع السابق وهو شخص مثير للجدل بشكل كبير ومحط اهتمام غير عادى من جانب وسائل الإعلام البريطانية منذ بداية التسعينيات من القرن الماضى، فقد كانت كل التوقعات تنبئ بأنه سيكون زعيمًا للمحافظين ورئيسًا لوزراء بريطانيا، لكن تسرعه الشديد وتعاليه الواضح وتطرفه فى موقفه من أوروبا أفقده مقعده البرلمانى فى انتخابات أول مايو ١٩٩٧ التى أخرجت المحافظين عن الحكم وأتت بالعمال للمرة الأولى منذ ١٨ عامًا.

وكان على بورتيللو، وهو من أصل أسبانى هاجر أبوه إلى بريطانيا خلال الحرب الأهلية الأسبانية، أن ينتظر عدة سنوات ليخلو له مقعد برلمانى ويعود لمجلس العموم عن دائرة تشيلسى فى لندن، لكن بورتيللو الذى كان نجم التيار اليمينى فى حزب المحافظين تخلى عن بعض أفكاره بعد فشله فى انتخابات ١٩٩٧، ولذلك ابتعد عنه كثير، ولذلك لم يتمكن من الفوز بزعامة الحزب بعد استقالة وليام هيج من زعامة الحزب عقب الهزيمة فى الانتخابات البرلمانية البريطانية الأخيرة وفاز بالزعامة نائب يمينى متشدد هو إيان دنكان سميث. لكن ضعف أداء سميث جعل بورتيللو يشن هجومًا حادًا عليه فى محاولة لزعزعة موقفه. ويتحدث الكتاب عن فرص بورتيللو فى زعامة المحافظين ويشير إلى أن هناك من يعتقد أن الفرصة لازالت سانحة بينما يؤكد كثيرون أن بورتيللو لن يكون زعيمًا للمحافظين ولن يصبح رئيسًا لوزراء بريطانيا على الإطلاق فقد مضى زمنه منذ سنوات.

■

هل خرجت الجزائر من بحيرة التطرف؟

The Battlefield.. Algeria 1988-2002

(ميدان القتال.. الجزائر ١٩٨٨- ٢٠٠٢)

Hugh Roberts

Verso, 2003, £ 17.00



احتل الجزائريون خلال الأسابيع القليلة الماضية واجهة الأحداث فى الغرب، لكن للأسف لأسباب خاطئة، فقد عثرت الشرطة البريطانية على كميات من غاز قاتل مع جزائريين مقيمين فى لندن، ثم طعن جزائرى ضابط بوليس بريطانيًا طعنة قاتلة فى مانشستر. وهذان الحادثان انعكاس للوضع الذى عاشته الجزائر خلال الأعوام الأحد عشر الماضية، فقد عانت البلاد من واحد من أكثر الصراعات وحشية فى العالم، ونتيجة لمعركة طاحنة بين الجيش والمتطرفين غرقت الجزائر فى بحيرة امتلأت بدماء ١٢٠ ألف شخص معظمهم من الأبرياء بالإضافة إلى حوادث اغتصاب وتيتيم أطفال وغيرها.

ويأتى نشر هذا الكتاب «ميدان قتال.. الجزائر ١٩٨٨ - ٢٠٠٢» فى توقيت مناسب، فالمؤلف هيو روبرتس الخبير فى الشئون الجزائرية يرى أن تحليل العرب التبسيطى للعلمانية فى مواجهة الأصولية هو المسئول عن تغذية الأزمة الجزائرية والإبطاء فى حلها.

إن السياسيين الفرنسيين فرضوا رؤيتهم الخيالية للعلمانية على الجزائر خلال فترة استعمارها، واعتبر اليساريون الأوروبيون نضال الجزائر ضد الإمبراطورية الفرنسية بطوليًا، لكنهم سرعان ما فقدوا الاهتمام بهذا البلد، كما أن علماء الإنثربولوجيا أساءوا قراءة تركيبة الجزائر العرقية. ومن جانبهم اعتقد الحتميون الاقتصاديون أن امتلاك الجزائر للمال يمكن أن يحل كل شيء.

لكن ذلك لا يعنى تبرئة الجزائريين أنفسهم، فالمؤلف يلقى باللوم عليهم لأنهم انقسموا شيعًا وطوائف من الانفصاليين البربر والعلمانيين غير المستعدين لحلول وسط والإسلاميين الذين يعتقدون أن الحق معهم إلى العروبيين القوميين. الأسوأ من كل ذلك هو أوليجاركية التكنوقراط - العسكر التى حكمت البلاد.

إن هناك نقاشًا كثيرًا حول الإلغاء المفاجئ من جانب الجيش للنصر الذى حققته الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى انتخابات عام ١٩٩١، فقد رحب معسكر بما اعتبره إنقاذًا للبلاد من الأصوليين المتطرفين والبعض الآخر اتهم الجيش بإلغاء إرادة الناخبين.

الواقع، كما يقول روبرت، يقع فى وسط هذين الرأيين. إن جبهة الإنقاذ ترى نفسها وارثًا طبيعيًا لجبهة التحرير الوطنية، وليس عدوًا لها، كما أنها - أى جبهة الإنقاذ - أبعد ما تكون عن الحكم الثيوقراطى الدينى فهى تدعم التحرير الاقتصادى، لكن الرئيس الشاذلى بن جديد رئيس البلاد فى ذلك الوقت اتهم الجبهتين بإغراق البلاد فى دوامة عدم الاستقرار، وبالطبع القضاء على مستقبله السياسى.

إن دراسة الأعوام المائة والثلاثين من الاستعمار الفرنسى للجزائر مهمة للجزائر لتفسير الأوضاع حاليًا، فقد وقعت خلال تلك الفترة الطويلة أحداث جسام بلغت الذروة بمقتل أكثر من مليون جزائرى خلال حرب الاستقلال، ويتهم المؤلف فى الوقت نفسه النظام الذى حكم البلاد بعد ذلك بإزاحة القانون جانبًا وفرض حكم شمولى.

مؤلف الكتاب يبدو متفائلاً إلى حد ما بأن الجزائر بدأت تجد مخرجًا، فعلى الأقل هناك معارضة ظهرت بعد انتخابات مايو ٢٠٠٢، وهناك بعض الاعتدال فى المواقف. إن الجزائر مازالت فى حاجة إلى إعادة تأسيس نفسها دون تدخل خارجى.

لورانس جوفى

عن الإندبندنت البريطانية

مارس ٢٠٠٢

Breathless to Casablanca

(منقطع الأنفاس إلى الدار البيضاء)

James Douglas
Tracey Evans
Welcome Rain, 2003, 448PP., $15.00



صدرت هذه الرواية أول مرة في ألمانيا في شهر سبتمبر من عام ٢٠٠٠، وبعد عام بالضبط كان المؤلف السويسري جايمز دوجلاس صاحب الرواية يشغل عناوين الصحف في ألمانيا والنمسا وسويسرا. في روايته التي تدور في عالم الجاسوسية الإجرام والمكتوبة باللغة الألمانية تبدو وكأنها نبوءة مبكرة لما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. بل إن عملاء من جهاز الإف بي آي الأمريكي قاموا بالاتصال بالمؤلف بعد حدوث الهجمات بعدة أيام بسبب هذا التشابه المذهل بين أحداث الرواية وبين هجمات سبتمبر.

تدور الرواية حول محاولة زعيم إرهابي يرتبط بمنظمة القاعدة يدعى يوسف بن جولام إغراق حاملة الطائرات الأمريكية «روزفلت» في مضيق جبل طارق. وفي محاولة منه لتحويل الانتباه عن هذه العملية يقوم جولام بتفجير مبنى تجاري وإداري في نيويورك، وبالتحديد في حي مانهاتن حيث يوجد مكتب لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

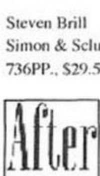
ويتصدى روائي سويسري في الرواية يدعى بولنسكي للإرهابي الخطير يوسف بن جولام بعد سلسلة من الأحداث تتضمن اختطاف طائرة أمريكية محملة بشخصيات أمريكية مهمة.

■

After: How America Confronted the September 12 Era

(ما بعد: كيف واجهت أمريكا عصر ١٢ سبتمبر)

Steven Brill
Simon & Schuisher, 2003, 736PP., $29.59



يكتب الصحفي الأمريكي ستيفن بريل عما يسميه عصر ١٢ سبتمبر، أي التغير الذي حدث في أمريكا والذي أدخلها في عصر جديد، لا بسبب الأحداث التي وقعت في ١١ سبتمبر، وإنما بسبب ردود الفعل الأمريكية منذ اليوم التالي.

يتخذ الكتاب الضخم الذي يقع في أكثر من سبعمائة صفحة شكل السجل اليومي، فهو يتناول مجموعة منتقاة من الشخصيات الحقيقية التي تمثل قطاعات متخلفة من المجتمع الأمريكي ليرصد رد الفعل لديها وكيف تأثرت بالأحداث وأثرت في الواقع الجديد لأمريكا.

من ضمن هذه الشخصيات، يوجد: الضحايا والأبطال وكذلك المستفيدون والمستثمرون للأزمة، مثل شركات بيع أجهزة التنصت والمراقبة.

ويتناول بريل شخصيات عادية كما يتناول شخصيات سياسية مثل جون أشكروفت. وهو يبين مقدار الظلم الذي تعرض له كثير من العرب والمسلمين بعد الأحداث على يد السلطات الأمريكية بتفاصيل مخيفة.

■

Harvard and the Unabomber: The Education of an American Terrorist

(هارفارد والأونابومر: التعليم الذي تلقاه إرهابي أمريكي)

Alston Chase
Norton, 2003, 352PP., $26.95



«أونابومر» هو الاسم الذي أطلقته الصحافة على الإرهابي الأمريكي تيد كازنسكي الذي أدى الكشف عنه والقبض عليه في عام ١٩٩٦ إلى هزة في المجتمع الأمريكي.

فقد قام هذا الأمريكي الأبيض خريج جامعة هارفارد بإرسال ١٦ رسالة ملغمة بالقنابل من سنة ١٩٧٨ وحتى سنة ١٩٩٥، أسفرت عن مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة ٢٩ شخصًا. هذا الكتاب يلقي الضوء مرة أخرى على هذا الإرهابي لا باعتباره مضطربًا عقليًا أو نفسيًا كما فعلت وسائل الإعلام الأمريكية، ولكن باعتباره نموذجًا لقطاع كبير من الشباب الأمريكي المثقف. فقد كان كازنسكي بارعًا في دراسته للرياضيات وقد قام بعملياته الإرهابية بدافع من مواقفه الناقدة للمجتمع الصناعي الحديث، حتى أنه كتب مانيفستو يشرح فيه أفكاره. لهذا كانت رسائله المفخخة موجهة بالأساس للجامعات الأمريكية.

يلقي مؤلف هذا الكتاب ضوءًا مختلفًا على هذه القضية، فهو مثل الإرهابي كازنسكي متخرج من جامعة هارفارد الشهيرة، وهو يرى أن كازنسكي ضحية عصر الحرب الباردة وتأثيرها على المناهج والمقررات الدراسية. فقد رسخت هذه المناهج من وجهة نظره لأفكار مثل النسبية الأخلاقية والنسبية الثقافية، وأن المجتمع الديمقراطي ومؤسساته ما هو إلا مجموعة من علاقات القوة التي تخلو من أية قيم. وهو يرى أن الجامعات بهذا الشكل أصبحت تقوم بوظيفة التخديم على العقدة الصناعية - العسكرية التي تحكم السياسة الخارجية الأمريكية.

■

A Travelers Guide to the Geology of Egypt

(دليل السائح إلى جيولوجيا مصر)

Bonnie M.Sampsell
Auc press, LE. 70, 2003



يصف هذا الكتاب وادي النيل في مصر وكذلك الدلتا والصحاري والجبال وعلاوة على ذلك، فإنه يقدم دليلاً للسائح، المهتم بالتعرف عن قرب على مصر، عن تاريخها من منظور مختلف. وهو يحتوي على مقدمة حول المفاهيم الجيولوجية الخاصة بمصر ويقدم أمثلة توضح كيف أثرت جيولوجية مصر على حضارتها.

كما يضم مجموعة من الخرائط والرسوم التوضيحية والصور التي تساعدها جميعها على تكوين رؤية متكاملة حول جيولوجية مصر. وعدد الرسوم التوضيحية ٧٤، منها ٣٦ ملونة.

■

The Dust of Empire: The Race for Mastery in the Asian Heartland

(غبار الإمبراطورية: سباق السيادة في قلب آسيا)

Karl E. Meyer
Public Affairs, 2003, 256PP., $26



المؤلف هو رئيس تحرير مجلة «وورلد بوليسي جورنال»، كما أنه عضو مجلس تحرير صحيفة «نيويورك تايمز» منذ مدة طويلة. يكتب كارل مايير عن عدة دول من بلدان شرق ووسط وجنوب آسيا، وهي الدول التي لها أهمية خاصة بالنسبة للولايات المتحدة في هذه اللحظة. وهو يوجه نصائح لصناع السياسة الخارجية الأمريكية في كيفية التعامل مع هذه البلدان على المدى الطويل للفوز في الحرب المعلنة ضد الإرهاب. هذه البلدان هي أفغانستان الوسطى وإيران وباكستان والجمهوريات الخمس الوسطى إلى جانب بحر قزوين والقوقاز. يركز الكتاب أيضًا على روسيا وعلى مستقبل المنطقة الذي ستلونه خطوط أنابيب البترول وقضايا حقوق الإنسان!

■

The Code of the Warrior: Exploring Warrior Values Past and Present

(دستور المحارب: استكشاف في قيم المحاربين في الماضي والحاضر)

Shannon E. French
Rowman & Littlefield, 2003, 304PP. $24.95



يستعرض هذا الكتاب الأخلاق التي حكمت المحاربين عبر التاريخ. فالمؤلفة تعتقد أن المحارب في حاجة إلى إطار أخلاقي لكي يحافظ على إنسانيته ويكون أكثر كفاءة في القتال وينقذ روحه من الضياع. وهي تحاول في كتابها اكتشاف هذه الأطر الأخلاقية التي وضعتها الثقافات والحضارات المختلفة لمحاربيها وجنودها.

وهي تستخدم الأدب في دراستها إلى جانب الدراسات التاريخية، حيث تجد جزءًا من مادتها في الإلياذة على سبيل المثال. يتناول الكتاب أخلاق المحاربين عند اليونان والرومان وقبائل الفايكنج وكذلك فرسان المائدة المستديرة ومقاتلي الساموراي في اليابان والكونج فو في الصين.

■

The Monuments of Egypt and Nubia

(آثار مصر والنوبة)

Ippolito Rosellini
Auc press, LE. 100, 2003



مؤلف هذا الكتاب روسوليني ولد في إيطاليا عام ١٨٠٠ ودرس آثار مصر

وساهم فى فك شفرة اللغة الهيروغليفية، وفوق ذلك كله فإن إسهامه الأكبر لعلم المصريات يتمثل فى هذا الكتاب «آثار مصر والنوبة». ويعد المؤلف من الجيل الأول لعلماء المصريات الغربيين الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر، وعقب رحلة طويلة قام بها لمصر مع مجموعة من الباحثين الآخرين، يقدم المؤلف إسهامًا فريدًا للتعريف بالآثار المصرية القديمة. ويضم الكتاب ١٢٠ رسمًا توضيحيًا.

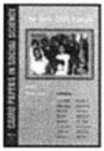
■

The New Arab Family - Cairo Papers

(الأسرة العربية الجديدة)

Edited by Nicholas s. Hopkins

Auc press, LE. 15, 2003



هذا الكتاب هو طبعة منقحة لمجموعة من الأوراق مقدمة لمنتدى القاهرة السنوى التاسع الذى انعقد فى مايو ٢٠٠٠. وتركزت الأبحاث المقدمة فى هذا المؤتمر على الزواج والطلاق والموضوعات ذات الصلة وبشكل خاص النواحى السكانية أو الديموجرافية.

ويغطى الكتاب معظم دول العالم العربى لكنه يركز بشكل خاص على مصر، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأوراق تقدم أبحاثًا عامة حول موضوع السكان من مناطق مختلفة فى العالم العربى.

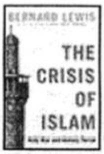
■

The Crisis of Islam: Holy War & Unholy Terror

(أزمة الإسلام: حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس)

Bernard Lewis

Modern Library, 2003, 144PP., $19.95



أحدث ما كتبه المستشرق برنارد لويس بعد كتابه الذى نشر فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر. هذا الكتاب صدر الشهر الماضى وهو يعد نسخة مطولة من مقال نشر للمؤلف فى مجلة «نيويوركر»، وهو لا يعالج أحداثًا جديدة وإنما يتناول ما يراه جذور عداء المسلمين للغرب منذ الحملات الصليبية وخلال الاحتلال الأوروبى وحتى صعود الولايات المتحدة كقوة إمبريالية فى المنطقة منذ مرحلة الحرب الباردة.

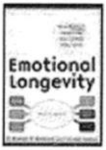
■

Emotional Longevity: What Really Determines How Long you Live

(طول العمر العاطفى: ما يحدد فعلاً كم من العمر تعيش)

Norman Arderson

Viking, 2003, 318PP., $24.95



المؤلف هو رئيس جمعية الأطباء النفسيين الأمريكية، وهو يعتقد أنه آن الأوان لتبنى رؤية جديدة للصحة والطب من أجل فهم ظاهرة طول العمر أو التعمير.

فبدلاً من الرؤية التقليدية للصحة البدنية يقول أندرسون إن التفاعل بين ستة عوامل هو الذى يفسر الاختلافات فى طول عمر البشر. هذه العوامل هى البيولوجية والنفسية والسلوكية والاقتصادية والدينية/الروحية والعاطفية. فالمؤلف مصمم على أنه يجب أن يكون هناك سبب علمى يفسر شفاء بعض الأشخاص من الأمراض المستعصية مثل الأزمات القلبية بينما يظل أشخاص آخرون تحت وطأة المرض.

■

Jefferson's Great Gamble: The Remarkable Story of Jefferson, Napoleon and the Men Behind the Louisiana Purchase

(مقامرة جيفرسون الكبرى: القصة الخارقة لجيفرسون ونابليون وصفقة شراء ولاية لويزيانا)

Charles Cerami

Sourcebooks, 2003, 320PP., $22.95



صدر هذا الكتاب ليواكب ذكرى مرور مائتى عام على صفقة شراء ولاية لويزيانا الأمريكية. اشترك فى هذه الصفقة عدد من الشخصيات السياسية الأمريكية مثل جيفرسون وماديسون ومونرو، استطاعوا أن يخدعوا نابليون بونابرت بألعاب دبلوماسية استمرت ثلاثين شهرًا.

فقبل هذه الصفقة بعامين كانت الولايات المتحدة وفرنسا على وشك الاشتباك فى حرب من أجل ميناء نيو أورليانز، وكان توماس جيفرسون الذى رأس الولايات المتحدة عام ١٨٠١ على وعى بأن مستقبل الولايات المتحدة يقع فى هذه الولاية التى تمر بها الملاحة فى نهر المسيسبى وتصب فى ميناء نيو أورليانز. ثم اكتشف جيفرسون أن بونابرت اقنع أسبانيا سرًا بالتخلى عن لويزيانا لصالح فرنسا وأنه قد أرسل جيوشه للاستحواذ على الميناء. كان الحل الوحيد أمام جيفرسون هو المقامرة؛ أى إقناع نابليون بأن الولايات المتحدة مستعدة للدخول فى حرب من أجل هذا الميناء وهو يعلم أنه ليس فى جيشه أكثر من ألف جندى. ومع ذلك فقد قام بخداع نابليون وجعله يصدق أن الولايات المتحدة تستطيع أن تنتصر فى تلك الحرب.

■

Leap of Faith: Memoirs of an Unexpected Life

(قفزة إيمان: مذكرات حياة غير متوقعة)

Queen Noor Al Hussein of Jordan

Miramax, 2003, 467PP., $25.95



مذكرات الملكة نور، آخر زوجات ملك الأردن الراحل، الملك حسين. تحكى الملكة نور فى البداية عن نشأتها فى الولايات المتحدة، حيث ولدت «ليسا حلبى» لأسرة أمريكية ثرية من أصل عربى مسيحى.

وكانت «ليسا» قد أنهت دراستها فى برنستون وبدأت عملها فى مجال التخطيط العمرانى عندما التقت بالملك حسين حيث كانت تربطه علاقات عمل مع والدها الذى يعمل فى مجال الطيران. كانت فى السادسة والعشرين من عمرها، وكان الملك فى الحادية والأربعين، وكان قد فقد زوجته الثالثة فى حادث أليم. بعد قليل أسلمت «ليسا» وسماها الملكة نور، وتزوجا فى صيف ١٩٧٨.

فى الجزء الثانى من الكتاب تتناول مذكرات الملكة نور الملك حسين وجهوده من أجل الوحدة العربية والتعايش السلمى مع إسرائيل. فتروى تفاصيل عدد من الاجتماعات التى ضمت الرئيس عرفات وصدام حسين ورؤساء أمريكيين. وتنتهى مذكرات الملكة نور بوفاة الملك حسين عام ١٩٩٩.

■

Dark Star Safari: Overland From Cairo to Cape Town

(سفارى النجم الأسمر: من القاهرة إلى كيب تاون برًا)

Paul Theroux

Houghton Mifflin, 2003, 472PP., $28.00



رحلة بالبر فى شرق القارة الأفريقية، من القاهرة شمالاً إلى كيب تاون جنوبًا. قام بهذه الرحلة منذ عامين الكاتب الأمريكى المعاصر بول ثيرو الذى اشتهر بكتابة أدب الرحلات. وللاحظات بول ثيرو عن بلدان القارة السوداء أهمية خاصة لأنه قام بهذه الرحلة من قبل فى الستينيات، أى عندما كانت القارة تتحرر من الاحتلال الأوروبى وفى أوائل عهدها بالاستقلال. يقول ثيرو إنه وجد أفريقيا فى هذه الرحلة «أكثر جوعًا وفقرًا، وأقل تعليمًا، وأعمق تشاؤمًا وفسادًا» مما كانت عليه منذ أربعين عامًا.

كذلك فإن ثيرو ينتقد بشكل حاد الفرق الأجنبية التى تعمل فى بلدان القارة المختلفة فى إطار تقديم المعونات الخارجية، فهو يرى أن أموال هذه المعونات تفسد كلا من المانح والممنوح له.

الجدير بالذكر أن المؤلف زار الأديب المصرى نجيب محفوظ فى منزله أثناء مروره بالقاهرة وكتب عن لقائه به فى هذا الكتاب، كما أنه زار أيضًا الأديبة نادين جورديمر من جنوب أفريقيا والحائزة هى الأخرى على جائزة نوبل فى الآداب.

■

Crescent

(هلال)

Diana Abu-Jaber

Norton, 2003, 352PP., $24.95



لرواية الثانية لديانا أبو جابر، وهى كاتبة أمريكية من أصل عربى.. تدور الرواية حول قصة حب تجمع بين «سيرين» التى تعمل طاهية للمأكولات العربية فى أحد المقاهى فى مدينة لوس أنجيلوس، وأستاذ لدراسات الشرق الأدنى يدعى «حنيف». يتضح من أحداث الرواية أن «حنيف» منفى من العراق، وأن أخاه محبوس فى سجون صدام حسين

■

"نون"

العرب وموسم الهجرة إلى الديمقراطية

أين يقف العرب بعد صدمة الحرب وما أسفرت عنه من نتائج أدت إلى تدمير بغداد، وسقوط النظام العراقى، وانهيار مؤسساته، وفرار أو قتل قياداته، ووقوع العراق -أحد الأركان الأساسية فى النظام العربى- تحت سطوة احتلال أمريكى من طراز جديد، أعاد عقارب الساعة إلى مرحلة ما قبل الاستقلال؟

بعض الذين صفقوا لسقوط نظام صدام، وانتحاره سياسيًا وعسكريًا وعقائديًا، لم يدركوا أن سقوطه لم يؤد إلى سقوط «الفكر الصدامى» كنظام سياسى فى العالم العربى. وأن السقوط الحقيقى كان يمكن أن يتحقق بشرطين: أن يتم ذلك بيد الشعب العراقى وبناء على تغيرات جذرية فى المجتمع العراقى نفسه، يقطف الشعب ثمارها ويعيد بناء حاضره ومستقبله بكامل إرادته واختياره الحر، وطبقًا للمواصفات التى يضعها الشعب لنفسه ويتراضى عليها. والشرط الثانى أن تعمل صدمة السقوط عملها فى النظام السياسى العربى. على نحو ما أدى سقوط حائط برلين إلى تغيير جذرى كامل فى النظم الشيوعية التى حكمت دول أوروبا الشرقية، فأطلقتها من أسر النظام الشمولى، وحررتها من الجمود العقائدى، ووضعتها على مدارج الحرية والديمقراطية، لتصبح بعد مرور عشر سنوات جزءًا لا يتجزأ من تيار عالمى واسع يتحرك فى اتجاه واحد نحو التقدم.

ولا يبدو أن أيًا من الشرطين قد تحقق أو بسبيله إلى التحقق..

فقد أحدث استخدام القوة العسكرية الأمريكية الرهيبة بكل عنفوانها، حالة ذعر بين النخب الحاكمة فى العالم العربى، سوف يجعلها أكثر حرصًا على حماية نظمها داخليًا من عوامل التغيير والتطوير من ناحية، وأكثر انصياعًا لتلبية شروط القوة الكبرى المهيمنة من ناحية أخرى. وتكاد النخب العربية الحاكمة أن تكون على يقين من أن تحول أمريكا من هدف نزع أسلحة الدمار الشامل التى اتهم العراق بحيازتها، إلى هدف إزاحة النظام الصدامى ممثلاً فى شخص صدام والذين معه، لم يكن يستهدف إصلاح النظام السياسى العراقى لكى يذوق الشعب العراقى طعم الديمقراطية والحرية وينعم بثرواته المنهوبة من حزب البعث، بقدر ما كان يستهدف نزع شوكة مستعصية فى جنب النظام العربى، الذى قدم منذ حرب الخليج الثانية بعد تحرير الكويت أوراق اعتماده كاملة للولايات المتحدة الأمريكية.. فما الذى يمنع من أن تستمر الأوضاع السياسية القائمة فى العالم العربى، إذا استجابت الأنظمة للمطالب الأمريكية وخططها الاستراتيجية؟

لقد أقامت معظم الدول العربية حساباتها، منذ اللحظة التى تأكد فيها عزم أمريكا على ضرب العراق وربما قبل ذلك، على أساس ممالأة أمريكا سرًا أو علنًا، ومسايرتها فى تحقيق أهدافها. وهو نوع من التقية العربية المعروفة فى التاريخ الإسلامى، القائمة على مداهنة الخصم الأقوى تجنبًا لشروره وانتقامه وأملاً فى تأييده ودعمه.. فليذهب صدام ونظامه إلى الجحيم مقابل أن يتركهم الأمريكان على حالهم.. ربما مع بعض الإجراءات الشكلية، وعمليات التجميل السياسية، والإصلاحات التشريعية التى تقوم على إصدار قوانين لا تنفذ.

ومنذ بعض الوقت خطت نظم سياسية عربية عديدة فى هذا الطريق. فأقامت تعددية سياسية ولكن بدون تعددية حزبية حقيقية.. وإذا كانت هناك أحزاب فليس مسموحًا لها بتداول السلطة.. وسمحت بحرية التعبير فأصدرت الصحف وأطلقت الأقمار الصناعية والفضائيات ولكنها ظلت مقيدة بما تسمح أو لا تسمح به السلطة. وسارعت معظمها إلى إصدار دساتير ولكن هذا لم يمنع من تجاهل نصوصها أو تعديلها بحسب الطلب.

ولهذا السبب، أعرب بعض المعلقين الأمريكيين عن دهشتهم لأن سقوط «حائط بغداد العراقى» لم يفتح الثغرة التى ظن الأمريكيون أنهم قادرون على فتحها فى النظام العربى. وزادت دهشتهم لأن أحدًا لم يصدق أنهم جاءوا لتحرير العراق ونشر الحرية والديمقراطية والسلام فى العالم العربى. بل زاد عداء النخب المثقفة للقوة العسكرية الأمريكية التى أسقطت النظام الصدامى، ولم تر فيها تحريرًا للشعب العراقى بقدر ما رأوا فيها استعمارًا أمريكيًا صريحًا أطاح باستقلال دولة عربية كبرى، وأصبح يهدد استقلال دول عربية أخرى ويتوعدها بفرض شروط لا قبل لها بها. هذا الاستعمار الجديد القديم يستخدم نفس الحجج التى استخدمها الاستعمار، فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ونصب عينيه ثروات نفطية، وأسواق تجارية، وممرات مائية، ومواقع استراتيجية.

هناك واقع جديد يهدد استقلال جميع الدول العربية. ولا يفتأ الأمريكيون يتحدثون عنه ويؤكدون على أن هذا الواقع الجديد الذى فرضته القوة العسكرية الأمريكية لا يملك أحد مقاومته أو معارضته. بل ولا خيار أمام شعوب المنطقة وحكوماتها غير التكيف معه. وقد سارعت بالفعل دول عربية كثيرة إلى إبداء استعدادها للتكيف ولو جزئيًا. ليس عن اقتناع بضرورة التغيير وليس عن اختيار كامل وبإرادة حرة، ولكن تجاوبًا مع ما يمليه الواقع الجديد خوفًا على استقلالها أو ما تبقى منه.

إزاء هذه المعضلات الصعبة لا تملك النخب المثقفة فى العالم العربى أن تتوقف عن التفكير فى التجارب السياسية العربية، ولماذا فشلت؟ لماذا فشلت تجربة ثورة يوليو وحركة القومية العربية؟ ولماذا فشلت تجربة البعث الاشتراكى بجناحيه فى العراق وسوريا؟ ولماذا أخفقت التجربة الإسلامية فى السودان ومازالت تتخبط فى إيران؟ كل التجارب السياسية العربية والإسلامية منيت بهزيمة منكرة على يد قوى خارجية أو على يد قوى داخلية أو كليهما معًا. وظل الجسد العربى مثخنًا بجراحه، عليلاً بأمراضه، عاجزًا عن النهوض من رقدة العدم، ولم يستطع المثقفون أن ينهضوا بدورهم فى تحديث مجتمعاتهم.

ربما ازداد العرب ثراء فى الأموال وعائدات البترول وفى القصور الفاخرة ومظاهر السلطة وأساليب القمع وإجراءات الأمن، ولكنهم ازدادوا فقرًا فى الحرية والديمقراطية والتعليم والعلم والارتفاع بمستوى شعوبهم. ومازالت المنطقة العربية هى الثقب الأسود فى مضمار حرية الشعوب وتقدمها.

لقد كررت «الصدامية» أخطاء ثورة يوليو بل زادت عليها، لأنها حولت الشعب العراقى إلى آلة عمياء، تمجد شخصًا واحدًا يملك العبقرية والإلهام، وتركع تحت أقدام نظام لا يعرف الرحمة مع خصومه ولا يعرف التسامح مع أتباعه، ولا يؤمن بحق الشعوب فى مشاركة السلطة، ولا يتورع عن استخدام الغازات السامة فى قمع معارضيه.

غير أن استخدام القوة العسكرية من قوة خارجية أيضًا مرفوض، لأن الحرب لا تقل قسوة عن الطغيان السياسى. فهى تدمر الإنسان بنفس الدرجة وتقتل روحه، وتعطل إبداعه، وتخلق جيلاً من المرتزقة والانتهازيين الذين يمالئون السلطة الأجنبية فى محاولة للاستفادة من ورائها، وارتقاء سلم الحكم سعيًا وراء الثروة والنفوذ وليس من أجل شعوبهم.. وهو المصير الذى ينتظر شعب العراق تحت الاستعمار الأمريكى.

ومن هنا يصبح حتمًا على النخب الثقافية والسياسية أن تؤمن بضرورة التغيير وتعمل على تحقيقه. لا يهم إذا كانت الضغوط الأمريكية تسعى إلى تغيير النظم التعليمية والنظم السياسية بحجة أنها مصدر الإرهاب والتخلف والتعصب الذى فرض على العالم العربى هذا الوضع المهين الذى انتهى بسقوط صدام ونظامه على يد قوة أجنبية. فقد يكون ذلك صحيحًا ومطلوبًا ولكن المهم أن نقتنع نحن بضرورة التغيير.. تغيير فى النظم السياسية وفى التعليم وفى الفكر الدينى وفى مجالات الثقافة والفن.. وإذا كان موسم الهجرة إلى الديمقراطية للعرب قد بدأ، فليكن ذلك بيدنا وليس بيد غيرنا. فقد سقطت أى مسوغات لتأخير الديمقراطية بحجة أن مجتمعاتنا لم تتهيأ لها بعد.

ماعسانا نفعل ونحن لا نعرف كيف ولا متى تنتهى المحنة التى قضت على استقلال العراق، ووضعت العالم العربى فى أضعف الحالات التى تهدد باستقلاله سوى أن نخلص إلى نتيجة واحدة هى أنه إذا مرت هذه الحقبة على العرب دون نهاية للنظم السلطوية السائدة، فقد يخرج العالم العربى من سياق التاريخ إلى غير رجعة!

سلامة أحمد سلامة